الجمهورية الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبية
وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة مولود معمري – تيزي–وزو–
كليّة الآداب واللّغات
قسم اللّغة العربية وآدابها

مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر

اليوم الدّراسي الثّامن حول:

التّحليل التّداوليّ والدّرس البلاغيّ القديم

منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر
2014

موضوع اليوم الدّراسيّ الثّامن

في إطار الأيّام الدّراسية التي ينشّطها طلبة الدّراسات العليا، بإشراف وتوجيه الأستاذة الجوهر مودر ينظم مختبر الممارسات اللّغوية في الجزائر يومًا دراسيًا ثامنا، بعنوان **(التّحليل التّداوليّ والدّرس البلاغيّ القديم)** يوم الأحد 13 أفريل 2014، ابتداء من السّاعة التّاسعة (9:00) صباحا إلى السّاعة الثّانية (14:30) بعد الزّوال بقاعة المطالعة، وعليه يدعو المنظّمون الطّلبة الرّاغبين في المشاركة تقديم مداخلاتهم كاملة في إحدى المحاور أدناه، قبل يوم: 27 مارس 2014م.

المحاور:

- الدّراسات البلاغية في الموروث العربي:
- اللّسانيات التّداولية المنطلق والمنهج:
- الدّرس البلاغيّ والأبعاد التداوليّة:

اللّجنة العلميّة لليوم الدراسي:

الأستاذ الدّكتور صالح بلعيد؛
الأستاذة الجوهر مودر؛
الأستاذ ياسين بوراس؛
الأستاذ فاتح مرزوق.

الفهرس

إشكالية اليوم الدّراسي.....	2
افتتاحية	5
برنامج اليوم الدّراسي.....	7
التّأصيل البلاغيّ عند القدماء دراسة وصفيّة. أ: فاتح مرزوق	9
نشأة الدراسة البلاغية العربية القديمة. أ. وردية قلاز	23
حركة التأليف البلاغي عند العرب القدماء (قراءة وصفية في أهمّ المصادر). أ. وهيبة جراح	31
إرهاصات التداولية في التراث اللغوي العربي. أ. مراد عميروش	43
تداولية أفعال الكلام في التراث العربي. أ. الربيع موساوي	59
محور التلقي في الموروث البلاغي. أ. مهانه نايت علي	69
النّحو العربي من الوصف البنوي إلى الوصف التّداولي –دراسة في تداولية نحو اللغة العربية الوظيفي لأحمد المتوكل–. أ. ياسين بوراس	81
ملامح استراتيجية المغالطة ومستوياتها في التراث العربي. ملامح استراتيجية المغالطة ومستوياتها في التراث العربي. أ. فطمة يحي	99

قضايا تداولية معاصرة في التراث العربي البيان والتبيين نموذجا. أ. خالدي حفيظة	115
إرهاصات اللّسانيات التداولية من خلال المؤلَف Introduction à la pragmatique linguistique ترجمة: محمد يحياتن أ. كتّاب نصيرة	131
التداولية من تأويل الملفوظات إلى تأويل الخطاب. أ. علوشن جميلة	161
الافتراضات المسبقة وعلاقتها بالتحليل التداولي. أ. فليسي أمين	173
التداولية بين العملية التواصلية ومقاصد الخطاب. أ. شتيح صليحة	183
بلاغة التلميح في القول المجازي –الكناية أنموذجا–. أ. حامدة تقبايت	205

الافتتاحية

أ. ياسين بوراس

بسم الله الرّحمن الرّحيم والصّلاة والسّلام على رسوله الكريم وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، وبعد؛

بداية أتقدّم بالشّكر الجزيل إلى من له الفضل في استمراريّة مسار هذه اللّقاءات العلميّة وأخصّ بالذّكر والشّكر كلاّ من السّيد **نائب عميد كلّيّة الآداب واللّغات:** الأستاذ حميد أمزيان **والسّيّد رئيس قسم اللّغة العربيّة وآدابها:** الأستاذ شمس الدّين شرقي، **والسّيّد رئيس مختبر الممارسات اللّغوية في الجزائر:** الأستاذ الدكتور صالح بلعيد. فحضوركم شرّفنا، ونرحّب بكم بيننا، وأدامكم الله نعمة لنا.

يهدف هذا اليوم الدراسي الموسوم **(التّحليل التّداوليّ والدّرس البلاغيّ القديم)** إلى بيان موقع البلاغة العربيّة من النّظريّة اللّسانيّة الحديثة التّداوليّة الّتي ظهرت في النّصف الثّاني من القرن العشرين، وهو موجّه إلى طلبة الدّراسات العليا خاصة، ليقدّم بالنسبة إليهم أرضيّة معرفيّة حول طبيعة هذه النّظريّة اللّسانيّة وطبيعة البلاغة العربيّة، تمكّنهم من اعتمادها أو استثمارها في أبحاثهم الحاليّة أو المستقبليّة في التّنظير أو التّطبيق. فنرجو من الله أن يتحقق من هذا اللّقاء مبتغانا وأن ينال رضاكم ورضانا، والسّلام عليكم ورحمة الله وتعالى وبركاته.

برنامج الجلسات العلمية

الجلسة الافتتاحية: 9:00- 9:30
كلمة مدير مخبر الممارسات اللغوية
كلمة رئيس قسم اللغّة العربية وآدابها

الجلسة الأولى: 9:30-11:00

رئيس الجلسة الأولى: **أ. الجوهر مودر.**		
الأستاذ (ة)	عنوان المحاضرة	الجامعة
أ: فاتح مرزوق	التّأصيل البلاغيّ عند القدماء دراسة وصفيّة	تيزي- وزو
أ. وردية قلاز	نشأة الدراسة البلاغية العربية القديمة	تيزي-وزو
أ. وهيبة جراح	حركة التأليف البلاغي عند العرب القدماء (قراءة وصفية في أهمّ المصادر).	تيزي-وزو
أ. مراد عميروش	إرهاصات التداولية في التراث اللغوي العربي	تيزي-وزو
مناقشة.		

الجلسة الثّانية: 11:00- 12:30

رئيسة الجلسة الثّانية: **أ. د. صلاح يوسف عبد القادر.**		
الأستاذ (ة)	عنوان المحاضرة	الجامعة
أ. الربيع موساوي	تداولية أفعال الكلام في التراث العربي	تيزي-وزو
أ. مهانه نايت علي	محور التلقي في الموروث البلاغي	تيزي-وزو.
أ. ياسين بوراس	النّحو العربي من الوصف البنوي إلى الوصف التّداولي -دراسة في تداولية نحو اللغة العربية الوظيفي لأحمد المتوكل-	تيزي-وزو

أ. فطمة يحي	ملامح استراتيجية المغالطة ومستوياتها في التراث العربي	تيزي-وزو
مناقشة.		

الجلسة الثالثة: 12:30- 14:00

رئيسة الجلسة الثّالثة: **د. محمّد الصّادق بروان**		
أ. خالدي حفيظة	قضايا تداولية معاصرة في التراث العربي البيان والتبيين نموذجا	تيزي-وزو
أ. كتّاب نصيرة	إرهاصات اللّسانيات التداولية من خلال المؤلَف Introduction à la pragmatique linguistique ترجمة: محمد يحياتن	تيزي وزو.
أ. علوشن جميلة	التداولية من تأويل الملفوظات إلى تأويل خطاب.	تيزي-وزو
أ. فليسي أمين	الافتراضات المسبقة وعلاقتها بالتحليل التداولي.	تيزي-وزو
أ. شتيح صليحة	التداولية بين العملية التواصلية ومقاصد الخطاب	تيزي-وزو
أ.حامدة تقبايت	بلاغة التلميح في القول المجازي - الكناية أنموذجا	تيزي-وزو
مناقشة عامّة		
كلمة ختامية لمدير المختبر		

التّأصيل البلاغيّ عند القدماء دراسة وصفيّة

أ. فاتح مرزوق

جامعة مولود معمّري، تيزي- وزو

مقدمّة: نشأت اللغةّ في أحضان شبه الجزيرة العربيّة؛ وقد كانت العربُ قد بلغت أوجَها من الفصاحة والبيان وقوّة في اللّسان، فرُفِعت منزلتُها، وعلت مكانتُها، وما زادها رونقًا وسَبكا وحَبكا إلا نزولُ القرآن، فأضحت بلاغتُها مُفتاحًا لخدمة القرآن كيف لا وهو المنبع الثّريّ، والمصدر الذي لا ينضبّ، والمورد الذي لا يظمأ من اغترف من معينه، واستقى من مورده، فراحت هذه اللغة بعلومها خدمة للقرآن الكريم؛ لبيانه قوة أسلوبه وإعجاز نظمه، فكان معجزة وإعجازا وعجزا عند جَهَابذة البلاغة ونَحار يرها؛ فأضحى ربُّ العزّة يتحدَّاهم ولو بشيء قليل منه فما اسْطَاعوا له مثلاً؛ لذا يقول فيهم ربُّ **لعزّة:** ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الإسراء: [الآية 88].

إذاً الدّراسة البلاغيّة عند العرب استأثرت القرآن الكريم؛ لذا نشطت الحركة العلميّة خدمةً لهذا النّصّ الربّانيّ، فراحت الكتب تتناثر هنا وهناك مبيّنة بلاغة القرآن وإعجازه من كلّ جوانبه التّركيبية والدّلاليّة، من أجل ذلك نطرح الإشكال: كيف انطلق البلاغيّون القدامى في تأصيل الدّرس البلاغيّ؟ ما هي المدارس البلاغيّة التي أسست لهذا العلم؟

❖ **بين البلاغة والفصاحة**

البلاغة في اللّغة هي: البلوغ والانتهاء، نقول: بلغت الشّيء أي: وصلت غليه وانتهيت، وبلّغ الركبُ المدينةَ: إذا انتهى إليها، ومبلغ الشيء ومنتهاه[1].

أمَّا في **الاصطلاح** فقد عرفها القز ويني بقوله: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"[2].

وقد سُئل العتَّابيّ عن البلاغة فقال: "ما البلاغةُ؟ كل ما أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ فقيل له: قد عرفنا الإعادة والحبسة، فما الاستعانة ؟قال: أما تراه إذا تحدّث قال عند مقاطع الكلام: يا هناه، ويا هيه، واسمع مني، واستمع إلي، وافهم عنّي، أو لست تفهم، أ ولست تعقل، فهذا كله وما أشبهه فهو عيٌّ وفسادٌ[3]".

والبيّن من قول العتابي أنّ البلاغة ترتكز على تبليغك المعنى المنشود بلفظ مقصود، والأمر عينُه نجده عند ابن المقفع حين ردَّ البلاغة إلى المعنى الذي تريد تبليغه؛ حيث يقول: "لا خيرَ في كلام لا يدلّ على معناك، ولا يشير إلى مغزاك"[4].

كما أنّهم أخضعوا ميزان البلاغة لمقتضى الحال وعدم التّكلف، وهذا الذي ذكره الجاحظ حين قال: "ومدار اللائمة ومستقرّ المذمّة حيثُ رأيت بلاغة يخالطها التّكلف"[5].

ولو دقّقنا النّظر وأمعنا التّدبر لنجد أنّ البلاغة اشتقّت من الفعل "بلغ" وهو يشير غلى الوظيفة الرئيسة لمعنى البلاغة وهي: التّبليغ أي إيصال الكلام المقصود والمنشود ومنه ينتج عندنا:

البلاغة: بلاغ ⟵ إبلاغ ⟵ تبليغ

ولعل هذا الاشتقاق هو الذي جعل علماء القرن الرابع الهجريّ يجعلون معنى البلاغة والفصاحة بمعنى واحد، وهو ما نجده عند الجوهري (ت 393 هـ) البلاغة هي الفصاحة؛ كون البلاغة من الإبلاغ عمّا في النفس وهو الإفصاح مثله فنقول أفصح عمّا في نفسه بمعنى أبان.

الفصاحة: تطلق على معانٍ كثيرة منها: الوضوح والبيان، قال تعالى ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ القصص [الآية 34]

أي: أبين منّي قولاً وأفصحَ الصّبيُّ إذا بان وظهر كلامهُ[6].

وفي اصطلاح أهل المعاني "عبارةٌ عنِ الألفاظِ البيّنةِ الظّاهرةِ المتبادرةِ إلى الفهمِ، والمأنوسةِ الاستعمال بين الكتّاب والشّعراء لمكان حسنها"[7]

والظّاهر أنّ الفصاحة خاصّة بالكلمة والمتكلّم والكلام؛ لذا جعلوا لها شروطا أربعة:

- عدم تنافر الحروف؛
- عدم غرابة الاستعمال؛
- ألا تكون الكلمة مخالفة للقياس؛
- عدم الكراهة في السّمع .

إذن العربيّ كان بطبعه يراعي هذه المقاييسَ في كلامه فيأتي كلامُه مطبوعًا يسمع الكلامَ البليغَ واللفظ الفصيحَ فينفعل له ويميزه بأذنه، فالحَسَن منه يستحسنه والقبيح منه يستقبحه ويستهجنه.

❖ **نشأة الدّرس البلاغيّ عبر العصور**

1- البلاغة في العصر الجاهليّ: العرب أمّة فصاحة وبيان مُذْ عصور خلت؛ لذا نجدها تتكلَّم بسلاسة دُونَما أيّ تكلَّف ولا حتى خبل وخطل وخير دليل ذلكم الشِّعر الذي خلَفته قرائح الشُّعراء في العصر الجاهليّ؛ كونُ الشِّعر عندهم صناعة يقول شوقي ضيف: "من يرجع إلى صناعة الشِّعر العربيِّ في أقدم نماذجه يرى صعوبة هذه الصناعة، وأنها ليست عملا غفلا، بل هي عمل موسوم بتقاليدَ ومصطلحاتٍ كثيرة، وتلك آثار الشِّعر الجاهليّ تتوفّر فيها قيود ومراسيم متنوعة؛ ولعلّ ذلك ما جعل **جويدي** يقول: "**إن قصائد القرن السَّادس الهجريّ الميلاديّ جديرة بالإعجاب تنبئ بأنَّها ثمرة صناعة طويلة**"[8].

ولعل جذور البلاغة قد كان منبتها بوضوح في ما نَلْحَظُه من مفاضلة بين شاعر وشاعر آخر، وقد كان مقياس هذا الحكم الذوق الفطريّ والحسّ الُمرْهَف ولعلَّ من نماذجه ما روته أمَّات الكتب الأدبية؛ كالَّذي روي عن أم جُندب زوج

امرئ القيس حين عرض عليها أن تقضيَ بين امرئ القيس زوجها وبين علقمة الفحل فحكمت لعلقمة، وقالت لزوجها: "علقمة أشعر منك" قال: كيف؟ قالت: لأنَّك قلت:

فللسَّوط ألهوب وللسّاق درة وللزجر منه وقع أخرج مهذب

فجهدت فرسك بسوطك في زجرك، ومريته فأتعبته بساقك، وقال علقمة:

فأدركهنَّ ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلِّب

فأدرك فرسه ثانيا من عنانه، ولم يضربه ولم يتعبه.

فالشَّيء الظّاهر من قول أم جندب أنّ علقمة قد تفوَّق على امرئ القيس بتعبيره وتركيبه السَّلس من منطلق البيئة التي يظعن فيها، فقد وصف فرسه بما تحويه بيئتهم آنذاك.

ولعلَّ من أسباب رواج البلاغة في العصر الجاهليّ تلك الأسواق التي قد كانت تقام كل سنة في مكة؛ ممّا جعلت حسهم البلاغي يزدهر ويربو في الأوساط العربية، فهذه الأسواق التي كانت تقام فيها المفاخرة والمباراة بالشّعر يجعل الشاعر يعمل عقله ويجهد نفسه حتى يخرج قصيدة بالغة النَّظم عظيمة الفصاحة، تقعده على عرش البيان وتوضع له قبةٌ من أدم، وفي هذا يقول أحمد حسن الزيات: "كانوا يقيمونها في أشهر السنة للبياعات والتَّسوق، وينتقلون من بعضها إلى بعض فتدعوهم طبيعة الاجتماع إلى المقارضة بالقول والمفاوضة في الرّأي والمبادهة بالشعر، والمباهاة بالفصاحة، والمفاخرة بالمحامد، وشرف الأصل، فكان من ذلك للعرب معونة على توحيد اللسان والعادة والدين والخلق؛ إذ كان الشاعر أو الخطيب إنما يتوخى الألفاظ العامّة والأساليب الشائعة، قصدًا إلى إفهام سامعيه وطمعًا في تكثير مُشايعيه، والرُّواة من ورائه يطيرون شعره بين القبائل، وينشرونه في الأنحاء، فتنتشر معه لهجته، وطريقته وفكرته، وأشهر هذه الأسواق: عكاظ ومجنة وذو المجاز وأولاهنَّ أشهرُ فضلاً وأقوى أثرًا في تهذيب العربية"[9].

إذن بُداية بلاغة العرب نَلْمسُها في تعاطي الشِّعر والتَّفاخر بالبيان؛ فحياتهم البُدائية كانت بنيانُها مبنيةً على ذلك، يقول حمد بو شهاب:

قبل الرسالة قل لي من همُ العربُ وأيّ مجد بنـــــــت أم لهم وأب
تعال فاستقرئ التَّاريـــخ أمثـــلة تر الحقائق فيما تحمل الكـــــتبُ
كان التفاخر بالأنساب رائـــدهم في كل ناد فماذا حقـــق النسب
هل استطاعوا به توحيـــد أمتهم كلا ففاقد أمـــر الشيء لا يهب

والخلاصة: أنّ عرب الجاهليّة "بلغوا من حسن البيان مبلغا رفيعا، جعلهم يميزون بين صور الكلام ويبدون بعض الملاحظات البسيطة وعليه، ونمت هذه الملاحظات بعد ظهور الإسلام، بما نصبه القرآن الكريم والحديث النبويّ أمامهم من مثل أدبية رائعة، وسرعان ما استقروا في المدن والأمصار وارتقت حياتهم العقلية، مما هيّأ لملاحظات بيانية كثيرة عن الخطابة والخطباء والشعر والشعراء"[10]

إذن البلاغة عند العربيّ في العصر الجاهليّ شبيه بالغريزة، غير مقصورة ولا محصورة على طبقة معينة، وإنّما هي سمةٌ كافة و قاطبة عن العرب، فاستمر هذا فيهم، وتسلسل في ذراريهم.

البلاغة في صدر الإسلام: ممّا لا ريبَ فيه ولا شك أن البلاغة في هذا العصر قد بلغت مبلغ رقيّ وازدهار؛ كونها مقرونةً بأبلغ وأسمى نصّ عرفته البشريّة وهو القرآن الكريم؛ هذا النّص الذي حارت فيه فرسان البراعة وجهابذة اليراعة لما فيه من بيان وحسن نظم وقوة تركيب فكان المعجزة الخالدة ؛ حتىَّ إن من الشُّعراء من كان يُنظم الشِّعر فكبح لسانه عن قول الشعر، وعليه لا غَروَ أن نَلْمس البلاغة السّحرية متطوِّرةً في هذا العصر؛ كونها خادمةً للقرآن الكريم فيما بعدُ .

وعليه ما يميزُ هذا العصرَ نزول القرآن وحيا من الله على نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم– وقد أحدث القرآن الكريم أكبر ثورة في حياة العرب الدينيَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة؛ والسَّبب الأوّل لتأثيره في العرب هو فصاحته وبلاغته، فقد جاء القرآن: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ الشعراء [الآية 195]

ونال الصّقة العربيّة الملازمة له إلى يوم الدّين: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يوسف [الآية02].

وممّا تجدر إليه الإشارة إليه أن الإسلام ما ذمَّ الشّعر قطّ كما زعم البعض، وهذا ما ورد في قوله تعالى:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾الشعراء [224– 227] .فالآية ذم للشّعراء، وفيها استثناء، وهذا الاستثناء يدخل فيه كلٌّ من حسّان بنِ ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وهم شعراء الرّسول والمنافحون عن الدّولة ويَعُمّ من سار على منوالهم وقد وردت بعض في ذمّ الشُّعر، في أخرى في استحسانه، وليس الذّم مطلقا، ولا المدح كذلك.

وإنَّما بحَسَب ما يحمله الشّعر من المضمون، والكلمة الفضل في موقف الدّين من الشّعر هو قول النّبيّ صلى الله عليه وسلم: "الشّعر بمنزلة الكلام فحسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام"[11]، قال المنّاويّ: قال النّوويّ: يعني الشّعر كالنثر فإذا خلا عن محذور شرعيّ؛ فهو مباح، وقد قال عمر: (نعم الهديّة للرجل الشّريف الأبيات يقدّمها بين يدي حجّته يستعطف بهن الكريم، ويستذل بهن اللئيم). لكن التّجرد له الاقتصار عليه مذموم كما في الأذكار"[12].

كما تجدر الإشارة على أن الإسلام قد أُولِي اهتمامًا بالغًا بالبيان، فلو لم يكن ذاك لكان الإنسان والبهائم سواء يقول ربّ العزة:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ الرحمن [الآية1– 4]، ضف إلى أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – سُئِل عن الجمال في الرّجل، ما الجمال في الرّجل؟ فقال: "فصاحةُ لسانه".

جميلٌ أن نُحسن البيانَ؛ فالبيان سحر، لكنْ شريطة أن يَفِي بالغرض المرجوّ دونما أيّ خَبْل وخَطْل، فهو ليس وسيلة لقلب الحقائق وعكس ما نجده عند القدماء يقول أبو هلال العسكري: "قال ابن المقفع: ((البلاغة كشف ما أغمض من الحق وتصوير الحق في صورة الباطل)) والذي قاله أمرٌ صحيحٌ لا يخفى موضع فيه على أحد من أهل التّمييز والتحصيل؛ وذلك أن الأمر الظَّاهر الصَّحيح الثَّابت المكشوف؛ ينادي على نفسه بالصَّحة، ولا يحوج التّكيف في صحته حتى يوجد المعنى فيه خطيبا. وإنَّما الشّأن في تحسين ما ليس بحسن وتصحيح ليس بصحيح بضرب من الاحتيال والتحيل[13].

والأمر الجليّ في هذا العصر، هو ما خلَفه الخلفاء الأمراء من خطب ورسائلَ تعبّر عن بلاغة عالية تعدّ ذخيرة لغويّة ومدونة راقية أسْهَمت في رفع اللّغة العربيّة، فهي فاتحة تطور الدّرس البلاغيّ فيما بعدُ.

إذن يعدُّ عصر الإسلام عصر البلاغة ومشعل الفصاحة؛ كونُه مرتبطًا بنزول القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف، وقد كان لذلك أثرٌ كبيرٌ في ما بعدُ في بلورة النّظريّة البلاغيّة والنقديّة عند العرب[14].

❖ **البلاغة في العصر الأُمويّ:** هذا العصر ليس كسابقته؛ كون هذا العصر اختلطت فيه العُجم بالعرب، فتبلبلت لغة العرب، واستكانت بلاغتها وسليقتها، وقد اشتهر في هذا العصر سوق المربد؛ حيث تبارى فيه الشعراء، وبخاصّة ثلاثيّ النّقائض جرير والفرزدق والأخطل، ممّا أدّى إلى اشتعال لهب الهجاء، وراحت صيحات الغزل العذريّ تتناثر في أشعار الشّعراء، كما اشتهر المدح وشعر الحماسة والغزل الماديّ في الحجاز؛ بسبب تأثّر الحضارة العربية بالحضارة الأجنبيّة، "أمّا الثقافة فكانت روافدها ثلاثة: جاهليّ وإسلاميّ وأجنبيّ. وانتشر الشّعر في الحواضر الإسلامية وخاصة بمكةَ والبصرة ونجد، والكوفة والبصرة وخراسان والشام ومصر وغيرها[15]".

ولعل الشّيء الذي تطوّرت فيه لغة العرب وبانت فيه البلاغة بكلّ مقاييسها هو فن الخطابة؛ حيث ازدهرت ازدهارا مذهلا وفي هذا يقول شوقي ضيف: "لعل العرب لم يعرفوه في أي عصر من عصورهم القديمة، فقد كانوا أصحاب مواهب بيانيّة، وعملت بواعثَ كثيرة على أن تتوهّج هذه المذاهب في الخطابة حينئذ[16]".

ومن الخطباء المشهورين آنذاك زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفيّ؛ حيث كان هذا الأخير خطيبا مصقعا والأمر نفسُه نجده عند زياد بن أبيه؛ إذ يقول فيه الشعبيّ: "ما سمعت متكلّما على منبر قطّ إلا أحببت أن يسكت خوفا من أن يسيء إلا زيادا فإنّه كلما أكثر كان أجود كلاما[17]". وممّا رفع من أفق البلاغة في هذا العصرِ تلك المناظرات التي دارت بين المذاهب العقدية كالمرجئة والشيعة والمعتزلة، فكان طبيعيا أن تتطوّر الدّراسات البلاغيّة.

والدّرس البلاغيّ شأنه شأن الدّرس النّحوي كان له مجالس وأسواق طوّرت هذا الدّرس، ففي العصر الأُمويّ اُشتهر سوق الكُناسة في الكوفة يلتقي فيه الشّعراء ويتبارون بالشّعر فيأخذ هذا من ذلك، فهو شبيه بالمسرح يأتيه من كل صَوب وحَدْب، ليس في الشّعر وحسب، بل في النثر كما نجده عند عبد الحميد الكاتب؛ حيث استخرج من كتابته أمثلة، مسحت في صناعته الكتابيّة حيث يقول أبو هلال العسكري: "ومن عرف ترتيب المعاني، واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللّغات، ثم انتقل إلى لغات أخرى، تهيّأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيَّأ له في الأولى، ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللّسان الفارسيّ، فحوّلها إلى اللّسان العربيّ، فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى، وتصحيح اللّفظ، والمعرفة بوجوه الكلام"[18].

لكنّ الجدير بالذّكر أن الذَّوق الفنيّ المعروف في هذا العصر؛ والّذي تزامن مع الدّراسات اللّغوية الأخرى ما كان مقتصرا على زمن دون زمن، فلكلّ عصر رجالاته لهم حس بلاغيّ وأذن مرهفة وعاطفة جياشة

وقد تنبّه لهذا ابن قتيبة حين قال: "ولم يقصر الله العلم والشّعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشترِكا مقسوما بين عباده في كل دهر[19]".

ومن تطوّر الدّرس البلاغيّ في هذه الفترة ما نَلحظه عند الشّعراء من نقد؛ بسبب تذوّقهم وحسّهم بسياق الكلمة في موضعها، ومن الأدلّة المبثوثة في الكتب ما قالته امرأة لكُثَّير عزة: أنت القائل[20]:

فما روضة بالحزن طيبة الثّرى يمجّ النّــدى جُثْجَاثهُا وعرارها

بأطيبَ من أردان عَزّة موهنا إذا أوقدت بالمندل الرّطب نارها

قال: نعم. قالت: فضّ الله فاك، أرأيت لو أن ميمونة الزنجيّة بُخرت بمندل رطب، أما كانت تطيب؟ ألا قلت كما قال سيدُك امرؤُ القيس:

ألم ترَ أنّـــــي كلما جئتُ طارقًا وجدتُ بها طيبًا وإن لم تَطيَّب

❖ **البلاغة في العصر العباسيّ:** العصر العباسيّ عصر الإسلام الذهبيّ؛ حيث توسّعت فيه الدّراسات اللّغوية، وترجمت الكتب الفلسفيّة وظهرت جلّ المدارس النّحويّة وحتّى البلاغيّة، فقد فرّط فيه التّشجيع العلميّ من لَدُن الخلفاء والأمراء فكان التّصوف والزّهد، ويقابله التّرف والبَذَخ؛ فالعصر العباسيّ اصطبغ بصبغة فارسيّة، فكان حتما أن يكون ثمّة تعارضٌ وتضارب بين فئتين فئةٍ تدعوا للدين وفئةٍ تدعوا إلى ما دون ذلك. ممّا يميّز هذا العصر في الدّرس البلاغيّ نذكر:

✓ **ازدهار الملاحظات البيانية:** يقول شوقي ضيف مبينا هذه الخاصية:" أخذت تتسع وتدق في العصر العباسيّ الأول؛ بحكم التعمق في الحضارة، وفي الثقافات الأجنبيّة، وإتقان الموالي للعربيّة إتقانا جعلهم يكثرون من ملاحظتهم على خصائصها البلاغيّة، ومضى كتاب الدّواوين ينهضون بكتاباتهم ناثرين من الآراء البيانية التي صدروا فيها عن ثقافاتهم وأذواقهم الحضارية المهذبة ومشاعرهم الدقيقة المرهفة، وبالمثل نهض الشعراء بشعرهم، وموازنين كثيرة بين معانيهم

ومعاني القدماء، وبين أساليبهم المولَّدة والأساليب الموروثة نافذين إلى ما سمَّوه بالبديع[21]".

✓ **تدوين البلاغة:** قد كان للُّغويين العرب والنّحويين دورٌ كبيرٌ في تطوير البلاغة العربيّة من خلال مِلفاتهم التي قد ألفت في مجال البلاغة، ممّا جعلها تربو وتزهو في العصر العباسيّ، وفي مقدّمتهم ابن قتيبة والمبرد، وقد كان هذا بغرض الدّفاع عن الدّين الإسلامي؛ كونه المعجزة الخالدة على مرّ العصور والدهور؛ "حيث كانوا ينشطون على ضوء سابقيهم في تصنيف كتب يفسحون فيها للملاحظات البلاغيّة، غير أنهم لم يضيفوا شيئا مهمّا"[22]

- **المدارس التّأصيليّة للدرس البلاغيّ:** ما من علم إلا ويتطوّر رويدا رويدا؛ حتّى يستوي على عوده، والبلاغة شأنها شأن أيّ علم يربو ويتطور خاصة إذا أضحى هذا العلم خادما لأسمى كتاب وأرقى؛ وهو القرآن الكريم، ولعلّ ممّا لا ريب فيه أنّ العصر العباسيّ هو العصر الذي سبكت فيه البلاغة وأسّست كعلم له قواعد ينبني عليها.

1- **المدرسة الجاحظيّة:** يعدُّ الجاحظ من الرّواد الذين أسّسوا للبلاغة العربيّة؛ من خلال المُؤلفات التي عُني بها، ضف أنّه عبقريّة فذّة، فهو معتزليّ المذهب وهذا المذهب هو الّذي جعله يبرز في هذا العلم، وخير شاهد على ذلك كتابه "الحيوان" والبيان والتبيين" فهذان الكتابان يعدّيان من لباب ما كتب في البلاغة فهما لبابان زاخران وكتابان زاهران تلد على براعة هذا الرجل، خاصة إذا تعلق الأمر بالإعجاز القرآنيّ.

وممّا هو جدير بالذكر أنّ الجاحظ ألف كتابا بالنَّظم القرآنيّ؛ حيث أثبت فيه البيان والإعجاز القرآنيّ وهو كتاب "نظم القرآن"، ولعل هذا العِنوان يبرز مكانة البيان عند الجاحظ؛ كونُه ذا صلة بالبيان والإعجاز القرآنيّ، ورغم ثراء هذا الكتابِ إلا أنّه لم يصلنا كما صرّح بذلك الباقلاني إذ يقول: "وقد صنَّف الجاحظ في

نظم القرآن كتابا، ولم يزد على ما قاله المتكلّمون قبله، ولم يكشف عمّا يلتبس في أكثر من معنى"[23].

والأمر الذي برز فيه الجاحظ هو الإعجاز القرآنيّ، وهذا الّذي صرَّح به محمود شاكر حيث يقول: "إنّ جميع من ألف في إعجاز القرآن ذكر لأبي عثمان كتابا ردّ فيه على رأس المعتزلة أبي إسحاق النّظام، وهو كتاب ألَّفه قبل كتاب حجج النبوة وقد وصفه الجاحظ نفسه في كتاب حجج"[24].

كما نجد الجاحظ أبدع في كتابه الحيوان؛ حيث ذكر شذرات من مباحث البلاغة وبعض اللمحات كالإيجاز والإطناب واختيار الألفاظ والفرق بين المُولّد والأعرابيّ واللّفظ والمعنى.

2- **المدرسة الباقلانيَّة:** يعدُّ هذا الرجلُ من عباقرة القرن الرّابع الهجريّ؛ والشّيء الملحوظ في هذه المدرسة أنَّها اهتمَّت بالقرآن الكريم من حيثُ نظمُه وتركيبُه، وإعجازه وبنية أسلوبه؛ لذا يُعدُّ عليما بالإعجاز القرآنيّ ولا دلّ على ذلك إلا كتابه "إعجاز القرآن" وهذا ما جعل محقّق كتابه أحمد صقر يقول: "وهو أول كتب الباقلانيّ نشرا وأشهرها ذكرًا، وهو أعظم كتاب في الإعجاز إلى اليوم، وإن كره ذلك بعض المتعصّبين على المعهد العتيق"[25].

وإنّ المتمعّن في هذا الكتاب ليجدُ مؤلَّفًا برع في مجال الإعجاز القرآني؛ كونُه أعجز العرب قاطبة وفصحاءها وبلغاءها خاصَّةً؛ لذا قُسّم الإعجاز إلى ثلاثة أقسام: قسمٍ يتضمّن الأمور الغيبية وقسمٍ يتضمن أمية النَّبيّ – صلى الله عليه وسلم– وقسمٍ ثالث يتضمّن الإعجاز البيانيّ والبلاغيّ في القرآن الكريم، هذا الباب الذي حارت العرب فتَحه بكل طرق الإعجاز بحرفٍ فآية فسورة فما استّطاعوا وما ينبغي لهم.

وقد أمعن نظره وأجهد عقله في هذا القسم؛ كونُه خرج عمّا عُرِفت به العربُ في نظمها وطريقة كلامها وقد بيّن ذلك في كلامه "والوجه الثالث: أنه بديع النَّظم عجيب التَّأليف، منتاه في البلاغة، إلى الحدِّ الذي يعلم عجز الخلق عنه، والذي

أطلقه العلماء هو على هذه الجملة، ونحن نفصّل في ذلك بعض التفصيل، ونكشف الجملة التي أطلقوها، الذي يشتمل على بديع نظمه، المتضمّن للإعجاز وجوه: منها: ما يرجع إلى الجملة وذلك أن نظم القرآن على تصرُّفه وجوهه، وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، مباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوبٌ يختصّ فيه، ويتميَّز في تصرُّفه عن أساليب الكلام المعتاد"[26].

ومن خلال هذا التَّقسيمِ الذي أمْهَره الباقلانيّ يظهر أنَّه كان وَلوعًا بنظم القرآن خاصَّةً الجملة والمفردة؛ كونُها خالفت قياس العرب المعروف والمألوف.

3- **المدرسة الجرجانيّة "النّظم النّحوي البلاغيّ"**: ممَّا لا ريب فيه أن الجرجانيّ علم من أعلام البلاغة العربية؛ كونُه متأثرًا بمدرسة الجاحظ؛ فهذا الرّجلُ كان عبقريًّا فذًّا ذا إحساس مرهف وأذنٍ سمَّاعة للُّغة الراقية والبلاغة العالية، فقد أخرج علم البلاغة من جانبه النّظريّ إلى جانبه التَّطبيقيّ، المدقّق لمعاني الألفاظ و طرق استعملها في السّياق والمقام، وكيف أعطى للتّركيب صبغة دلاليّة، فأضحى اللّفظ المقصود في الموضع المنشود؛ فعُدَّ حينئذ حَبْراً علما في نظريّة تسمَّى "النّظمَ"، حتَّى إنّه شُبِّه بالفيلسوف اليونانيّ أرسطو، فقد رأوا أنَّ الجرجانيّ فيلسوفا في مجال البيان.

غير أنَّا نجد بعضا من الأقوام يُرجعون النّظريّة الجرجانيّة قائمة على تأثّر يونانيّ، "فحصروا نظريّة النّظم في أنّها تأثير بين قواعد النّحو العربيّ وبين آراء "أرسطو" العامّة في الجملة والأسلوب والفصول"[27].

ومن المؤلّفات التي اُشتهر بها عبدُ القاهر الجرجانيُّ "دلائل الإعجاز"؛ حيثُ أثبت فيه قواعد البيان وأسّسه ؛ ولذا نجده يذكر في كتابه سببَ تأليف هذا الكتاب: "ثم إنّ التّوق إلى أن تقر الأمور قرارها، وتوضع الأشياء مواضعها والنّزاع إلى بيان ما يشكل، وحلّ ما ينعقد، والكشف عمّا يخفى، وتلخيص الصّفة حتى يزداد السّامع ثقة بالحجّة، واستظهار على الشّبهة، واستبانة على الدّليل، شيء في سوس العقل، وطباع النّفس إذا كانت نفسا. ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله

العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة، والبيان والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد منها[28]".

الخاتمة: تضمّن هذا المقالُ التّأصيل البلاغيّ عند العرب، وكيف استطاع فرسانُ البراعة وأولوا اليراعة أنْ يؤسّسوا لهذه اللّغة حفاظًا على النّص القرآنيّ وبيانا لبلاغته من حيثُ نظمهُ وأسلوبهُ وتركيبهُ؛ فأضحى معجزةً خالدةً على مرِّ العصور، فأعجز العربَ قاطبة؛ لذا أحسّت طائفةٌ من نحار ير العربِ وجَهَابذتها بقيمة هذا العلمِ فراحوا يخلّدون حياتهم لخدمته؛ من حيثُ التّأليفُ والشرحُ والتّفسيرُ وقد توصلنا من خلال هذه البضاعة المزجاة إلى نتائج تتناسب وما بحثنا فيه:

- منطلق الدّرس البلاغيّ عند خدمة القرآن الكريم؛
- الهدف المَحْبوك من اهتمام بالبلاغة؛ لإثبات مستوى الإعجاز القرآني؛
- البلاغة آليّة من آليّات النّحو العربيّ؛
- البلاغة إبلاغ وبلاغ وتبليغ؛
- نظريّة النّظم نظريّة قائمة على امتزاج البلاغة بالنّحو؛

الهوامش

1 – السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. بيروت، دار الفكر، 1976 ط2، ص 6، 7.

2 – القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة. بيروت. دار الكتاب اللبناني: 1983، ط8، ج1، ص 80.

3 – مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، القاهرة. دار الفكر: د/ت، د/ط ، ص 15.

4 – مازن المبارك، المرجع السابق، ص 17.

5 – المرجع نفسه، ص 18.

6 – السيد أحمد الهاشمي، المرجع السابق، ص 19.

7 – السّيد أحمد الهاشمي، المرجع السابق، ص 19.

8– شوقي ضيف، فن الشعر ومذاهبه. القاهرة. دار المعارف: د/ت، ط10، ص 14.

9– أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، ص 15–16

10 – شوقي ضيف، البلاغة تاريخ وتطور، القاهرة. دار المعارف: د/ت، ط9، ص 368

11 – أنظر، الجامع الصغير، دار الفكر، ج4، ص 175

12 – الفيض القدير، ج4، دار الفكر، ص 175.

13 – أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ت: مفيد قميحة، بيروت. دار الكتب العلمية:1981 ط1، ص 64.

14 – مجلة الحكمة الصادرة في مانشستر، العدد(27)، جمادي الثانية 1424، الموافق 2003.

15 – شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، ص 139– 214.

16 – المرجع نفسه، ص 484.

17 – شوقي ضيف، المرجع السابق، ص14–15.

18 – أبو هلال العسكري، المرجع السابق، ص 84.

19 – ابن قتيبة، الشعـــر والشعـــراء، ت: محمد العريان، بيروت. دار إحياء العلوم: 1991 ط4، ص23.

20 – محمد رفعت أحمد زنجير، مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن، الإمارات. جائزة دبي الدولية: 2008، ط1، ص 50.

21 – شوقي ضيف، المرجع السابق، ص 368.

22 – شوقي ضيف، المرجع السابق، ص 368.

23 – إعجاز القرآن، الباقلاني، دار المعارف. مصر: ط3، د/ت، ص 6.

24 – محمود شاكر، مداخل إعجاز القرآن، جدة. دار المدني: 2002، ط3، ص 27– 28.

25 – إعجاز القرآن، المرجع السابق، ص 67.

26 – المرجع نفسه، ص 35.

27 – حمادي صمو، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، تونس. منشورات الجامعية التونسية: 1981، ص 82.

28 – المرجع نفسه، ص 104– 105.

نشأة الدراسة البلاغية العربية القديمة

أ. وردية قلاز
جامعة مولود معمري، تيزي- وزو

مقدمة: تحتل البلاغة مكانة رفيعة، سامية بين مختلف العلوم، إذ نجد جلّ الدّراسات الجامعية تتخذها كمادة أساس للدّراسة، وما البلاغة إلاّ ذاك الإعجاز الإلهي الذي تحدّى به العرب أهل الفصاحة والبيان؛ لذلك قيل عن الأدب أنّه تعبير عن فكرة جميلة، وما البلاغة إلاّ ثمار نتاجها فلا يمكن الفصل بينها وبين الأدب.

كما تعدّ مقاييس الجمال البلاغي علم تنصهر فيه علوم البلاغة جميعها، بلغتها ونحوها، وصرفها وهو أيضا علم يمثل الإنسان العربي بذوقه وفكره.

بذوقه من خلال النصوص العربية المختلفة والمتنوعة التي أنتجها الإحساس المرهف، والتفنن في أساليب اللّغة عبر الأزمنة والعصور. بفكره من خلال الهندسة التي يقيم عليها تلك النصوص، والمناهج المختلفة لدراسة وتحليل ذلك الموروث، والقواعد التي وضعها كمعالم لتوجيه الذّوق وإرشاد الفكر.

والمصطلح البلاغي رائد لاستكشاف الجمال الأدبي، فمحور الاهتمام الأول والأخير للدرس البلاغي هو النّص الأدبي، وللحصول على لسان بليغ لابد من كثرة المدارسة والحفظ والتّأمل للنّصوص القرآنية والأحاديث النّبوية وغيرها من روائع النّصوص هذا أولا.

ثانيا: الوقوف الطويل على فهم النّصوص وإدارة الحوار الحيّ حول مضمونها للتّأكد من وصول النصوص لذهن القارئ مع التّركيز على التّعرف إلى الجمال الفكري الذي حواه المضمون.

وتأتي مرحلة التّذوق، وفيها يكشف المدّرس بخبرته وبراعة أدائه ما في النّص من جمال في صورته التعبيرية، فالموقف اليوم للأسف غير ما أشرنا إليه من قبل؛

لأنّنا نشكو ندرة من يحس ويتذوق جمال النص فوظيفته البلاغية هي الإمتاع والإقناع، وترقيق الوجدان، وتهذيب السلوك. ربما هذا ما يقودنا للتّساؤل التالي:

- **ما البلاغة؟ وكيف نشأت البلاغة القديمة؟**

1- مفهوم البلاغة: لقد كان مفهوم البلاغة مقابلا لمصطلح (Rhétorique) "ترددت بين ثلاثة مفاهيم كبرى: المفهوم الأرسطي الذي يخصصها لمجال الإقناع وآلياته، والمفهوم الأدبي الذي يجعلها بحثا في صور الأسلوب والمفهوم النّسقي الذي يسعى لجعل البلاغة علما أعلى يشمل التخييّل والتداول معا"[1]، والآن سنتطرق للمفهوم اللّغوي والاصطلاحي للبلاغة:

أ-مفهوم البلاغة لغة: البلاغة مأخوذة من قولهم بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وبلّغها غيري والمبالغة في الأمرَ: أن تبلغ فيه جهدك وتنتهي إلى غايته، وقد سمّيت البلاغة بلاغة لأنّها تنهي المعنى إلى قلب سامعه فيفهمه، ويقال: بلغ الرجل بلاغته، إذا صار بليغا، ورجل بليغ: حسن الكلام، ويقال: أبلغت في الكلام إذا أتيت بالبلاغة فيه.

ب-مفهوم البلاغة اصطلاحا: اختلف أهل العلم في تحديد مفهوم البلاغة فعرّفها الخليل بقوله: «البلاغة كلمة تكشف عن البقية»[2]، وفي تعريف آخر للخلف الأحمر يقول: «البلاغة لمحة دالة»، وقال آخر: «البلاغة حسن العبارة، مع صحة الدلالة»، وقيل: «البلاغة قوة على البيان مع حسن النظام»، وقالوا: «البلاغة ضد العِيّ، والعي، العجز عن البيان»[3].

2- البلاغة العربية ومراحل نشأتها: للبلاغة مكانة وأهمية كبرى في العالم العربي، فابن خلدون قال عنها: -البلاغة العربية- «... أنّها ولدت في البيئة العربية لخدمة مقاصد عربية محضة، وعلى رأس هذه المقاصد منع اللحن الذي بدأ يزحف على اللّغة العربية مع الشعوب غير العربية التي دخلت الإسلام»[4].

إذ ارتبطت البدايات الأولى لعلم البلاغة بحقل الدراسات اللّغوية، والنحاة والمفسّرين ثمّ تربت على يد المتكلمين، ثمّ خضعت لتيارين أجنبيين هما: اليوناني والفارسي[5].

كما كانت للبلاغة أهمية في التّراث العربي القديم، ولازالت هذه الأهمية في عصرنا الحالي، فهي ليست ضرورية لحياة الأدب وفقط، بل هي ضرورية في الحياة ككل؛ ضرورية للأديب في تأليفه، وللنّاقد في تصانيفه، وللقارئ في تذوّقه للجمال في العمل الأدبي، فكيف لا تكون لها أهمية؟ فالعربي القديم نشأ في بيئة صحراوية خشنة جعلت من لسانه يتقطر دررا من لآلئ الكلام، ومعاقد اللسان.

إضافة إلى ذلك؛ أنّ البلاغة تبيّن لنا سرّ الإعجاز القرآني في ضوء ما قلناه من جمال في المضمون، وإعجاز الأداء؛ كما في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَى كيفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً، كَلِمَةً طَيبَة كَشَجَرَةٍ طَيبَةٍ أَصلُهَا ثَابِت وفَرْعُهَا في السَّمَاءِ تُؤْتَى أَكلُهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ للنّاس لَعَلَهُمْ يَتَذَّكَرُون**﴾ **(سورة ابراهيم الآية24-25)** وهذا من حيث الفصاحة، وأما البلاغة في تذوّق النّصوص النّبوية وإدراك خصائصها، والوقوف على أسرار الجمال فيه، فمثلا قول الرسول (ص): «**ليس الشّديد بالصّراعة إنّما الشّديد الذي يملك نفسه عند الغضب**».

تساعد البلاغة في إنتاج أدب رائع من شعر أو نثر لأنّها تقوّم الكلمات، ففي الجاهلية نجد أصحاب المعلّقات يتّسم شعرهم بسمات بلاغية عالية كإمرئ القيس وعلقمة، وزهير... ولقد أشار "د/فوزي السّيد عبد ربه عيد" في كتابه المقاييس البلاغية عند الجاحظ بقوله: «وما علّقت المعلّقات في جوف الكعبة. وكتبت بماء الذّهب إلاّ بعد أن قيست، وضبطت بموازين دقيقة، خرجت بعدها كأحسن ما أنتجه اللّسان العربي في هذا العصر»(6)، فيمكن أن نستحضر أبياتا شعرية من معلقة امرئ القيس فقال:

وليل كموج البحر أرخى سدوله   عليّ بأنواع الهموم ليبتـــــلي
فقلت له لمّا تمطى بصلبــــــه   وأردف أعجازا وناء بكلكـــل
ألا أيّها اللّيل الطّويل؛ ألاّ انجل   بصبح وما الإصباح منك بأمثل(7).

أما في صدر الإسلام، فكان لزاما على العرّبي أن يسخّر قريحته لأجل أن يقال عن شعره أنّه كلام بليغ؛ لأنّ القرآن أبلغ من كلامهم، وهو كلام الله المعجز في تنزيله

فأصبح له ذوق جديد مصطبغ بصبغة الحقيقة، فبلاغة القرآن زحزحت مكانة الشعر البلاغية، وأصبح في الدرجة الثالثة بعد بلاغة الرسول (صلى الله عليه وسلم)[8].

أما في العصر الأموي فبدأ هذا العلم يلمع للأفق بسبب تطوّر الحياة العقلية وتطوّر العمران وامتلأت بلاطات الملوك بأشعار الشعراء البليغة[9].

أما في عصر تمازج الثقافات (العصر العباسي، عصر المأمون)، فقد بدأ هذا العلم يسمو عاليا وللكلمة البليغة الفضل في الكثير من المواقف، كما تساعد على استعمال اللّغة استعمالا سليما في التعبير عن الأفكار والمشاعر.

ارتبطت البلاغة العربية في الأذهان عند ذكرها بعلومها الثلاثة المعروفة لنا اليوم وهي: علم المعاني علم البيان، وعلم البديع، كما قد يتبادر للأذهان أنّ هذه العلوم قد نشأ كل واحد منها مستقلا عن الآخر بمباحثه ونظرياته ولكن الواقع غير ذلك.

فالواقع أنّ البلاغة قد مرّت بتاريخ طويل من التّطور، حتى انتهت إلى ما هو عليها، وكانت مباحث علومها مختلطا بعضا ببعض، منذ نشأة الكلام عنها في كتب السّابقين الأولين من علماء العربية وكانوا يطلقون عليها "البيان"[10].

3- ميزات البلاغة القديمة: تتميز البلاغة القديمة بطابع تعليمي، معياري وبياني فكان هدفها الأساسي هو تزويد المبدع/ الكاتب بمجموعة من الأدوات التي يحتاج إليها في مجال الكتابة الفنية، والجمالية بغية اكتساب ملكة الفصاحة والبلاغة، ومن جهة أخرى اهتمت بدراسة الصور البيانية من تشبيه استعارة مجاز، كناية وتشخيص، ودراسة علم المعاني من خبر وإنشاء، وحصر، وقصر وإطناب، ومساواة، وإيجاز واستعراض المحسنات البديعية من سجع، وجناس وطباق، ومقابلة وتورية وتضمين، وتكرار وغيرها.

يعني من كل ما سبق، أنّ البلاغة القديمة كانت تعليمية بامتياز، مادامت وظيفتها تلقين الكاتــب/الخطيب فنون الكلام الجميل لكي يكون كلامه ساميا، ويصبح آية في الفصاحة والبيان والبلاغة[11].

فالحديث عن البلاغة القديمة يقودنا للحديث عن بلاغة السفسطائيين اليونانيين التي كانت فنا للجّدل والسّفسطة، وتضليل الخصوم، فاعتمدوا الشّك منهاجا للبلوغ إلى أهدافهم، واتّخذوا البلاغة وسيلة للاكتساب والارتزاق مقابل تعليم الناس فنون الخطاب، والجدل السياسي وفن الحوار، والسّخرية، والتّهكم ومن بين هؤلاء نجد: جورجياس، وبروتاغوراس، سقراط، وأرسطو، أفلاطون، فيدر... الخ.

ونكتفي باستحضار بلاغة المنظر اليوناني "أرسطو" لأنّها كانت خطابا حجاجيا يقوم على وظيفتي التّأثير والإقناع، فكان يتوجّه إلى الجمهور السّامع قصد توجيهه أو إقناعه إيجابا أو سلبا.

وفي هذا النطاق يقول "أرسطو": «يُحصل الإقناع حين يهيأ المستمعون ويستميلهم القول الخطابي حتى يشعروا بانفعال ما لأننا لا نصدر الأحكام على نحو واحد حسبما نحس باللذة أو الألم، والحب والكراهية... والخطاب هو الذي ينتج الإقناع حين نستخرج الصحيح، والراجح من كل موضوع يحتمل أن يقع فيه الإقناع.

ولما كانت الأدلة تختص بهذه الوسائل، كان استعمالها يفترض أولا على وجه ظاهر الاستعداد للاستدلال القياس، والمعرفة النّظرية بطبائع البشر، وثانيا معرفة الأخلاق والفضائل، وثالثا معرفة الانفعالات وذلك بأن نعرف طبيعة كل انفعال وأحواله وأسبابه والهيئات الراسخة التي يحدث بها كل انفعال عند المستمعين ينتج عن ذلك: أنّ البلاغة تكاد تكون فرعا من الجدل وعلم الأخلاق، ويصّح أن تسمى السياسة، ويرونها كذلك تارة لضعف ثقافتهم، وتارة تدجيلا منهم وشعوذة، وتارة أخرى لأسباب إنسانية وكأنها قسم للجدل ونظير له كما وصفنا هذا في مبدأ قولنا إذ كل واحد منهما ليس هو علما له موضوعه المتمايز حتى تعرف خواص كل واحد منهما، وإذا كلاهما ليسا إلاّ قدرات أو ملكات يقتر بها على تقديم الحجج»[12] بهذا يعدّ أرسطو المؤسس الحقيقي للبلاغة في مجال الحجاج والإقناع، وقد ألّف ثلاثة كتب في البلاغة: فن الشعر، فن الخطابة والحجج المشتركة.

كانت البلاغة التّقليدية بمثابة عدّة منهجية يتزود بها الخطيب/الكاتب في الحوارات الجدلية والسّياسية، والفضائية، والمناظرات الفلسفية، والأدبية، والنّحوية وكانت في عمومها تطرح أسئلة جوهرية مؤرّقة:

أولا: بتحديد مظاهر الإعجاز القرآن في الثقافة العربية.

ثانيا: تتناول الحقيقة والمجاز أو الواقعي والمحتمل.

ثالثا: تعنى بثنائية الصدق والكذب[13].

لقد كانت البلاغة تاريخيا ممتزجة بالنقد، إلاّ أنّ البلاغة تتّصل بالنّص بينما النقد فمجاله أوسع من ذلك، فارتبطت البلاغة بالإعجاز القرآني وأسلوبه، أما النّقد اتصل بالشعر وبالكتابة. وسنمثل في الجدول التالي **الفرق بين البلاغة والنّقد:**

البلاغة	النقد
البلاغة تتصل بالنص مجردا أو دون التفات لصاحبه أو عصره وتحت سمات خارقة	النقد يتصل بالنص وصاحبه وعصره والمؤثرات فيه أيا كانت مادية أو نفسية.
البلاغة أكثر جمودا، وتثبت حينا وأيضا لها جديد لارتباطها الثابت بالقرآن أولا.	النقد متحرك مع إنتاج العصر.
البلاغة جزئية لارتباطها بالكلمة أو الجملة أو الفقرة.	بينما النقد كل يتصل بالنص ككل.
البلاغة اصطلاح.	النقد طرق وأساليب.
البلاغة موضوعية.	النقد ذاتي.
البلاغة يغلب عليها المنطق.	النقد في أغلبه يلونه الفن.

فكانت الغاية كل منهما متّحدتين في تمييز الجيّد عن الرديء، ثم صارت بعد ذلك غاية النقد هي إدراك الجيّد من الرديء، بينما البلاغة هي اكتساب المهارة العملية في الإنتاج[14].

المدرسة البلاغية (الكلامية): يرأسها كل من كان له الفضل أن جمع شتات الأبحاث البلاغية من كتب أصول الفقه والنّحو، فلهذه المدرسة ايجابيات وسلبيات في نفس الوقت وسنوضحها في الجدول التالي:

إيجابيات المدرسة	سلبيات المدرسة
– تقوم المدرسة بتحديد موضوعات كل علم على حدى.	– إدخال بعض أبواب النَّحو في موضوعات علم المعاني بحيث بدا النّحو طاغيا على علم المعاني.
– تحديد المصطلحات وتوضيح المفاهيم	– السَّفسَطة اللّفظية حول معاني العبارات.
– عرض الموضوعات ممثلين لها بأمثلة تعليمية غير أدبية.	– استغلالهم المنطق، وما أتيح لهم من رياضة عقلية، فكلّفهم بأمثلة تعليمية وإبعادهم عن نصوص أدبية رائعة.
لم تنكر المدرسة الذّوق وإن كانت تفتقده في تطبيقها العملي	

كما كان في أيدي أصحاب البلاغة ما يسمى بالكتب الفلسفية العربية الذوقية مثل كتب عبد القاهر الجرجاني وكذلك افتراضاتهم للمحال، وهذا ما صرح به "التفتازاني" وهذا الأخير يقول: «وكأنهم أرادوا ألاّ يفلت من غربال بحثهم شيء»، وغيرها[15].

خاتمة: عرفت البلاغة الإنسانية مجموعة من المراحل منذ نشأتها في اليونان ضمن فضاء سياسي خطابي، ديمقراطي، جماهيري. وقد انتقلت هذه البلاغة من فن البلاغة الخطابة إلى فن الإمتاع، ثم بعد ذلك فن الكتابة والبيان، ثم إلى وصف الأسلوب والخطاب والصورة، ثم إلى استجلاء ملامح الحجاج والتّداول.

كما أصبحت البلاغة في قرننا الحالي مدخلا أساسيا إلى جميع المجالات العلمية والمعرفية والثقافية، والأدبية، والفنية، بعد أن تعددت المعارف الإنسانية، وكثرت التخصصات العلمية، وتداخلت العلوم فيما بينها، فجميعها تنطلق من منبع واحد هو البلاغة.

البلاغة القديمة كانت بلاغة معيارية تعليمية تقوم على تزويد المبدع بمجموعة من الأدوات والتقنيات، والآليات الإجرائية في الفصاحة، والبلاغة، والبيان؛ ليتبنوا مكانة سامية في فن القول والكتابة والإنشاء، وتأرجحت هذه البلاغة القديمة الأدائية ذات الطابع التّعليمي بين السّفسطة، والإقناع، والإمتاع وتعليم البيان.

البلاغة علم معوّل عليه في تبرير المعاني، ومعالم جاء بها الوحي، وهي المعوّل عليها في تذّوقّ وفهم ما خلقه أجدادنا من كنور التراث.

الهوامش:

1- محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييّل والتداول، دط. الدار البيضاء: 2005، دار إفريقيا الشرق، ص 3.

2- عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دط. القاهرة: 2006، دار الأفاق العربية، ص4.

3- المرجع نفسه، ص 5.

4- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)، مقدمة ابن خلدون، تح: درويش جويدي، ط2. بيروت: 2000، المكتبة العصرية، ص 272.

5- مصطفى الصاوي الجوني، مدارس البلاغة المعاصرة، دط. دب: 1995، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، ص6.

6- فوزي السيّد عبد ربه عيد، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، ط1. القاهرة: 2005، مكتبة الأنجلو مصرية، ص57.

7- إيليا حاوي، امرؤ القيس، شاعر المرأة والطبيعة، د ط. دب: دت، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، ص 126.

8- فوزي السيد عبد ربه عيد، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، ص58.

9- المرجع نفسه، ص 72.

10- عبد العزيز عتيق، علم البيان، ط1. القاهرة: 2006، دار الآفاق العربية، ص4.

11- جميل حمداوي، **الأثر**، مجلة الآداب واللغات، جامعة ورقلة، العدد الرابع، ماي 2005، ص 5.

12- أرسطو طاليس، فن الخطابة، تر: عبد القادر قنيني، ط1. الدار البيضاء: 1989، إفريقيا الشرق، ص 61.

13- بلقاسم حمام، البلاغة العربية وآلية الحجة، جامعة ورقلة، الجزائر، دت، ص7-8.

14- مصطفى الجويني، البلاغة العربية تأصيل وتجديد، دط. الاسكندرية: دت، الناشر منشأة المعارف، ص 202.

15- المرجع نفسه، ص 204.

حركة التأليف البلاغي عند العرب القدماء
(قراءة وصفية في أهمّ المصادر)

أ. وهيبة جراح
جامعة مولود معمري، تيزي–وزو

تقديم: **في أسبقية التفكير البلاغي عند العرب: إنّ** أوّل تفكير في اللّغة العربيّة كان تفكيرا بلاغيا ومن مظاهره ربط الشّعر بالعوالم الغير عادية كالجنّ والشياطين والتنبيه إلى العيوب الإيقاعيّة والحجاجيّة فيه، هذه الملاحظات هي المصدر الأوّل للبلاغة العربيّة حيث جُمعت تحت اسم واحد وهو "البديع محاسن الكلام".

أمّا المسار الثاني فقد ارتبط بتقعيد اللّغة من جهة وبيان الانسجام الخطابي للنصّ القرآني مع الاستعانة في ذلك بالمنطق اليوناني والبلاغة الأرسطيّة، ومفاتيح هذا الموضوع الكلام حول الذات والصفات حيث يتداخل عالم المطلق (الله) وعالم النسبي(الإنسان).

وفي هذا السياق ظهر الطموح إلى صياغة نظريّة عامة في الفهم والإفهام أو للبيان والتبيين وهذا هو المصدر الثاني للبلاغة العربية، فقد تنبّه الجاحظ إلى أنّ اللّغوي لا يستطيع أن يحاجج في مجال الإقناع ما لم يستعن بعلم الكلام، وهو علم الحجاج العقلي وكان من ثمار هذا التوجه ظهور علم المناظرة والجدل.

من هنا ندرك أنّ للبلاغة العربية مهدين كبيرين:

مهد البديع يغذيه الشّعر ومهد البيان تغذيه الخطابة وقد ظلّ المساران متداخلان والنموذج الأمثل لهذا التداخل والاضطراب هي المسيرة الطويلة لعبد القاهر الجرجاني بحثا عن الخصيصة البلاغيّة من خلال الشعر والقرآن في آن واحد.

1- عوامل نشأة البلاغة العربيّة: لقد ارتبطت نشأة البلاغة بالعديد من العوامل، إلاّ انّنا نفتقر إلى تحديد دقيق لهذه النشأة لكن ممّا لا مراء فيه أن هناك

ملاحظات بلاغيّة مبسترة أخذت طريقها إلى الظهور منذ العصر الجاهلي ويمكن إجمال عوامل هذه النشأة في ثلاث نقاط: الشّعر – نزول القرآن – تقعيد اللّغة.

الشعر: باعتباره من أبرز خصائص الحضارة العربيّة ومدخلا ضروريا لدراستها، وأنّه قلّما نصادف في تاريخ الإنسانيّة الطويل قوما اهتموا بأدبهم اهتمام العرب بشعرهم، وعليه كانت للشاعر مكانة عالية، ولم تقتصر وظيفة الشعر على هذا فقط فبه عبّروا عن مختلف العواطف والأحاسيس التي تخالجهم وعن طريقه كانوا يؤثّرون في غيرهم ويحمّلونهم على الحماس ويغرسون فيهم أخلاقهم ويدلونهم على حسن الشيم.

والشيء الذي لا نشكّ فيه هو أنّ العرب كانوا مدركين ولو عن طريق الانطباع والفطرة لجملة من خصائص الشعر النوعيّة، ولا سيما ما يتعلّق بأهميّة البعد اللّغوي فيه والتي يتشكّل حسبها هذا البعد حيث لا يتأتى لكلّ واحد منهم أن يكون شاعرا إلاّ بتوفر سلسلة من الشروط، منه فالملاحظات البلاغيّة أخذت تسوغ طريقها منذ العصر الجاهلي، ونموذج ذلك النابغة الذبياني بحيث كان الشعراء يحتكمون إليه، ومن أمثلة هذا تنبيه الذبياني حسان بن ثابت إلى عدم مناسبة الصيغة الصرفيّة (جفنات) للمعنى الذي يودّ التعبير عنه وهو الكثرة، حيث قال حسان بن ثابت:

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق وأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنا

فقال له النابغة: "إنّك لشاعر حقا لو قلّلت عدد جفانك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك، إنّك قلت الجفنات فقلّلت العدد ولو قلت الجفان لكان أكثر"

هذه الرواية وغيرها تدلّ على بداية الوعي بضرورة انطلاق الأحكام من الشعر نفسه بالنظر إلى خصائص لغته والاقتناع بأنّ الألفاظ وإن كانت من نفس الحيّز فإنّ بعضها ألصق بالموضوع من بعضها الآخر وأكثر ملاءمة لمعناه الذي قصده الشاعر، ومن هنا أتت ضرورة التفكير فيها واختيارها طبق الغرض.

نزول القرآن الكريم: الذي كشف بنوره فصاحة أرباب الفصاحة وبعث بيانه فيهم إحساسا قويا بالعجز عن محاكاته مع كونهم على البيان مفطورين، من دلائل الأثر الحاسم الذي تركه القرآن الكريم في البلاغة العربيّة، تلك المصنفات الثريّة التي اتّخذت من بلاغة القرآن مجالا لها، مثل "مجاز القرآن" لأبي عبيدة، و"معاني القرآن" للفراء، و"نظم القرآن" للجاحظ، و"دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني،... إلاّ أنّه ومن الملاحظ أنّ حركة التأليف حول البلاغة بدأت مع نهاية القرن الثاني هجري وبداية القرن الثالث هجري، فلا نكاد نعثر على أثر لمؤلّف في البلاغة العربيّة قبل هذا التاريخ.

تقعيد اللّغة: رغم أنّه ومبدئيا يبدو أن لا التقاء بين وظيفة النحو ووظيفة البلاغة، فالأوّل يحاول استخراج مبادئ اللّغة ونظمها استنادا إلى الاستعمال المشترك، وغايته القصوى حماية اللّغة من الفساد والحرص على أن تواصل أداء وظيفتها الأصليّة: الإبلاغ ووسيلته في ذلك ضبط المعايير التي نفصل بها بين الخطأ والصواب ويطابق المتكلّم باحترامها بينها وبين حاجاته في التعبير المستقيم.

أمّا البلاغة فوظيفتها وصف الطرق الخاصة في استعمال اللّغة وتصنيف الأساليب بحسب تمكّنها في التعبير عن الغرض تعبيرا يتجاوز الإبلاغ إلى التأثير في المتكلّم وغايتها مدّ المستعمل بما تعتبره أنجع الطرق في بلوغ المقاصد.

يبدو جليا من خلال ما سبق أنّ حركة جمع وتقعيد اللّغة عند العرب، تكتسي أهميّة خاصة لما ألمّ بها من ظروف ساعدت على ربط الصلة بين العمل النحوي والعمل البلاغي واضطرّت اللّغويين إلى التعرّض إلى جملة من المسائل التي أُلحقت في وقت متأخّر بالبلاغة بينما كانت مؤلّفاتها شديدة الصلة بالنّحو ممتزجة به.

2- مسار التأليف البلاغي وأهمّ قضاياه[1]:

أ- مرحلة ما قبل الجاحظ: اتّسمت هذه المرحلة بظهور عدة كتب يصعب تحديد هويتها أهي من البلاغة أم التفسير؟

وأهمّ كتاب يمكن أن نسلّط عليه الضوء في هذه المرحلة هو كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة الذي لم يتجاوز في الأغلب حدود الوصف والوقوف في لغة العرب، على ما يشهد لأصالة القرآن في التعبير وبقاء مجازاته في فلك ما جوّزت العرب لنفسها وانعكس ذلك على المصطلح فجاء معناه في أغلب سياقات الكتاب قريب جدا من معنى التفسير، فكانت الدراسات اللغوية سطحية ليس لها من المنهج المقارن سوى استخراج نقاط التقاطع بين النصين مهملة وظائف تلك الأساليب وأبعادها الفنية .

وعموما يرى "حمادي صمود" أنّ النشاط البلاغي في هذه الفترة على أهميّته يبدو مشتّتا جزئيا لا ينبثق في الأغلب عن تفكير مطرد في جماليّة النص الأدبي إلاّ أنه شكّل مادة أساسيّة تنتظر من يجمعها ويؤلّف بين أشتاتها ويستغلّها في إقامة معالم نظرية أدبيّة وجمالية.

ب-المرحلة الجاحظية: (كتاب البيان والتبيين أنموذجا) كتاب "البيان والتبيين" ركّز فيه الجاحظ على مجموعة من النقاط يمكن الاهتداء والرجوع إليها خلال عمليّة استكشاف ما حولها من خطب وأمثال وشعر وأخبار ومناقشات نقدية "والطريق الأوّل لفهم عمل الجاحظ يكمن في التفريق بين المركز الذي يتصف بالاستقرار، وإن سار من التعميم إلى التخصيص والمحيط المتحرّك المتكوّن من الوسائل المفضية إلى البيان، تلك التي تختلط أحيانا بمفهوم البيان وتكاد تلتبس به"[2].

<u>البنية المورفولوجية للكتاب:</u>

إذا تأملنا قول الجاحظ "البيان" اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب عن ضميره"[3].

وقوله: "الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان"[4].

ويمكن أن نفهم ما ذهب إليه "محمد العمري" في قوله السابق إذ إنّ الشيء المركزي والثابت في كتاب البيان والتبيين هو الفهم والإفهام بالوسائل المختلفة وعموما تقع مادة الكتاب في ثلاث محاور أساسيّة:

وظيفة البيان وقيمته

العمليّة البيانيّة وأدواتها

البيان العربي

الحمولة الفكرية لكتاب البيان والتبيين: يرجع الفضل إلى الجاحظ في تحويل الشعريّة العربيّة الشفويّة من شعريّة الفحولة (الأصمعي، الجمحي،...) إلى شعريّة البيان أي من البحث عن كليات نابعة من خارج الخطاب إلى إنتاج كليات منبثقة من داخل الخطاب نفسه، باعتباره خطاب يهدف إلى الإفصاح بأفضل أسلوب ومنطلق تفكير الجاحظ في القضية يتأسّس على نظرة دينيّة رمزيّة تتنزّل بموجبها المخلوقات منزلة الدوال لمدلول واحد أسمى وسرمدي يُهتدى إليه بالعقل وتأويل الرّمز وهو حكمة العالم والكون.

ثمّ يتدرّج الجاحظ من هذا التفكير العام المجرّد إلى تفكير اجتماعي يتحسّس من خلاله مقتضيات المنزلة الإنسانيّة وأولاها حاجته إلى غيره طبعا وخلقة وجوهرا من هنا ارتبط مفهوم البيان في مرحلة أولى بغاي التعبير عن خفايا الحاجات والمعاني وهتك الحجاب دونها ليتمّ للناس مرادهم من اجتماعهم ويدركوا حكمة الخلق وما أودع الكون من جليل الحكمة.

من هنا أصبحت مهمّة البيان هي البحث عن القواعد التي تتيح الجودة أو الحسن في الكلام، أي البحث في الوظيفة الابلاغيّة التي ليس لها أيّ دور في شاعريّة القول، لأنّ المعاني مطروحة على الطريق يعرفها الناس قاطبة باختلاف طبقاتهم الاجتماعيّة ودرجاتهم الثقافيّة، وهذه الوظيفة البلاغيّة لا يمكن إدراكها إلاّ من خلال الاهتمام بمختلف العناصر المؤسّسة لعمليّة التواصل الأدبي التي هي المؤلّف والمتلقي والنص.

ولكلّ هذه العناصر وظيفة خاصة فالمؤلّف يؤدي وظيفة تبيينيّة والتي هي توضيح المعنى للسامع والكشف عنه، أمّا المتلقي فيؤدّي وظيفة استبيانيّة تبرز من خلال التأمّل لتفهّمه وايضاحه، في حين أنّ الرسالة تؤدّي وظيفة بلاغيّة، أي أنّها

تركّز على الخطاب من حيث الجودة والحسن، وهذه الوظيفة الأخيرة لا تكمن في المعنى من حيث هو معنى، ولا في اللّفظ من حيث هو لفظ بل تكمن في النسج والسّبك والتأليف "إذ الكلام السامي هو ضرب من الصناعة وجنس من التصوير وتتعدى هذه الوظيفة الخطاب الخطابي والخطاب الشعري إلى أنظمة رمزيّة وسيميائيّة"[5]، والمقصود بالأنظمة السيميائيّة في هذا الموضع تلك الأنظمة الغير لغويّة، كالسكوت، الاستماع، الاشارة والاحتجاج، وجميع أنظمة التواصل التي حصرها الجاحظ في النصبة (الحال الناطقة من غير لفظ أو إشارة.

ومفاد القول مما سبق أنّ الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" حاول أن يقدّم وسيلة للحوار في عصره في المجال السياسي والفكري، الحوار من خلال الرصيد الخطابي العربي من جهة وأحوال المخاطبين من جهة أخرى، أي عالج في البيان والتبيين إشكاليّة كيف يكون الخطاب ناجعا فاعلا، إلاّ أنّ هذا الكتاب كان محكوما "ببقائه في معناه المعرفي القريب من المفاهيم السيميائيّة الحديثة خارج المسارات التي تندفع في منحدر المجرى الكبير الذي يسمى بلاغة"[6].

ج- المرحلة المابعد جاحظيّة:

1- ابن المعتزّ والبديع: ق3ه

<u>البنية المورفولوجيّة للكتاب</u>: يقع الكتاب في قسمين:

القسم الأوّل معظم المباحث المطروقة في هذا القسم قد سبق وأن أشار إليه الدارسين قبل ابن المعتز رغم اختلاف الخلفيات والمنطلقات وحتى الأهداف، يقول حمادي صمود في هذا الصدد: "باستطاعة المتتبّع لأطوار البلاغة من البداية إلى القرن الثالث هجري أن يجزم بأنّ قيمة الكتاب لا تكمن في مضمونه لا من حيث عدد الوجوه التي اشتمل عليها ولا من حيث الصياغة النظريّة لبعض تلك الوجوه وما يتعلّق بها من تقسيم وتحديد، فليس من وجوه البديع الخمسة التي أثبتها وجه واحد لم يُسبق إليه بمصطلحه"[7].

ولكن نجده يقرّ في موضع آخر بأنّ الباب الرابع الموسوم بـــ "ردّ الأعجاز على ما سبقها" هو الباب الوحيد الذي قد يكون لابن المعتز الفضل في صياغته، إذ لم نقف عليه في المساهمات السابقة.

القسم الثاني: هو قسم تناول فيه ابن المعتز ما أسماه بـــ "محاسن الكلام" وهي الالتفات، اعتراض الكلام، الرجوع حسن الخروج من معنى إلى معنى، تأكيد مدح بمشابهة الذمّ، تجاهل العارف، هزل يراد به الجدّ، حسن التضمين، التعريض والكناية، حسن الابتداء وحسن التشبيه، يقول ابن المعتز" ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر ومحاسنها كثيرة لا ينبغي للعالم أن يدعي الإحاطة بها"[8].

إنّ تصريحه هذا دليل على أنّه لا يدّعي ابتداع هذه الألوان وإنّما هي علوم كانت جارية في عصره.

<u>الحمولة الفكريّة للكتاب:</u> رغم اعتباطيّة التقسيم الذي أشرنا إليه سابقا بحيث بدا لنا أنّه لا مبرّر للترتيب الذي جاءت به معظم أقسام البديع إلاّ أنّه لا يمكن انكار حقيقة أنّ كتاب البديع يعدّ منعرجا حاسما في التأليف البلاغي حيث ساهم بشكل فاعل في بلورة حدود العلم وتخليصه من تبعيّة العلوم الأخرى، فهو أوّل تأليف مخصّص لجمع الأساليب البلاغيّة بكيفيّة لم تسبق إذ وردت مستقلّة عن العلوم الأخرى مقصودة في ذاتها وهذه خطوة هامة في طريق نشأة هذا الاختصاص ولعلّ غياب الغرض الديني واقتصار المؤلّف على الغرض الأدبي المحض شارك بقسط وافر في مجيء الكتاب على هذه الهيئة وارتباط مفهوم البلاغة بخصائص النص وبنيته.

زد على ذلك أنّ مؤلّفه بذل مجهودا واضحا لتبويب المادة في حدود ما أملته مقتضيات اللّحظة التاريخية وهذا صميم البحث البلاغي فهو غاية ووسيلة في الآن نفسه، لأنّ علم البلاغة محكوم بأن لا يتجاوز الوصف إلى القواعد لأنّه لا يعلم الصحة من الخطأ وإنّما يسعى إلى رصد الحسن والقبح وهما مقولتان معقدتان حظّ الذّوق فيهما غير قليل.

بالإضافة إلى ذلك أنّ كتاب البديع شهادة ناصعة لتمازج اختصاصين وهما النقد من جهة والدلالة التاريخيّة العميقة لهذا التمازج: انتباه النقد العربي إلى أنّ جوهر الأدب هو بنيته والأساليب التي توظف لتخرج به عن الكلام العادي.

2- الجرجاني و"الدلائل": كتاب "دلائل الإعجاز" جاء قمّة فكر العصر وعصارة فكر المؤلّف، وقد ألّفه بعد أن اطّلع على علوم كثيرة وتجدر الإشارة إلى أنّ عمليّة الانتقال من أسرار البلاغة إلى دلائل الإعجاز لا يعني أنّه قام بتغيير الموضوع أو قلب الإشكاليّة، بل اكتفى بإعادة النّظر وتعديل وتكميل بعض القضايا كإضافة الكناية بعد التخلّي عن التشبيه والتمثيل غير المجازي، ليصبح طرفا المعادلة هما: المجاز من جهة والذي حصره في الاستعارة والكناية من جهة أخرى.

أمّا القضيّة الجوهريّة التي نعثر عليها في الكتاب والتي حاول على وضع أسسها والتنظير لها فهي: النظم، وقد جاء ذلك كردّة فعل على الخصومات التي دارت لمدّة طويلة من الزمن بين أنصار اللّفظ وأنصار المعنى؟

والجرجاني في نظريّته حاول أن يوفّق بين شقيّ النزاع وهو لم يفضل اللّفظ على المعنى ولا المعنى على اللّفظ بل ربط بينهما ربطا عقلانيا محكما، وبهذا فإنّ نظرية النّظم تعدّ مرحلة جدّ متطوّرة من مراحل الفكر النقدي العربي الذي بدأ يتأسّس منذ القرن الثاني الهجري، فالنظم شرف عظيم وليس إلاّ "أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعلم قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ"[9].

وفي الدلائل نعثر على وشائج كثيرة تربطه بالنحو التوليدي والنحو الوظيفي ونظريّة أفعال الكلام، وذلك انطلاقا من اهتمامها بالدلالة في علاقتها بالتركيب والتداول، وربّما هذه الأسباب هي ما جعل الكتاب يحظى باهتمام الدارسين وذلك بارتكاز هذه البلاغة على نظرية النظم التي تجعل الكلام الأدبي مخالفا للكلام العادي انطلاقا من نظمه بل واختلاف الكلام الأدبي ذاته في درجات الأدبيّة انطلاقا من النّظم ذاته، فالنظم إذا جوهر الشاعريّة في القول الفنّي ولا ترجع التلاعبات

الصوتيّة أو الوجوه البلاغيّة إلى اللّفظ من حيث هو لفظ، أي أنّها تتأسّس انطلاقا من المحور المركبي وليس المحور الأصلي، وهذا ما جعل بلاغة الجرجاني تتحرّر من أسرار البلاغة الإبداليّة (نقل مدلول اللّفظ إلى دال آخر) التي انسلّت إلى البلاغة العربيّة بتأثير من أرسطو.

3- السكاكي ومفتاحه:

الحمولة الفكريّة للكتاب: يعتبر السكاكي أبا للتصوّر المدرسي الذي استقرّ للبلاغة العربيّة من عصره إلى اليوم، ذلك التصوّر الذي يقسم البلاغة إلى ثلاثة علوم: علم المعاني، علم البيان وعلم البديع، ويرى "محمد العمري" أنّ الغرض الذي ألّف من أجله كتاب "مفتاح العلوم" هو البحث عن مركز "علم الأدب" ولبّه مطابقة الكلام للغرض ثمّ تفاوت الدلالة في التعبير عن الغرض أي المعاني ثمّ البيان[10].

أمّا قراءة "عمر أوكان" لمشروع السكاكي تشير إلى أنّ مفتاح العلوم هي البلاغة ونقطة التقائها في خاطب الخطابات وعلم العلوم"[11]، وهذه العلوم المسماة أدبا التي تعبّر عنها البلاغة تمثّل لدى السكاكي المنطق، النحو والصرف والعروض، لهذا فإنّ أهميّة مشروع السكاكي تكمن في تحويل اهتمام البلاغة إلى الجانب التداولي للّغة الأدبيّة ممّا أدّى إلى انتاج هذه البلاغة التي يسميها أدبا.

لكن رغم هذا لم يسلم "مفتاح" السكاكي من النقد وهناك من يرجع الأمر إلى ما يلي:

- ما يتعلّق بكفاءة القسمة الثلاثيّة ومدى صوابها بحيث بدأ مهبّ الريح على مذهب السكاكي على يد القزويني الذي أوقف تطوّره من خلال الاختصار الذي قام به في التخليص حيث حوّل هذه البلاغة العامة إلى بلاغة مختزلة تقتصر على تلخيص الجانب المختصّ بعلمي المعاني والبيان دون سواهما من الأقسام التي طواها النسيان.

-أمّا الأمر الثاني فهو تهمة الجفاف والجمود والتعقيد والخضوع المطلق لسلطان الفلسفة والمنطق وتستند هذه التّهمة إلى قيام صياغة السكاكي أساس من الحدّ والتقسيم وانضباط العبارة[12]، وبهذا يبقى "مفتاح العلوم" بحاجة إلى مفتاح لكي يفهم على أكمل وجه.

إلاّ أنّ القيمة الأساسيّة للكتاب لا يمكن جحودها فقد كان المشروع الذي خاض فيه السكاكي أشبه بعلم النص عند اللسانيين المعاصرين لا يمكن الحديث عن التطابق وإنّما يمكن إكتشاف الكثير من عناصر الالتقاء بين منحى السكاكي ومنحى علماء النص في تناولهم النص في أبعاده النّحوية والأدبيّة والمعرفيّة والسوسيولوجيّة[13].

4-حازم القرطاجني ومنهاجه:

<u>البنية المورفولوجيّة للكتاب</u>[14]: أوّل ما تجدر الإشارة إليه هو أنّ ما وصلنا من كتاب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" لا يمثّل سوى جزء قليل من تصوّره ذلك أنّ القسم الأوّل والمقدّمة عنصران غائبان ممّا يصعّب فهم مشروع القرطاجني.

لكن هذا النقص لا يمكنه أن يحجب كليّا عمليّة فهم تصوّر حازم للقضايا الكبرى إذ يبدو أنّه قد تطرّق إلى القسم الأوّل في الأقسام المتبقية خاصة عندما قسّم المعنى والنّظم بصيغ مختلفة تساعد على تصوّر محتواه بمساعدة مؤشّرات أخرى.

وربّما كان غياب المقدّمة النظريّة في خطّة الكتاب هو سبب عودة الأسئلة النظريّة الكبرى حينا بعد حين مقتحمة سياق التحليلات الجزئيّة التي لا تتسع لها.

<u>الحمولة الفكريّة للكتاب</u>: إنّ أهمّ خطوة حذاها حازم في مشروعه هو تفريقه بين الخطابة والشعر على أساس المكوّن المميّز لكلّ منهما، وبهذا استطاع الخروج من دائرة الصدق والكذب التي كانت مدار النّقاش بين البلاغيين إلى الحديث عن التخييل "إذ حاول حازم أن يحسم الإشكاليّة التي توقّف عندها الجرجاني في الأسرار وأبدى فيها وأعاد حتى وُسمت لغته حينا بالتردّد بين مطلب الصدق

والكذب أو بين التخييل والصحة العقليّة كما اضطرب فيه ابن سنان متردّدا بين المقام النثري والمقام الشعري.

يقول حازم "وإنّما احتجت إلى وقوع الأقاويل الصادقة في الشّعر لأرفع الشبهة الداخلة في ذلك على قوم، حيث ظنوا أنّ الأقاويل الشعريّة لا تكون إلاّ كاذبة وهذا قول فاسد (...) لأنّ الاعتبار في الشعر إنّما هو التخييل في أيّ مادة لا يشترط في ذلك صدق ولا كذب بل أيّهما ائتلفت الأقاويل المخيّلة منه فالغرض الآن صنعة الشاعر هي جودة التأليف وحسن المحاكاة وموضوعها الألفاظ وما تدلّ عليه"[15].

وبهذا وصلت البلاغة مع حازم قمّة الوعي بذاتها، لذلك لم يجرؤ أحد على إعادة قراءة عمله كما قرئ عمل السكاكي مثلا، إذ بقي مشروعه بعيدا عن الوصفة البلاغيّة التي اقترحها علماء اللّغة العربيّة في بداية هذا القرن للمدارس ثمّ الجامعات العربيّة، الوصفة التي مازالت مقدّسة إلى اليوم.

ومؤدى القول أنّ هذا العرض القصير لمسار التأليف البلاغي عند العرب القدماء ما هو إلى نقطة من بحر، إذ ركّزنا على أهمّ المؤلّفات التي شكّلت منعرجا حاسما في بناء الدرس البلاغي الذي عــرف أوجــه في الفترة الممتدّة من القرن 3 هــ إلى القرن 6 هــ خاصة، حيث رأينا اجتهادات البلاغيين التي عبّرت عن أسبقيّة الوعي البلاغي العربي إلى أمور ومباحث كثيرة تعدّ في يومنا هذا من نتاج الدرس البلاغي/النقدي الغربي، كالأبعاد التداوليّة للخطاب ومفهوم الشعريّة النصيّة وغيرها من المفاهيم.

إنّ هذه الفترة الثريّة بالدراسات البلاغية هي في وقتنا الحالي في خبر كان فالواقع يشهد بضياع استراتيجيّة تدريس البلاغة في الجامعات العربيّة من المحيط إلى الخليج: هل هي للتاريخ أم للتوظيف؟، حيث صارت البلاغة في عصرنا الحديث عبارة عن مادة مكمّلة أي يكمّل بها مؤرّخو الأدب حصصهم فيعيدون على الطلبة منهكين الدروس التي أخذوها في الثانوي منذ سنوات أو ينقلون الأمثلة المكرورة من الكتب ذاتها الأمر الذي أدى بالبلاغة إلى الجمود.

الهوامش:

1- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السادس، منشورات كلية الآداب، تونس، 2003.

2- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، افريقيا الشرق، 1999، المغرب ص 191.

3- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ص 76.

4- م ن، ص ن.

5- عمر أوكان، اللّغة والخطاب، أفريقيا الشرق، المغرب، 2001، ص 112.

6- محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، افريقيا الشرق، يناير 2005، المغرب.

7- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السادس، ص372.

8- ابن المعتز، البديع، ص 58.

9- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمد رشيد رضا، بيروت، 1981، ص335 .

10- محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 46.

11- عمر أوكان، اللّغة والخطاب، 115.

12- سعد عبد العزيز مصلوح، في البلاغة والعربيّة والأسلوبيات اللّسانيّة، مجلس النشر العلمي الكويت، 2003، ص 20.

13- العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 50.

14- محمد العمري، البلاغة العربيّة أصولها وامتداداتها، ص 498.

15- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح محمد الحبيب ابن خوجة، دار الغرب بيروت، ص 81.

إرهاصات التداولية في التراث اللغوي العربي

أ. مراد عميروش
جامعة مولود معمري، تيزي- وزو

مقدمة: إن الحديث عن اللسانياتن التداولية ومضامينها وأدواتها يستلزم منا بداهة أن نقف عند قصية جوهرية نبه لها الكثير من الباحثين، وهي التفرقة اللازمة بين البنية والاستعمال، وهي تفرقة منهجية بالدرجة الأولى، يقول الباحث عبد الرحمن الحاج صالح: "إنّما يفسّر اختيار لفظٍ معيّنٍ في تأدية غرضٍ معيّنٍ في حال خطابٍ معيّنةٍ وليس المعنى وحده – حتّى في هذه الصّورة – يفسّر وجود لفظ معين، فما هو راجع إلى اللّفظ له قوانينه الخاصّة به غير قوانين استعمال اللّفظ؛ فدراسة هذا الجانب الاستعمالي للّغة هو الذي يسمّيه الأوروبيون الآن براغماتيك pragmatique وأصبح الآن الكثير من اللّسانيين الغربيين ومقلّديهم من العرب لا يعرفون إلاّ البراغماتيك؛ بل حصروا كلّ اللّسانيات في هذا الجانب الاستعمالي مقتنعين في ذلك بأنّ بنية اللّغة تفسّرها المعاني المقصودة في الخطاب؛ وهذا خلط فظيع بين ما هو لفظٌ له بنية قائمة بذاتها كما قلنا وبين اختيار هذا اللّفظ في حالٍ خطابيةٍ معيّنةٍ؛ والسّبب يكمن في وقوع نوعٍ من الكلل إزاء البحوث الصّورية في ذاتها والنّفور من دراستها على حدة، أي بعيداً عن كيفية استعمال النّاطقين بها وأكثر اللّغويين الغربيين المحدثين مولعون بالبراغماتيك، أي دراسة استعمال اللّغة وقوانين استعمال اللّغة اجتماعية أصالة وللبنى اللّغوية جانب آخر غير اجتماعيٍ وهو ميدان صوري، وهذا مع الأسف لم ينتبه إليه الكثير من النّاس وفيما يخصّ النّحو في حدّ ذاته فيقولون بأنّ البنية قُتلت بحثاً في اللّسانيات الحديثة... [1]".

وإذا كانت اللّغة كذلك، فإنّه يجب أن ننتبه إلى أنّها "تحتوي على جوانب شديدة التّعقيد تتطلّب أكثر من منهجٍ وأكثر من وسيلةٍ لفكّ شفراتها وتحليل محتوياتها

وكشف مقاصدها، ولا يتسنّى لمنهجٍ واحدٍ أن يصف خصائص اللّغة وصفاتها أو يفسّر ظواهرها تفسيراً واضحاً يصيب كبدها، ومن ثَمَّ قسّم العلماءُ اللّغةَ إلى عدّة مستوياتٍ تحليليةٍ ليتمكّنوا من كشف محتوياتها وإظهار أسرارها ومعرفة مضمونها؛ وقد سلكوا في ذلك مناهجَ متعدّدة يهدف كلّ منهجٍ منها إلى وضع تفسيرٍ دقيقٍ لظواهر اللّغة، والمقصد من هذا إماطة اللّثام عن أبعاد اللّغة الدّلالية ومقاصدها في التّواصل الاجتماعي[2]".

وعلى هذا الأساس استطاع علماء اللغة إعادة الاعتبار للكلام أو الأسلوب كموضوع للدرس اللغوي غير أن متتبع التطورات الحاصلة في مسار الدرس اللساني يلحظ دون كثير شطط أن النظرة التداولية الحديثة وليدة الثقافة الأنجلو ساكسونية وهي وليدة النظرية السياقية أيضا؛ من هنا جاء مقالي هذا ليبحث

في إرهصات التداولية في التراث اللغوي العربي، من خلال الإجابة عن الإشكالية الآتية:

ما هي إرهاصات التداولية في التراث اللغوي العربي؟

1- النظرية السياقية ومفهوم التداولية: لقد قامت هذه النّظرية على مفهوم السّياق الذي حدّده أصحابه في أنّه "الوحدات التي تسبق أو تعقب وحدةً معيّنةً"، أو "مجموعة الظّروف الاجتماعية التي تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقة الموجودة بين الظّواهر اللّغوية والاجتماعية، وتعرف بالسّياق الاجتماعي للاستعمال اللّغوي أو سياق الحال Contexte de situation[3]" وهذا هو المبدأ العام الذي انطلقت منه هذه النّظرية في تفسير الأفعال اللّغوية؛ ويرى الباحث أحمد مختار عمر أنّ "مدرسة لندن عرفت بما سمّي بالمنهج السّياقي Contextual Approach، أو المنهج العملي Operational Approach، وكان زعيم هذا الاتّجاه Firth الذي وضع تأكيداً كبيراً على الوظيفة الاجتماعية للّغة... ومعنى الكلمة عند أصحاب هذه النّظرية هو (استعمالها في اللّغة)[4]" إذاً ارتبطت النّظرية السّياقية contextual theory باللّساني البريطاني فيرث، وتقوم هذه النّظرية على النّظر إلى المعنى

بوصفه وظيفةً في سياقٍ؛ وأحدثت بذلك تغيّراً جوهرياً في النّظر إلى المعنى... "وقد استُخدم السّياق في هذه النّظرية بمفهومٍ واسعٍ بحيث يشمل السّياق الصّوتي والصّرفي، والنّحوي والمعجمي، ولا يظهر المعنى المقصود للمتكلّم إلاّ بمراعاة الوظيفة الدّلالية للألفاظ المستخدمة[5]".

كما ارتبط مصطلح المعنى السّياقي مع مصطلح المقام، يقول أحد الباحثين موضّحاً المصطلح الأوّل: "نقصد بالمعنى السّياقي ما يوضّحه سياق الحال، وأنا أستعمل سياق الحال بالمعنى الفنيّ الذي استــعمله أستاذنا فيرث وقد كان يأخذ في الاعتبار الأقوال والأشخاص والأفعال...[6]" "والمعنى المقامي: معنىً يُفهم من الموقف الخارجي الذي قيل فيه الخطاب أو من القرائن الخارجية التي تصحب اللّفظ من الموقف الاجتماعي الذي قيل فيه النصّ، فالمقام، هو العالم الخارجي الذي أُنتج فيه النصّ، ويدخل في تحديد دلالته والمراد به، فقد نعجز عن فهم المراد إذا اجتُثّ النصّ من سياقه الخارجي، وسوء التّفسير من عدم النّظر في القرائن الخارجية، مثل: المكان والزّمان، والأفراد المشاركين في الحدث، والمناسبة التي قيل فيها، وقناة التّواصل، وقد أعطى علماء المسلمين سياق المقام (السّياق الخارجي) أهمّيةً كبيرةً في تفسير النصّ القرآني وفي استنباط الأحكام الشّرعية فبحثوا أسباب النّزول والظّروف الخارجية التي تتعلّق بالنصّ؛ واللّفظ يعطي أكثر من دلالةٍ، ويحدّدها السّياق اللّغوي والسّياق الخارجي... وهناك سياق خارجي يُفسّر في ضوئه المعنى...[7]" وعلى هذا آمنت هذه النّظرية "أنّ المعنى لا ينكشف إلاّ من خلال تسييق الوحدة اللّغوية؛ أي وضعها في سياقات مختلفة[8]".

وهكذا نستنتج أنّ نظرية السّياق تهدف إلى ما يأتي:

"أ- معرفة الأساليب المختلفة للمنطوقات، وتصنيفها حسب المواقف الصّحيحة بالإضافة إلى معرفة الملامح الشّكلية نفسِها...؛

ب- وصف الاستعمال الفعلي لنطقٍ معيّنٍ في موقفه الخاصّ باعتباره شيئاً فريداً؛

ج- معرفة الوظائف الدّلالية التي يمكن إرجاعها إلى التّركيبات النّحوية...؛

د- إبراز الدّور الاجتماعي الذي يقوم به المتكلّم وسائر المشتركين في الكلام؛

هـ- وجوب تحديد بيئة الكلام؛ لأنّ هذا التّحديد يضمن عدم الخلط بين لغة وأخرى...؛

و- يجب تحليل الكلام إلى عناصره ووحداته الدّاخلية المكوّنة له، والكشف عمّا بينهما من علاقاتٍ داخليةٍ لكي نصل إلى المعنى[10]".

وهذه الأهداف - كما نلاحظ - تبيّن "أنّ اهتمام فيرث، كان منصبّاً على إحلال القول محلّه ضمنا لسّياق الاجتماعي، ومن ثَمَّ الخروج بتعميماتٍ حول أنماط المعاني التي تفرزها سياقات اجتماعية محدّدة؛ وقد اقترح منهجاً مقنّناً لوصف هذه السّياقات يشبه إلى حدّ كبيرٍ المناهج الوصفية الأخيرة* الأكثر حداثةً...[11]" وقد اقترح أمير Ammer تقسيماتٍ للسّياق تمثّلت فيما يلي: "السّياق اللّغوي Linguistic context، السّياق العاطفي Emotional context، سياق الموقف Situational context، السّياق الثقافي Cultural context[12]".

يحيل الكثير من الباحثين إلى أنّ فكرة السّياق تُعزى إلى لغويي القرن التّاسع عشر؛ وبخاصّةً الباحث اللّغوي فيجنر Wegner، حيث قرّر "أنّ السّياق هو الأساس أو المحيط الذي تعتمد عليه الحقيقة في توضيحها و فهمها، وأنّه لا يتضمّن عند الاتّصال اللّغوي الكلمات فقط، بل الصّلات والظّروف المحيطة والحقائق السّابقة[13]" وهناك من يردّها إلى ظهور الفلسفة التّحليلية التي تأسّست حديثاً على يد فريجيه Frege، من خلال "أهمّ التّحليلات التي أجراها على العبارات اللّغوية وعلى القضايا، ومنها تمييزه بين مقولتين لغويتين تتباينان مفهومياً ووظيفياً، وهما: اسم العلم والاسم المحمول، وهما عماد القضية الحملية[14]".

وقد أكّد باحثون آخرون أنّ النّظرية تُعزى إلى نظرية فلسفة اللّغة العادية للنّمساوي فيتغنشتاين Wittgenstein.

وقد قامت هذه النّظرية على المقصدية، وجاءت نتيجةً حتميةً بعدما أُعطي الاعتبار في مرحلتين متتاليتين للمتكلّم ومقاصده، ثمّ للنصّ خالصاً، يقول الباحث حميد لحمداني مفسّراً هذا التحوّل المعرفي في قضية التّأويل: "إنّ مسار تأويل الخطاب الأدبي وتلقّيه لا يمكن فصله عن مسارات تأويل مجالاتٍ أخرى من النّتاج الفكري: النصّ الفلسفي، النصّ الدّيني، النصّ الصّوفي، الأحلام؛ هناك مرحلة كانت في الواقع ضدّ التّأويل، وهي مرحلة سادت فيها القصدية، وكلّ ما له علاقة بسلطة الكلام الفردي أو بالفكر المطلق إمّا أن ترفض التّأويل أو أن تُوقفه في نقطةٍ حرجةٍ لا يجوز تخطّيها؛ هناك مرحلة الموضوعية، التي تهمل الذّات والمقصدية وعلى إثر ذلك يُهمل (التّأويل) لصالح المعاينة وإدراك القوانين، وهذه الموضوعية إمّا أن تكون متعلّقةً بالنصّ، أو بالنصّ ذاته لكن في إطار سياقه التّاريخي والاجتماعي؛ المرحلة الثّالثة أعادت الاعتبار لقضية التّأويل من خلال الاهتمام بالمؤوّل، ذلك أنّه في المرحلة الأولى كانت سلطة صاحب النصّ شبه مطلقة، وفي المرحلة الثّانية تمّ تهميش صاحب النصّ أو ألغي تماماً، ولم يُلْتَفَت إلى المؤوّل لصالح موضوعية (حرفية). لكن في هذه المرحلة الأخيرة أُعطي الاعتبار للقارئ ولتأويلاته[15]" فإذا كانت المرحلة الأولى نابعةٌ من صميم الفلسفة المثالية، والثّانية من الفلسفة البنيوية، فإنّ المرحلة الثّالثة نابعة من صميم الفلسفة التّحليلية التي غيّرت المسار الأساس من المعرفة إلى النصّ؛ وإذا "كان فلاسفة الوضعية المنطقية قد رأوا أنّ الوظيفة الأساسية للّغة هي التّسمية أو الوصف، ومن ثَمَّ راحوا يبحثون عن قواعد التّطبيق أو قواعد التّركيب، فإنّ فلاسفة أكسفورد قد ذهبوا إلى وجود استعمالاتٍ متباينةٍ منوّعة للّغة وبالتّالي راحوا يبحثون عن قواعد الاستعمال؛ أي القواعد التي تحكم استعمال هذه العبارة أو تلك تحت هذا الظّرف المعيّن أو ذاك...[16]".

ولذلك نرى جلّ الباحثين يردّ البحث التّداولي للثّقافة الأنجلو ساكسونية بدءاً بالنّظرية السّياقية، "فلا أحد يماري في أنّ البحث التّداولي وليد الثّقافة

الأنجلوساكسونية anglosaxonne، وقد تطوّرت في الولايات المتّحدة وإنجلترا بسبب الدّور الذي لعبته الاتّجاهات التّحليلية في الفلسفة، ومن جهةٍ أخرى بسبب ما خلّفته النّظرية التّوليدية في نموذجها الأوّل من مشاكل (إخفاق) نتيجة تمسّكها باستقلالية التّركيب L'autonomie de la syntaxe، ممّا أدّى للتّفكير بجدّية في البعدين الدّلالي sémantique، ثمّ التّداولي pragmatique[17]".

2- التداولية في التراث اللغوي العربي: ووفق هذا يرى الباحث منذر عياشي أنّه لدينا أوّلاً، الخطاب التّداولي، ممثّلاً في الحديث النّبوي الشّريف والكلام اليومي الاستهلاكي؛ ويضع هذا النّوع من الخطاب الدّلالة في قلب السّياق الاجتماعي. ذلك لأنّ هدفه يقوم على التّواصل... ومن الملاحظ أنّ الكلام هنا، لكي يؤدّي رسالته فكرةً، ودلالةً مضموناً ومعنىً، محتاج أن يكون مكتسباً لتواضع المرسل والمتلقيّ عليه، بشكلٍ ضمنيٍ مُسبقٍ على وجوده... ولدينا ثانياً، الخطاب الأدبي ممثّلاً بكلّ التّراث الفنّي، والجمالي، والبلاغي شعراً ونثراً؛ وإذا كان هذا الخطاب يرتهن في وجوده أيضاً إلى الوجود الاجتماعي، إلاّ أنّه يقوم على غير ما يقوم عليه الخطاب التّداولي؛ فهو يتأسّس انزياحاً عنه ومغايرةً لمألوفه ومعتاده... ولذا، "فهو يقطع الصّلة مع التّواضع ما استطاع إلى ذلك سبيلاً: نظاماً وأداءً؛ ويخرج بدلالة الكلمات، بحسب حاجة كائنه إلى التّعبير والتّمثيل عن معانيها الأوّلية والمعجمية إلى دلالاتٍ يُنجزها الكلام في آنية إنجازه... فهو بالابتداع يكون لا بالاتّباع. ولذا فإنّ الإشاراتِ اللّسانيةَ المتضمّنةَ فيه إذ يلتقطها المتلقّي، فإنّه يتصرّف فيها على أنّها إشارات حرّة أو مفتوحة نظاماً وسياقاً...[18]".

ومن هذه المفاهيم التي رسمها الباحث يتعيّن على أيّ باحثٍ أن يعي أن دراسته للكلام العادي تختلف عن الكلام الأدبي، ذلك أنّ الكلام العادي يصدر بعفويةٍ ويتمّ داخل بيت القاعدة وقهر القانون، أمّا الكلام الأدبي، فإنّه يصدر عن وعيٍ وقصدٍ ويخرج صاحبه طواعيةً عن كراهية القواعد المرتسمة، هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى نحبّ أن نلفت الانتباه إلى أنّ اللّغويين حين يتناولون الجانبين، فهذا لا يعني

بالضّرورة خلطهم للمفهومين، بل ستجد أنّهم يلجأون في تفسيراتهم إلى مفهومٍ واحدٍ حسب طبيعة البحث.

وعلى هذا نلاحظ كما لاحظ الباحث عبد القادر المهيري أنّ التّراث النّحوي يُنقد على أساس موقفٍ يبدو لنا اليوم فيه خلط بين اللّغة والكلام؛ فما يدرسه النّحو هو من قبيل اللّغة ولا يمكن لـــه أن يدرس إلاّ علاماتها ومختلف الطّرق المشتركة بين متكلّميها في استعمال هذه العلامات والتّأليف بينها وتكون حصيلة ما يُتوصّل إليه استعراضاً شاملاً لمختلف الأشكال والأبنية والتّراكيب الممكنة وتقديماً لدليلٍ (*Code*) مجرّدٍ من كلّ ميول المتكلّم واختياراته وبراعته، غير متضمّنٍ لما تفرضه عليه ظروف الكلام وملابسات الخطاب؛ أمّا الأدب فهو من قبيل الكلام وليس للنّحوي الأداة الكفيلة بضبط قواعده والإلمام بكيفية صنعه ومطالبة النّحو بأن يفي بقواعده... معناه مطالبته بالخروج من العامّ إلى الخاصّ ومن المشترك القارّ إلى الخاصّ المتحوّل؛ وهذه مهمّة تتجاوز طاقته وتحوّله عن وجهة نظره...[19]".

أولا- النحاة: لا يمكن الحديث عن النحاة جميعا أو أن نختزل جهودهم في ورقة واحدة، ولذلك سنكتفي بنموذج واحد وهو سيبويه، وهو يتحدث عن الجانب الاستعمالي في اللغة؛ وإن كلّ ما ذكر عن سيبويه في هذه المسألة السّياقية إنّما يردّ إلى البنية، لكن رغم ذلك يعتقد بعض الباحثين أنّ ما رسمه سيبويه في باب الاستقامة يقدّم لنا نموذجاً على استناده للسّياق، بل يشبه إلى حدٍّ بعيدٍ ما ذهبت إليه التّداولية، يقول الباحث مقبول إدريس موضّحاً رؤيته: "جرت العادة أن ينسب اللّحن (الخطأ) أو يضاف إلى اللّغة، ويقصد به غالباً خرق جانبها النّحوي أو الصّرفي في بعض الأحيان، غير أنّي أرى أنّ هذا اللّحن قد يعتري مستويات عدّة على جهة التوسّع، ومن بينها المستوى التّداولي التكلّمي، ومرجعي في هذا الطّرح كلام سيبويه ونظره النّحوي الذي تنصبّ هذه الدّراسة عليه من خلال عمله (الكتاب)[20]" وهذا الموقف يحاول أن يعيدنا إلى المرجعية الأساسية في الكتاب وهي الاستقامة، يكمل مفسّراً قراءته: "إنّ حكم سيبويه على أحد أنماط الكلام بصفة

المستقيم الكذب هو ما أسمّيه باللّحن التّداولي الذي تَنْخَرِمُ فيه شروط المطابقة بين النّسبة الكلامية والنّسبة الواقعية الخارجية والنّسبة العقلية كما يعبّر البلاغيون وكذا التّداوليون[21]" ثمّ يضيف: "إنّ الكلام المستقيم الكذب، تركيب انتظمت عناصره وفق نسقٍ لغويٍ وقواعديٍ مقبولٍ يحافظ فيه على الرّتب والمحلاّت وآثار الإعراب، غير أنّ اللّحن يمكن أن يأتيه من جهة دلالة ملفوظه في علاقته بالاعتقاد والواقع، إذ هو إمّا صادق وإمّا كاذب، بناءً على المنطق الثّنائي القيمة، كما هو معروف عند بعض التّداوليين المناطقة [22]".

إنّ هذه القراءة تختزل المفهوم السّياقي أو التّداولي في المستقيم الكذب، وتراه أو تصفه باللاّحن تداولياً؛ أي أنّه لا توافق بين اللّغة والمنطق، أولا توافق بين الكلام والواقع، لأنّ المستقيم القبيح هو الذي يوافق الواقع الخاصّ بالمعنى ولا يوافق المنطق اللّغوي، وفي المفهوم التّداولي لا تعارض بين منطق القاعدة، ومنطق المجتمع، وانطلاقاً من المفهومين، أراد سيبويه أن يرسم لنفسه منهجاً للحفاظ على القاعدة والاستعمال، خاصّةً إذا اعتقدنا أنّ القاعدة نتجت عن الاستعمال.

يقدّم الباحث نفسُه أمثلةً تقرّبنا أكثر من الرّؤية المنهجية، يقول: "هِبْ أنّ أحدهم قال مثلاً:

1- توفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والوحي ما يزال ينزل على النّاس.

2- التقى الحسن البصري بالإمام الزّمخشري في بغداد.

3- درس سيبويه الطبّ والفلك والنّجوم على الخليل.

إنّ هذه الجمل / الملفوظات مستقيمة (نحوية) *gramatical* لمراعاتها ما يقتضيه النّحو عموماً على مستوى التّركيب، بيد أنّها كاذبة (لاحنة تداولياً)، لما عُلم من أنّ الوحي انقطع نزوله قبل مفارقة الرّوح لجسده الشريف صلّى الله عليه وسلّم، ولما عُلم من استحالة لقاء الحسن البصري والزّمخشري رضي الله عنهما لما بينهما من مسافةٍ زمنيةٍ، ولما عُلم أنّ سيبويه أخذ النّحو واللّغة عن الخليل وليس الطبّ والفلك والنّجوم[23]".

إنّ مفهوم الكذب لم يستقرّ عند هذا، والدّليل على ذلك أنّ المثال الذي قدّمه سيبويه هو (شربت ماء البحر)، فلمّا علم أنّ ماء البحر مالح لا يطيقه البشر سمّاه كذباً، هذا في المستوى العادي، وكذلك الأمثلة التي قدّمها الباحث تنضوي تحت المستوى العادي، ولكن حين ينتقل سيبويه إلى المستوى الأدبي، الشّعري بخاصّة تتغيّر الفكرة ويصبح الكذب توسّعاً بالمفهوم السّيبويهي، ولذلك نقول إنّ سيبويه كان يعمل من خلال مفهوم الاستقامة على الوتر البنائي أكثر؛ لأنّه كان يبحث كغيره من النحّاة على تنحية اللّحن اللّغوي أوّلاً على لسان العامّة، ثمّ يربطه بلسان الخاصّة وكان دائماً يسير وفق قاعدة (لا يجوز أن تقول كذا إلاّ في شعرٍ)، في كثيرٍ من المواضع.

وتوضيحا لقضية ارتباط القاعدة أو البنية بالاستعمال نورد شاهدا من الدلائل يروي فيه قصة حدثت بين الكندي والمبرد، يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: "روي عن ابن الأنباري أنّه قال: ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العبّاس وقال له: إنّي لأجد في كلام العرب حشواً، فقال له أبو العبّاس: في أيّ موضعٍ وجدت ذلك فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثمّ يقولون: إنّ عبد الله قائم، ثمّ يقولون: إنّ عبد الله لقائم، فالألفاظ متكرّرة والمعنى واحد، فقال أبو العبّاس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبد الله قائم، إخبار عن قيامه، وقولهم: إنّ عبد الله قائم جواب عن سؤال سائلٍ، وقولهم: إنّ عبد الله لقائم جواب عــن إنكار منكرٍ قيامَه فقد تكرّرت الألفاظ لتكرّر المعاني، قال: فما أحار المتفلسف جواباً[24]" وإنّ أوّل ما يلفت انتباهنا، هو الوعي بهذه اللّغة، فلمّا كان المبرّد على إدراكٍ عميقٍ باللّغة استطاع أن يتبيّن مواضعها بهذه الدقّة المتناهية، والأمر الثّاني، كيف استطاع المبرّد أن يكتشف دلالات هذه الخطابات؟ والجواب هو أنّه تمكّن من ذلك لمّا كان محيطاً به من المواقف؛ أي بالتّعبير المعاصر تمكن من الكفاءتين اللّسانية والتّداولية، حتى تحقّقت له القدرة.

ثانيا- البلاغيون: إن عمل البلاغيين في التراث العربي كان مختلفا تماما عن عمل النحاة و اللغويين ففي حين كان اللغويون والنحاة يهمون بتحيين اللغة من خلال جمعها ولم شتاتها كان البلاغيون يتضايقون من تلك المقاييس المغلقة التي تجعل اللغة منغلقة على نفسها ، بل دأب البلاغيون على البحث عن أسرار الإعجاز في الخطاب القرآني والخطابات الأخرى فتأسس عندهم مصطلح **مقتضى الحال** وسنأخذ نموذجا من ذاك متمثلا في الجاحظ الذي يرى بادئ ذي بدء وهو يؤسس مصطلح البيان "أن بعض البلغاء وصف اللّسان فقال: اللّسان أداة يظهر بها حسن البيان، وظاهر يخبر به عن الضّمير وشاهد ينبّئك عن غائب، وحاكم يفصل به الخطاب، وناطق يَرِدُ به الجواب، وشافع تُدرك به الحاجة وواصف تُعرف به الحقائق، ومعزٍ ينفى به الحزن، ومؤنس تذهب به الوحشة، وواعظ ينهى عن القبيح ومزيّن يدعو إلى الحسن، وزارع يحرث المودّة، وحاصد يستأصل الضّغينة، وملهم يوفق الأسماع[25]".

وهكذا يقلّب الجاحظ مفهوم اللّسان على وجوهٍ مختلفةٍ ليصل في الأخير إلى مفهوم عام شاملٍ، فهو يبدأ من المفهوم العامّ المرتبط بالبيان وحسنه، ليتدرّج بعد ذلك إلى الخاصّ، حين يتمثّل الإجراءات والأدوات التي تحقّق حسن البيان.

وكلّ ماذكره الجاحظ إنّما هدفه الأساسي هو التّبليغ والاتّصال، يقول الباحث مازن الوعر موضّحاً القضية: "فاللّغة، هي من أهمّ الفعاليات في عملية الاتّصال التي بها يمكن أن نبلّغ بعضنا بعضاً، وبها يمكن للمجتمع أن يسير على قدميه وعلى الرّغم من أنّ هناك اختلافاً بين مفهوم التّبليغ أو الاتّصال وبين مفهوم اللّغة تبقى حقيقةً مهمّةً وهي أنّ الهدف الرّئيسي من عملية اللّغة هو الاتّصال والتّبليغ[26]".

وعلى هذا يتحدّد مفهوم الدّلالة عند الجاحظ على أنّه عدم الثّبات على حالةٍ واحدةٍ، فالدّلالة لا تكون على شيءٍ دون شيءٍ؛ أي بتعبيرٍ آخر تتّكأ الدّلالة التي تحصل للمتلقّي على سياقٍ معيّنٍ يمثّل بدوره الدّلالة الأولى للكلام، كما لا يكون الكلام محدّداً إلاّ في سياقٍ معيّنٍ، وهو ما عبّر عنه الجاحظ بعدم الدّلالة على شيءٍ

بعينه، وعلى هذا التّفسير تتعدّد الدّلالات وتُقرأ وفق طبيعة الكلام في حدّ ذاته وهذه المقولة تحوّل ارتباطات الدّلالة من المتكلّم إلى الخطاب نفسِه الذي يطوّع وفق احتياجات القارئ، وهو ما كانت تنادي به البنيوية الغربية ضمنياً.

يقول الجاحظ في ذلك: "ومتى سمعت – حفظك الله – بنادرةٍ من كلام الأعراب فإيّاك وأن تحكيها إلاّ مع إعرابها ومخارج ألفاظها. فإنّك إن غيّرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها مخرج المولّدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير. وكذلك إذا سمعت بنادرةٍ من نوادر العوامّ ومُلْحَة من مُلح الحشوة والطّغام فإيّاك أن تستعمل فيها الإعراب أو أن تتخيّر لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرّياً فإنّ ذلك يفسد الإمتاع بها ويخرجها من صورتها، ومن الذي **أريدت له** ويذهب استطابتهم إيّاها واستملاحهم لها[27]" "فإذا كان من الواجب على المتكلّم أن يراعي حقّ المتلقّي وحقّ الموضوع أيضاً... فإنّ **عليه أن يراعي حقّ الخطاب ذاته، في حدود المستوى الذي أخذ فيه المتحدّث**، فإذا بدأ المتحدّث كلامه معرباً فصيحاً فعليه أن يحافظ على إعرابه وفصاحته فلا يلحن فيه، أمّا إذا بدأه ملحوناً من كلام المولّدين فلا يجب أن يعود فيه إلى الإعراب...[28]" ويرى الباحثان طلال وهبه وحسن الأبيض أنّه "يظهر من كلام الجاحظ أنّ المتكلّم عالم بمرجعيتين لغويتين... مرجعية (الكلام الفصيح) ومرجعية كلام (العوامّ) ولكنّه مدعوٌّ إلى استعمال مرجعيةٍ واحدةٍ في تواصله مع السّامع، ومحكوم عليه بعدم البلاغة إن لم يفعل ذلك[29]".

ولكنّ اللاّفت للانتباه هو أنّ الجاحظ في نصّه السّابق أعطى السّلطة للخطاب كما أنّه أدخل القارئ في فهم هذا النصّ، والدّليل على ذلك أنّه ركّز كثيراً على أن ينحو المتكلّم منحى السّامع، ولذلك نرى الباحثين يقترحان تغييراً في المفهوم، لكنّنا في النّهاية سنُلفيهما يشرحان ما أكّده الجاحظ قبلاً، يقولان: "ونقترح تغييراً في فهم العلاقة التي تقوم بين المتكلّم والسّامع والمرسل من جهةٍ والمرجعية من جهةٍ أخرى فالمرجعية اللّغوية عند الجاحظ ثابتة ومحدّدة بالزّمان والمكان ونهائية ولا

تتغيّر، أمّا نحن فنقترح ربطها بالمتكلّم والسّامع؛ ففي رأينا، إن كان المتكلّم والسّامع (بلديين) أو غير (أعرابيين)، لا يجوز أن تكون **مرجعيتهما اللّغوية هي المرجعية اللّغوية التي هي لـــ (الإعراب) أو لا يمكن بعبارةٍ أخرى أن نحكم على بلاغة المتكلّم إلاّ بالعودة إلى المرجعية اللّغوية المرتبطة به والمشتركة بينه وبين السّامع**[30]".

إنّ ربط المرجعية بالسّامع والمتكلّم أيضاً تكون على حالته الثّابتة مؤقّتاً، وهذا ما حدّثنا به الجاحظ ثمّ إنّ الجاحظ أكّد على أنّ تغيّر المرجعية يتبعه حتماً عدم الاستطابة والاستملاح كما ذكرها الجاحظ وهاتان الخاصّيتان مرتبطتان بالمستمع/ المتلقّي بالدّرجة الأولى.

وقد أكّد الباحث حمّادي صمّود ذلك مؤسّساً لمقولة الجاحظ على أنّها مرتبطة بطبيعة البحث البلاغي أصلاً، يقول: "نجد لدى الجاحظ ضرباً من عدم التّوازن في الاهتمام بعناصر الخطاب يتمثّل في ضآلة ما خصّص في مؤلّفاته للحديث عن السّامع أو المتقبّل، ولعلّ مردّ ذلك أنّ دوره لا يعدو دور المستهلك للنصّ ولا يتطلّب منه ذلك **إلاّ حسن الاستماع والفهم والاستجابة للقصد**، ثمّ إنّه لا يتمتّع بوجودٍ نمطيٍ نموذجيٍ، شأن الكاتب أو المتكلّم، إذ القارئ أو السّامع يمكن أن ينتمي إلى كلّ الأوساط الثّقافية والاجتماعية ممّا يجعل تحديد ملامحه أمراً صعباً لذلك، حمّل الكاتب وحده مسؤولية مآل خطابه ونجاعته فجاءت كلّ المقرّرات والتّوجيهات متعلّقةً به وبالكيفيات التي عليه أن يمارس على أساسها نصّه، وخلقه الفنّي، وكأنّنا بالجاحظ يعتذر عن اهتمامه البالغ بالمُفهم وتقصيره في حقّ المتفهّم بما استقرّ لدى النّاس من فضل الأول على الثّاني... وإنّ المقوّمات الخاصّة بالمتكلّم متداخلة تداخلاً شديداً مع مقوّمات الكلام ولتجاوز هذه الصّعوبة رأينا أن نقتصر عند حديثنا عن المتكلّم على المظاهر الخارجية والمبادئ العامّة ممّا لا صلة له بالنصّ في حدّ ذاته[31]".

ويعلّق الباحث حلمي خليل قائلاً في هذا الشّأن: على أنّ أهمّ ما يلفت النّظر أنّ الجاحظ كان يتعامل مع الحدث الكلامي speech event على أنّه رسالة message تبلّغ إلى مخاطبٍ، وهو ينطلق في ذلك من مفهوم الخطاب القرآني الذي يمثّل النّموذج المثالي لأنواع الخطاب عند العرب... ثمّ يتدرّج من هذا المثال إلى ألوان الخطاب الأخرى بما لها من صلةٍ بفنون القول في العربية، أو الطّبقات الاجتماعية وكلامها، ممّا أدّى به إلى الغوص في قضايا الاتّصال communication وشروطه، وكذا الأداء performance وطرقه المختلفة من لفظٍ وإشارةٍ وغير ذلك وقد ساعد الجاحظَ في كلِّ هذا ثقافتُه الموسوعية، وانغماسُه في البيئة البصرية التي قدّمت له نماذج متنوّعة من اللّغة العربية المنطوقة spoken arabic، وكذا بعض اللّغات الأخرى، ممّا هيأ له مجالاً واسعاً للملاحظة والاستقراء، ورصد القوانين التي تحكم مثل هذه الاستعمالات اللّغوية[32]" فالخطاب القرآني هو الذي وجّه البحث البلاغي عند الجاحظ وغيره، ذلك أنّ الخطاب القرآني مرتبط بالقارئ/ السّامع/ المتلقّي، ومنه يسعى لتحقيق المقاصد المرتبطة بوعي القارئ في سياقٍ معيّنٍ.

وإذا كان الجاحظ قد فهم عناصر الاتّصال (المتكلّم، السّامع، الخطاب) على هذه الشّاكلة، فإنّ القارئ الذي كان يهتمّ به الجاحظ كان متعدّداً ينتمي إلى الطّبقة التي ينتمي إليها، وعليه يراعى في إعداد الخطاب نوعية القارئ لتحقيق الفهم والإفهام ولذلك "يعتبر تقييد التجوّز، في مجال البيان الإنساني ضرورياً في هذا السّياق للمحافظة على وظيفة المواضعة اللّغوية، التي هي (الإبانة) عند الجاحظ أو (الإخبار) عند القاضي عبد الجبّار... و(الوضوح) هو شرط تحقيق هذه الوظيفة البيانية، ولا يكون (الوضوح) بدوره، إلاّ بالإحالة على (المعرفة المشتركة) أو (قصد المتكلّمين)... وهذا يعني أنّ التجوّز والتّوليد لا يكونان إلاّ في إطار (معرفة المقاصد) أو (الإدراك الجماعي) لوجوه الشّبه... فإذا تحقّق شرط معرفة المقاصد

أمكنت معرفة الدّلالة، وفي هذه الحدود فقط، يمكن وقوع الاشتراك والاتّساع والمجاز في الكلام[33]".

وعلى هذا النّسيج من الأمثلة يؤكّد الجاحظ أنّ "من زعم أنّ البلاغة أن يكون السّامع يفهم معنى القائل جعل الفصاحة واللّكنة والخطأ والصّواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب كلّه سواء وكلّه بياناً... ولو لا طول مخالطة السّامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه... لأنّ تلك اللّغة إنّما انقادت واستوت واطّردت وتكاملت بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة وفي تلك الجيرة[34]" وجماع القول إنّ الجاحظ استطاع أن يتمثّل فكرة السّياق في جميع أطرها، ويأتي الإطار البنيوي في المقدّمة، وقد كانت أبحاثه محفّزاً لعلماء العربية القدامى الذين تلوه، لينسجوا على منواله فكرة السّياق، ويتوصّلوا إلى تنظيرها تنظيراً سليماً يوافق العقلية العربية.

خاتمة: نأتي في ختام هذا البحث لنؤكّد على أنّ البحث اللغوي العربي زاخر بالإشارات التي توحي بأنه منظم بطريقة منهجية وأداتية نستطيع من خلاله أن نطل على نافذة اللغة العربية من أبوابها عسانا نجد ضالتنا فيه وفي أزمة المنهج التي نعانيها شرط أن نربط هذا الإنتاج العربي بثقافته بيئته بدلا من عمليات الإسقاط التي نقوم بها من خلال الرؤية للتراث العربية من طريق الثقافة الغربية.

الهوامش:

1- عبد الرّحمن الحاج صالح، النّظرية الخليلية الحديثة، ص ص 92، 93.

2- محمود عكّاشة، التّحليل اللّغوي في ضوء علم الدّلالة، ص 12 .

3- حلمي خليل، الكلمة دراسة لغوية ومعجمية، ص 157.

4- أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، ص 68.

5- محمّد محمّد يونس علي، مقدّمة في علمي الدّلالة والتّخاطب، ص 27، 28.

6- محمّد أحمد أبو الفرج، المعاجم اللّغوية في ضوء دراسات علم اللّغة الحديث، ط1. القاهرة: 1966، دار النّهضة العربية، ص 15.
7- محمود عكّاشة، التّحليل اللّغوي في ضوء علم الدّلالة، ص 171، 172.
8- أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، ص 68.
9- نادية رمضان النجّار، اللّغة وأنظمتها، ص ص235، 236. فريد عوض حيدر، علم الدّلالة ص 163، 168.
10- براون، بول، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطي، منير التّريكي، جامعة الملك سعود الرياض: 1997 ص 46.
11- أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، ص 69، 71.
12- محمود جاب الربّ، علم اللّغة نشأته وتطوّره، ط1. القاهرة: 1985، دار المعارف، ص 148.
13- مسعود صحراوي، التّداولية عند العلماء العرب، ص18.
14- حميد لحمداني، القراءة وتوليد الدّلالة، ط1. المركز الثّقافي العربي، 2003، ص80.
15- صلاح إسماعيل عبد الحقّ، التّحليل اللّغوي عند مدرسة أكسفورد، ط1. دار التّنوير، 1993 ص 58.
16- مقبول إدريس، البعد التّداولي عند سيبويه، مجلّة عالم الفكر، العدد1، مج33، بيروت: 2004، ص 245.
17- منذر عياشي، اللّسانيات والدّلالة، ص 93، 94.
18- عبد القادر المهيري، نظرات في التّراث، ص 110.
19- مقبول إدريس، البعد التّداولي عند سيبويه، ص 246.
20 - المرجع نفسه، ص 246.
21- المرجع نفسه، ص 247.
22- مقبول إدريس، البعد التداولي عند سيبويه، ص 248، .249
23- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 242.
24- الجاحظ، البيان والتّبيين، ج2، ص 270 .
25- مازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللّسانيات الحديث، ص31.
26- الجاحظ، البيان والتّبيين، ج1، ص 96.
27- عبد الحكيم راضي، مداخل في قراءة التّراث، ص 116.
28- طلال وهبه، حسن الأبيض، علم التّركيب الوظيفي، ص 145، 146.

29- المرجع نفسه، ص 143.
30- حمّادي صمّود، التّفكير البلاغي عند العرب، ص 186.
31- حلمي خليل، دراسات في اللّسانيات التّطبيقية، ص 155 .
32- محمّد غاليم، التّوليد الدّلالي، ص25.
33- الجاحظ، البيان والتّبيين، ج1، ص 105.
34- محمّد بن عبد الغني المصري، نظرية أبي عثمان في النّقد، ص 179، 180.

تداولية أفعال الكلام في التراث العربي القديم

أ: الربيع موساوي
جامعة مولود معمري، تيزي–وزو

مقدّمة: لقد ظهرت العديد من الدراسات النقدية اللسانية في العقد الأخير من الزمن، محاولة إعطاء مفهوم شامل للظاهرة اللغوية، وبيان الطرق والكيفيات التي بواسطتها يتم التواصل بين بني البشر.

غير أنّها باءت بالفشل، ومن بينها النّقد البنيوي الذّي أظهر عجزا كبيرا في البحث اللّساني والفلسفي؛ وذلك بسجن اللّغة واعتبارها بنية مجّردة من كلّ السّياقات الخارجية، ليمهّد الطّريق لبروز العديد من النّظريات التّي تدرس الظّاهرة اللّغوية وعلاقتها بالعلوم الأخرى، وإعادة الاعتبار لعنصر السّياق الذّي تتم به الفائدة وتنجح به عملية التبليغ، مثلما جاء به "رومان جاكبسون" في الفصل المعنون تحت "المبهمات والزّمر الكلامية والفعل في اللّغة الروسية"، وكذلك الفصل الخامس من كتاب "semantiqe structurale"، للّساني الإنجليزي "جون ليونز" تحت عنوان "السّياق والأسلوب والثقافة" والعديد من المحاولات الأخرى في هذا المجال.

"لتظهر بعد ذلك التداولية بعد اقتصار الدّراسة اللّسانية على الجانب البنيوي وكذلك الجانب التوليدي، فتهتم بدراسة اللّغة وإجراءاتها الداخلية (البنية)، وكذلك وصف وتفسير النّظام اللّغوي ودراسة الملكة اللّسانية المتحكّمة فيه (جانب توليدي) أي لسانيات الوضع، أمّا لسانيات التداول فتعالج ما في مقابل ذلك لسانيات الاستعمال"[1]، وهذا ما جعلها دراسة شاملة ومضبوطة تهتم باللّغة في ظلّ سياقات

مختلفة، وبخاصة أغراض المتكلمين، وتسهم في حلّ مشاكل التواصل، بالاستناد إلى مجموعة من العلوم كعلم الاجتماع وعلم النّفس وغيرها.

وتسند التداولية إلى مجموعة من المفاهيم وقد تداولها الدّارسون المعاصرون ومن بينها: الاستلزام الحواري، متضمنات القول، نظرية الملائمة، الفعل الكلامي فما المقصود بهذا الأخير؟ وما هي تجلّياته في التراث العربي القديم اللّغوي بصفة عامة، والبلاغيّ بصفة خاصة؟

1ــ **جذور الأفعال الكلامية:** تعود جذور ظاهرة أفعال الكلام إلى الفلسفة التحليلية بما حوته من مناهج وقضايا وكذلك الأمر بالنسبة لمفهوم نظرية المحادثة الذي انبثق عن فلسفة "غرايس" وأما نظرية الملائمة فقد ولدت من رحم علم النفس المعرفي وهكذا...

والفلسفة التحليلية هي الخلفية المعرفية لنشوء الظاهرة اللغوية كموضع دراسة وقد ظهرت في العقد الثاني من القرن العشرين في "فينا" بالنمسا[2] .

2 ــ مفهوم الفعل الكلامي: ولد الفعل الكلامي في رحاب الفلسفة التّحليلية، بما احتوته من مناهج وقضايا وهو مفهوم نظري مهد له الفيلسوف الألماني "غوتولوب فريجه" (1841ــ 1925) في مؤلفه" أسس علم الحساب"، وكان من بين القضايا التي عالجها تمييزه بين اسم العلم، والاسم المحمول، فبصياغة المنطق الحديث تم التّمييز بينهما، فأصبحت القضية الحملية هي التي تتكون من طرفين: اسم علم ومحمول يسند إليه، والقضيّة غير الحملية هي التّي تتكون من علاقات أخرى خارجة عن الإطار الحملي.[3]

أمّا مؤسّس هذه النّظرية فهو الإنجليزي "أوستين"، الّذي رأى بأنّ الوظيفة الأساسية للّغة غير كامنة في التواصل والتبليغ، بقدر ما هي مؤسّسة تحول الأقوال

إلى أفعال ضمن سياق معيّن وظروف معيّنة (نفسية، تاريخية، اجتماعية، ...) لينتقد بذلك الفكرة التّي ترى بأنّ كلّ الأقوال يمكن أن تكون خاطئة، ويمكن أن تكون صحيحة، وعنده عملية التّلفظ هي "إنجاز" كما أنّها فعل اجتماعي، سماه "أوستين" (الفعل الكلامي)، وسياقاتها كثيرة ومتنوعة، وبالتالي أفعال الكلام أيضا كثيرة ومتعددة، وهذا التعدّد نابع من تعّدد هذه السياقات.

وقد صنّف أفعال الكلام إلى "إنجازية" تنفرد بإنجاز ما تقوله وتؤسّس حقيقة جديدة، "وأفعال تقريريّة" تهتم بوصف الحالة بمعزل عن عملية التلفظ فقط، وكان تصنيفه كالآتي:

ــ الأفعال الدالة على الحكم: التبرئة، الحكم، التقدير، التحليل...؛

ــ أفعال الممارسة: الترشّح، الاستشارة...؛

ــ أفعال العرض: التأكيد، النّفي...؛

ــ أفعال الوعد: الرهان، التعهد ...

ثمّ قلّص "أوستين" تقسيم هذا العرض لأنّه مستفيض، ويدرج أفعال الحكم ضمن أفعال الممارسة والعكس صحيح، ثم يضع أحد طلبته وهو "سيرل" مجموعة من الأسس التي يعتبرها ملائمة لتصنيف الأفعال الكلامية الإنسانية ويمكننا أن نلخص هذا التصنيف لهذه الاختلافات في النقاط التالية:

ــ الاختلاف في غاية الفعل الكلامي؛

ــ الاختلاف في مطابقة العالم للأشياء؛

ــ الاختلاف في الحالة النّفسية المعّبر عنها، والمراد بذلك القصد والصّدق[4] ويشترط في نجاح الفعل الكلامي توفّر مجموعة من الشّروط الخاصّة بعناصر السّياق وهي: الحالة النّفسية للمتخاطبين وقدرتهم على تحقيق ما يتلفّظون به

وكذلك الأنماط القانونية الّتي تحكم هذا التّلفظ، كأن يكون لمن يؤدي الفعل صلاحية أو سلطة معيّنة فللعالم أن يفتأ وللقاضي أن يحكم، ولصاحب الحقّ أن يتكلّم.

وهنا تكمن السّلطة ودورها في تحقيق الفعل النّاتج عن عملية الّتلفظ، فليس كلّ من هبّ ودبّ يمكنه أن يحقّق أقواله، كما أنّ عملية إنجاز الفعل وتحقيقه، تحدّد لنا الغاية والمقصدية، وتعرّفنا على نوع الخطاب وغرضه، وتمكّننا من عملية تأويله تأويلا صحيحا، كما أنّ الّنية لا تتم إلاّ بإنجاز الفعل وهذا ما يتوافق مع عقيدتنا "الإيمان هو ما وقر في القلب وصدّقه العمل"، حتى يكون للنّية إنجاز فعلي، ويظهر البعد الباطني لعمليّة التلفّظ الذّي لا نعرفه إلاّ من خلال الإنجاز.

دون أن ننسى القواعد النّحوية التي تحكم اللّغة وهي قواعد مشتركة بين المتخاطبين، حتى تتمّ عملية الّتواصل على أكمل وجه وهذا ما يسمّى بمبدأ "التّعاون في عملية التّلفظ"، ووجود مجموعة من التّفاعلات المتعارف عليها من قبل المتكلّمين. أمّا الفيلسوف النّمساوي "فيتغنشتاين" (1889ــ1951) فقد تأثّر بالفيلسوف" فريجه" واقتفى أثره، لكنّه أسّس اتجاها جديدا عرف باسم" فلسفة اللّغة العادية" وهذا الفرع هو الذّي نشأت بين أحضانه ظاهرة أفعال الكلام[5]

3 ــ أهم المفاهيم التداولية المرتبطة بأفعال الكلام:

3 ــ1 متضمنات القول: وهي مفهوم تداولي إجرائي، يتعلق برصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب، تحكمها ظروف الخطاب العامة وأهمها:

ــ الافتراض المسبق: في كل تواصل لساني ينطلق الشركاء من معطيات وافتراضات يعرفونها وسنن يحتكمون إليها، تشكّل هذه الافتراضات الخلفية التواصلية الضرورية لتحقيق النّجاح في العملية التواصلية، وذلك وفق سياقات

معيّنة وبنى تركيبية مشتركة فمثلا: قولك أغلق الباب وقولك لا تغلق الباب فكلاهما يحمل خلفية افتراضية مسبقة مضمونها أن الباب مفتوح وهذا ما أدى بالتوليديين إلى اعتبار الافتراضات المسبقة ذات أهمية كبيرة في نجاح عملية التواصل، وهذا ما نجده أيضا في التعليمات التي ركّزت عليها، فالطّفل لا يتعلّم إلاّ بوجود خلفية معلوماتية سابقة يتم الرّجوع إليها لكي يبني عليها أفكاره فمن الضّروري أن تكون هناك المتعلّمين وإنّما ينطبق على كلّ النّاس حتّى تنجح عملية التّواصل بينهم بهذه الأفعال الكلامية.

3 ــ2 الأقوال المضمرة: وهي النّمط الثاني من متضمنات القول، وترتبط بوضعيات الخطاب ومقامه على عكس الافتراض المسبق الّذي يحدّد على أساس المعطيات اللّغوية، تقول "أوركيوني": "القول المضمر هو كقلة المعلومات التي يمكن للخطاب أن يحتويها، ولكن تحقيقها في الواقع يبقى رهن خصوصيات السّياق الحديث، ويمكننا أن نمثّل لذلك بقولنا لصديق: البرد شديد، فالسّامع لهذا الملفوظ قد يعتقد أنّنا ندعوه لارتداء معطف يقيه من البرد، كما يعتقد السّامع أنّنا ندعوه للمكوث مادام البرد شديد، والتأويلات مفتوحة وذلك بحسب السّياق الّذي يرد فيه الخطاب، والفرق بينه وبين الافتراض المسبق أن الأوّل وليد السّياق أمّا الثّاني فهو وليد الملابسات الخطابية .

3 ــ3 الاستلزام الحواري(المحادثي): لاحظوا بأنّ جمل اللّغات الطّبيعية ــ خاصّة "غرايس"ــ في بعض المقامات تدلّ على معنى غير محتواها القضوي ويتّضح ذلك من خلال الحوار الآتي بين الأستاذين:

أــ هل الطالب (ج) مستعد لمتابعة دراسته الجامعية في قسم الفلسفة ؟ إنّ الطّالب (ج) لاعب كرة قدم ممتاز لاحظ "غرايس" أنّنا إذا تأمّلنا الحمولة الدّلالية لإجابة الأستاذ (ب) وجدنا أنّها تدلّ على معنيين أحدهما حرفي والآخر مستلزم

فالمعنى الحرفي (ج) من لاعبي كرة القدم الممتازين، والمعنى الإستلزامي أنّ الطّالب ليس مستعدا للدّراسة بقسم الفلسفة .

ويقترح لنا "غرايس" أنّ التّواصل الكلامي محكوم بمسلمات حوارية كذلك مبدأ التعاون الذي يقوم على أربع مسلمات:

ــ مسلّمة القدر: أو (الكمية)، وتخصّ قدر الإخبار الّذي يجب أن تلتزم به المبادرة الكلامية، وتتفرّع إلى مقولتين: اجعل مشاركتك تفيد القدر المطلوب من الإخبار، ولا تجعل مشاركتك تفيد أكثر ممّا هو مطلوب.

ــ مسلّمة الكيف: ونصّها: "لا تقل ما تعتقد أنّه كاذب، ولا تقل ما لا تستطيع البرهنة على صدقه".

ــ مسلّمة الجهة: والتي تنص على في الكلام، وتتفرع إلى ثلاثة قواعد: ابتعد عن اللبس، تحر الإيجاز، تحر الترتيب.

وتحصل ظاهرة الاستلزام الحواري، إذا تم خرق إحدى القواعد الأربع السّابقة فالجملة: إن الطّالب(ج) لاعب كرة قدم ممتاز، تستلزم معنا حواريا: ليس الطّالب(ج) مستعدا لمتابعة دراسته الجامعية في قسم الأدب، لأنّها خرق للقاعدة الثّالثة، ألا وهي قاعدة الملاءمة والمطابقة، وكونها خرق لأنّها جواب غير ملائم للسّؤال المطروح: "هل الطّالب(ج) مستعد للدّراسة في قسم الفلسفة؟".

ويقترح "غرايس" تنميطا للعبارات اللغوية، يقوم على العبارات الآتية والّتي تنقسم الحمولة الدلالية للعبارة على أساسها إلى معان صريحة، وأخرى ضمنية:

1ــ المعاني الصريحة، هي المدلول عليها بصيغة الجملة ذاتها، وتشمل ما يلي:

ــ المحتوى القضوي: وهو مجموع معاني مفردات الجملة، بانضمام بعضها إلى بعض في علاقة إسناد؛

ــ القوّة الإنجازية المعرفية: وهي القوة الدلالية المؤشر لها بأدوات تصبغ الجملة بصبغة أسلوبية ما، كالاستفهام، والأمر...

2ــ المعاني الضمنية: هي المعاني التي لا تدل عليها صيغة الجملة بالضرورة ولكن للسياق دخلا في تحديدها والتوجيه إليها وتشمل ما يلي:

ــ معاني عرفية: وهي الدلالات التي ترتبط بالجملة ارتباطا أصيلا، وتلازم الجملة ملازمة في مقام معين، مثل معنى الاقتضاء.

4 ــ تجلّيات أفعال الكلام عند العرب القدامى: لقد ميّز "أوستين" بين الأقوال التّقريرية والأقوال الإنجازية، وهذا التّقسيم نجده عند البلاغيين وعلماء الأصول العرب القدامى، ممّا يجعلنا نشكّ في أنّ "أوستين" قد تأثّر بالدّراسات العربية القديمة، خاصّة وأنّ الحضارة العربية كانت على صلة بالحضارات الغربية، أمّا الدّكتور "طه عبد الرّحمان" فيرى: "بأنّ مصدر التّقسيم الثّنائي للكلام الإنساني عند العرب القدامى هم الإغريق[6]".

كما تتجلّى لنا أفعال الكلام عند العرب القدامى عندما ميّزوا لنا بين الخبر والإنشاء، وبيّنوا خصائص كلّ منهما، وبيّنوا أنّ أقسام الكلام نوعين: كلام مباشر وكلام غير مباشر.

ونجد في هذا المجال "سيبويه" وغيره من علماء العرب الذين أسّسوا لظاهرة أفعال الكلام وقد ذكرهم الدّكتور "مسعود صحراوي" في كتابه "التّداولية عند العلماء العرب"، من بينهم فلاسفة وعلماء أصول وبلاغيين أمثال: الفرابي، ابن سينا الجرجاني، الجاحظ، ابن خلدون.....

غير أن الفلاسفة اهتموا بالخبر لا بالإنشاء، لأنّ ما يهم المنطق هو تحقيق المنفعة للعلوم، أمّا البلاغيين فقد اهتمّوا بالجانب التواصلي بين المتخاطبين، وهذا ما عرف عندهم بعلوم البلاغة الثّلاث، دون أن يهملوا الجانب السّياقي لعملية التّخاطب (مطابقة الكلام لمقتضى الحال).

أما النّحويون فقد ركّزوا على الجانب الإعرابي للكلمة وسلامتها من مخالفة القياس الصّرفي والنّحوي حتّى يتحقّق الفعل الكلامي.

ــ يقول "ابن خلدون" عن الكلام الخبري: "ألا ترى أنّ قولهم(زيد جاءني) مغاير لقولهم (جاءني زيد)، من قبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم، فمن قال: جاءني زيد، أفاد أنّ اهتمامه بالمجيء قبل الشخص المسند إليه، ومن قال زيد جاءني: أفاد أنّ اهتمامه بالشّخص قبل مجيء المسند، وكذلك التّعبير على أجزاء الجملة، بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة، وكذا تأكيد الإسناد على الجملة كقولهم: زيد قائم، وإن زيدا لقائم، متغايرة كلها في الدّلالة، وإن استوت عن طريق الإعراب"[7].

وبالتّالي يظهر لنا جليا أنّه ليس بالضّرورة أن تكون السلامة النّحوية شرطا في تحقيق الفعل الكلامي، وهذا ما أشار إليه "تشومسكي" في نظريّته التوليديّة التحويلية.

وقد قسّم علماؤنا العرب الإنشاء إلى: طلبي(الأمر، الاستفهام...)، وغير طلبي (التّعجب، القسم...)، ويشترط في الفعل المصداقية وملاءمته للسياق، وهذا لا يختلف البتة ما جاء به "أوستين" و"سيرل" عندما حدّدا شروط الفعل الكلامي التّي تمت الإشارة إليها فمن خلال اللغة تظهر غاياتنا ومقاصدنا، بل وحتّى شخصياتنا وانتماءاتنا، فهي مرآة عاكسة لكلّ مكوّناتها، فالإمام علي كرّم الله وجهه يقول: "إنّ المرء مخبوء تحت لسانه" فباطن الإنسان يحلّل باللّغة وخارجه أيضا بها، والفعل الإنجازي الذّي دعا إليه "أوستين" نجده يتجلّى في قول "السكّاكي" أيضا عندما تحدّث عن الفعل الطّلبي قائلا: "والطّلب اذا تأمّلت نوعان: نوع لا يستدعي في مطلوبه إمكان الحصول، وقول لا يستدعي أن يحصل أعم من قولنا يستدعي ألاّ يمكن، وقول يستدعي فيه إمكان الحصول[8].

كما أنّ هناك أفعالا تتضمن إلزاما، وأخرى أقلّ إلزاما، وقد يفشل الفعل في تحقيق الغرض المطلوب كأن يتحوّل العرض إلى رجاء، والنّهي إلى ذم ....، أمّا الأفعال الإيحائية فهي كثيرة في تراثنا العربي بحيث يكون إنجازها وفق مقامات معيّنة وغايات محدّدة.

ــ يقول "السّكاكي" في كتابه "مفتاح العلوم": "إذا قلت لي من شفيع"، في مقام لا يسمع إمكان التّصديق بوجود الشفيع، امتنع إجراء الاستفهام على أصله، وولد بقرائن الأحوال معنى التمنّي وبالتّالي هنا تتغّير المقامية ويتغيّر الغرض والقصد وبالتّالي خرق لقواعد الخطاب، وتمتاز بقدرة معيّنة على التنبؤ من حيث أنّها تمكن انطلاقا من ربط الخرق بامتناع إجراء المعنى الأصلي من الجزم بحصول الاستلزام، أي بحصول الانتقال القطعي من المعنى الأصلي إلى معنا آخر مناسبا للمقام[9].

وقد عنيت البلاغة العربية بهذه الظاهرة وبتحديد الشروط التي تحكم اللّفظ والمتلفظ وهي: ــ صحّة اللّغة وصوابها ــ مطابقة المعنى للجمل المستعملة ــ صدق المتكلّم ــ السّياق الذي يستعمل فيه التلفظ.

أفاض في هذه الدراسة النّقاد العرب ودرسوا جملة من المبادئ والوظائف التي تعدّ من صميم الدّرس التداولي، كالعلاقة بين البنية والوظيفة، اللّغة العربية كتعبير عن الأغراض والقيم النّفعية، واهتمامهم بدور السّياق، والإلمام بعناصر التّخاطب مما يبيّن لنا التلاؤم والتّقارب بين أفعال الكلام الّتي جاء بها "أوستين" ومن بعده وما يناظرها في الدّرس العربي القديم.

خاتمة: ليتبيّن لنا من خلال هذه الدراسة ذلك التّقارب الموجود بين ما جاءت به نظرية أفعال الكلام، وما قّدمه النقاد العرب القدامى، وليست الدّعوة إلى بيان أسبقية أحدهما على الآخر، إضافة إلى القول بأنّ التداولية بصفة عامة مصدر ثري لابدّ من استغلاله، وذلك من خلال ما جاءت به من أدوات إجرائية تساعدنا في فهم تراثنا اللّغوي الزّاخر بمفاهيم عديدة أتى بها نقاد غربيون، أمثال "سيرل" و"غرايس"، اللّذان اعتدت بأعمالهما اللّسانيات المعاصرة، فهذا التطور لابدّ أن لا نستخف به، وأن نوليه أهمية، حتى تتسنى لنا المزاوجة بين الظواهر الخاصة باللّغة وتقنيات التحليل، والتي نجدها نادرة في تراثنا النّقدي والأدبي، خاصة كيفية التعامل مع البنية والوظيفة، اللتان تعدّان من أبرز السمات التي تحقّق الفعل الكلامي.

الهوامش:

1ــ خليفة بوجادي، اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط1. الجزائر: 2009، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ص63.

2 ــ محمود زيدان، في فلسفة اللغة، د ط، لبنان: 1985 دار النهضة العربية، ص12.

3ــ باديس لهويمل, التداولية والبلاغة العربية، مجلة المخبر: أبحاث في اللغة والأدب الجزائري العدد السابع، بسكرة، الجزائر: 2009، ص 155.

4ــ نحو قراءة جديدة للتّراث العربي والإسلامي بالوقوف على تداولية الأفعال الكلامية، المؤتمر الدولي في "خطاب التجديد في الدراسات العربية بين النظرية والتطبيق". سومطرة المغرب:2013.

5-francoi rècanati, naissance de la pragmatiqe, in qand dire faire, pp, 185, 203.

6ــ طه عبد الرحمان، اللسان والميزان والتكوثر العقلي، دط.، المغرب: 1998، مركز الفكر العربي، ص226.

7ــ ابن خلدون، المقدمة،ط3،مكتبة المدرسة، لبنانّ، ص 1065.

8ــ السكاكي، مفتاح العلوم، ص132.

9ــ أحمد المتوكل، اقتراحات من الفكر اللغوي العربي القديم لوصف ظاهرة الاستلزام التخاطبي أعمال الندوة الثالثة في البحث اللساني والسيميائي، دط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المغرب ص21.

محور التلقي في الموروث البلاغي

أ. مهانه نايت علي

جامعة مولود معمري، تيزي- وزو

مقدمة: إن التحول الذي طرأ على الجماعة العربية في قنوات الاتصال الأدبي لم يكن ليحول الإبداع عندها تحولا جذريا، ويبدو أن العقلية العربية لا تحتفل بالمكتوب كثيرا بل تولي اهتمامها بالشفاهي الذي يمتع ويطرب ويهز النفس، ففيما كانت تنتقص من قيمة العالم الذي يعتمد على المكتوب في مجالسه العلمية أو حلقات درسه فسمته صحفيا انتقاصا لقيمته ومصداقيته،" وكانت تبجل الذاكرة وتقوي من سلطانها، وعندما أعادت العرب قراءة هذا التراث الشفاهي شكوا فيه وارتابوا من أمره لأن نصوصه لم تسلم من التشويه والانحراف لتعدد الروايات."[1]

بهذا لم يستطع المحدث أن يحدث قطيعة نهائية مع الماضي الشفاهي، وهذا أمر معقول، لما لخاصية التناص من تأثير في إبداعية النصوص، فإنكتاب النصوص بتعالقه مع النصوص السابقة حتمية حاضرة مع كل تجربة إبداعية كانت حديثة أم قديمة، حيث أن أعراف الكتابة لابد لها من مواطن معروفة تنطلق منها في رحلتها لتبدأ عملية التواصل مع قارئها، وذلك تحت مسمى أعراف الجنس الأدبي، ثم ليأتي المختلف بعد ذلك متجاوزا المتحول في النصوص نحو عوالم أخرى مغايرة.

كذلك الشأن في الشعر العربي، الذي لم يكن لينتقل إلى شعريات الكتابة وهو محمل بموروث شفاهي ثقيل: "فالتساؤل الضروري هو عن مدى تحول الثقافة العربية فعليا من ثقافة مشافهة إلى ثقافة قوامها الكتابة، ألا تكون المرحلة التي أحس بها الجاحظ وعبر عنها وشهد عليها عصر التدوين هي ما أسماه بعض

المختصين في الآداب الكلاسيكية بمرحلة المخطوط، فتكون الصفحة بذلك بديلا عن الذاكرة في المرحلة الشفاهية، إنها الذاكرة وقد قيدت بالرسم والخط، أي ما كان يقال من شعر شفويا كتب في صحائف دون أن يمس منطق العلامة."[2]

ذهب بعض النقاد المعاصرين إلى فهم الجدلية الحاصلة في النقلة التي عاشها الشعر بين الشفاهية الجاهلية والكتابية الإسلامية، بوصفها جدلية مختلقة من سلطة المؤسسة، ولم تكن لتنتشر بين القراء لولا إملاءات السلطة النقدية، واستحواذها على حقوق القراءة والمبدعين، حيث وظفت خطابا تاريخيا يصنع من مرجعيته الجاهلية السند الوحيد لتفسير موقفها، فعد الجاهلي أفصح من المولد والسابق أشعر من اللاحق، والصوت أقوى من الحرف، لتؤسس بذلك سلطة الأنموذج والأول وانحطاط المقلد والخلف.

يقول أدونيس: "غير أننا اليوم نواجه أزمة شاملة في العلاقة مع الشعر، وهي أزمة تكمن في الخطاب النقدي الذي أوله، ونظر له، فقد حدد له خصائص، بوصفه شعرا شفويا، محولا إياها إلى قواعد معيارية مطلقة للشعرية الكتابية، بحيث لا يعد أي كلام شعر إلا إذا كان موزونا على الطريقة الشفوية التي حددها الخليل، بحيث جعلت هذه الطريقة الخاصية الشعرية الوحيدة."[3]

إن هذا التشدد الذي رآه أدونيس في الخطاب النقدي يمكن أن لا يكون ذا مصداقية مطلقة لما في التراث النقدي من مؤلفات خرج فيها أصحابها عن النسق العام، ونهجوا سبيل الإنصاف لتجربة الكتابة، وهذا الذي يبرز في عمل المرزوقي الذي يمثل الشكل النهائي لعمود الشعر العربي.

- يعد المرزوقي في عمود الشعر سبعة أسس هي:
- شرف المعنى وصحته، وعياره العقل الصحيح والفهم الثاقب.
- جزالة اللفظ واستقامته، وعياره الطبع والرواية والاستعمال.
- الإصابة في الوصف، وعياره الذكاء وحسن التمييز.

– المقاربة في التشبيه، عياره الفطنة وحسن التقدير.

– التحام أجزاء النظم والتئامها على تخير لذيذ الوزن، عياره الطبع واللسان.

– مناسبة المستعار منه للمستعار له، عياره الذهن والفطنة.

– مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما، عياره الدربة والممارسة.

ولا يفوت المرزوقي أن كثرة سوائر الأمثال وشوارد الأبيات التي ذكرها القاضي الجرجاني في عموده إنما تتأتى من العناصر الثلاثة الأولى.[4]

إن الناظر في المقارنة بين عمود الشعر عند المرزوقي الذي قعّد له سابقه القاضي الجرجاني يجد فروقا عدة، يمكن استقراء تأثير الشعرية الكتابية فيها.

من ذلك أن القاضي الجرجاني أبعد الاستعارة والبديع من عموده، وهذا ردا على مذهب المحدث، أما المرزوقي فقد عد الاستعارة ركنا أساسا في نظريته "ويرد القاضي الجرجاني بإقصائه للاستعارة أن يستبعد الصنعة المعتمدة على مذهب أبي تمام ويستبدلها بالشعر العفوي الذي يحل اللفظ العذب الرشيق محل الصنعة المتكلفة."[5]

هذا الذي دفع المرزوقي لإضافة عنصر الاستعارة إنصافه لمذهب البديع حيث شاع بين الناس، واستمال قلوب القراء إليه فعده عنصرا رئيسا من عمود الشعر وهذا دليل تأثير القراءة في صنع الشعرية العربية في نظريته.

أما العنصر الثاني الذي تميز به مفهوم عمود الشعر عند المرزوقي هو إلغاؤه لمبدأ البداهة في التعامل مع الشعرية، حيث ذكر القاضي الجرجاني معيار البداهة كركن للشعرية، "ذلك أن غزارة البديهة تدل على قوة الشاعرية عند القاضي الجرجاني، وهي سرعة رد الفعل الشعري تجاه المؤثرات الخارجية، وهي حصيلة البحث في مصطلح الفحولة الذي وضعه الأصمعي."[6]

لهذا ألغى المرزوقي معيار البداهة من عمود الشعر لأنه يقضي لتجربة الكتابة في الإبداع، وهو الذي عاش في عصر أصبحت الكتابة السبيل الشائع في الإنتاج الشعري، أما البداهة فمرتبطة بالشفاهية التي اتسمت الشاعرية فيها بالارتجال والتلقائية.

أما العنصر الثالث الذي يميز مفهوم عمود الشعر عند المرزوقي الذي يبرز فيه مدى تأثير تجربة القراءة في فهم كينونة الشعر ومعايير الشعرية عند العرب وقد انتقلت فيهم الثقافة من طور إلى طور، فيتمثل في معيار التحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، ويمكن أن أضيف في هذا الجانب معياره في مشاكلة اللفظ للمعنى، وهي معايير تدل على رؤية متقدمة في الخطاب النقدي التراثي، بإلغاء وتجاوز ثنائية اللفظ والمعنى نحو مفهوم النظم والتأليف كبديل عن الصوت والمعنى، ليفسح المجال لمفهوم الكتابة بوصفها نسجا وتأليفا.

يقول الخفاجي: "ومن الصحة صحة النسق والنظم، وهو أن يستمر في المعنى الواحد وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقا بالأول غير منقطع عنه ومن هذا خروج الشعراء من النسيب إلى المدح، فإن المحدثين أجادوا التخلص حتى صار كلامهم في النسيب متعلقا بكلامهم في المدح لا ينقطع عنه".[7]

بدأ المرزوقي مقدمة كتابه بطرح الإشكالات النقدية المتمثلة في انقسام النقاد إلى أنصار للفظ أو أنصار للمعنى مما أدى إلى اضطراب في الأحكام، "حيث يرى المرء أن كثيرا مما يستجيده زيد يجوز أن يطابقه عليه "عمرو" وأنه قد يستحسن البيت ويثني عليه، ثم يستهجن نظيره في الشبه لفظا ومعنى حتى لا مخالفة فيعرض عنه، إذ كان ذلك موقوفا على استحلاء المستحلي واحتواء المحتوى."[8]

ثم يقدم المرزوقي علاجا لهذه الإشكالية منطلقا من الوعي بالواقع الأدبي الذي أضحت فيه الكتابة والقراءة الوسيط الأدبي الأكثر شيوعا، رغم ذلك فقد ظلت

جماعة من البلغاء تعتني بالقيم الأدائية الظاهرة وهم أصحاب اللفظ، وذلك بأن يكون الشعر عندهم: "مصفى من كدر العي والخطل، مقوما من أود اللحن والخطأ سالما من جنف التأليف، موزونا بميزان الصواب، يموج في حواشيه رونق الصفاء لفظا وتركيبا."[9]، في حين أن القسم الثاني:

"أما أصحاب الصنف الثاني من البلغاء فهم أصحاب المعاني، وهؤلاء طلبوا المعاني المليحة من خواص أماكنها، وانتزعوها جزلة عذبة حكيمة طريفة، أو رائعة بارعة... وجعلوا رسومها أن تكون قريبة التشبيه لائقة الاستعارة، صادقة الأوصاف."[10]

ففي هذه النظرة التوفيقية بين أنصار اللفظ والمعنى يحاول المرزوقي رسم شعرية عربية مختلفة ترى في النص كلية واحدة، يلغي بموجبها تلك النظرة الثنائية التي صنعتها الطبيعة الشفاهية نحو اللغة، حيث تبرز اللغة كصوت يمثل معنى، بل تجاوز المرزوقي ذلك بأن يكون النص جملة واحدة من الحضور البصري، حيث يبرز التأليف كعلامات بصرية حاضرة تجعل من النص نظاما وتأليفا أكثر منه دالا ومدلولا:

"في ضوء هذا يمكن القول أن هذه الأسس التي صاغها المرزوقي في عمود الشعر ليس وقفا على قديم الشعر وحديثه، لأن مفهوم شرف المعني وصحته، أو جزالة اللفظ واستقامته مثلا يردنا إلى القيم والمواضعات التي أرساها الجاحظ وقدامة وبلغت نضجها عند ابن سنان، والحديث عن الإصابة في الوصف أو المقاربة في التشبيه ومناسبة المستعار منه للمستعار له يردنا إلى كلام ابن قتيبة والأمدي والقاضي الجرجاني، ومفهوم الالتحام والالتئام والنظم يردنا إلى كلام قدامة وابن طباطبا وعبد القاهر الجرجاني والفلاسفة والمعتدلين في النظرة إلى قضية اللفظ والمعنى."[11]

تمثل الجهود البلاغية، التي أرساها عبد القاهر الجرجاني تواصلا آخر لمفهوم الشعر بوصفه قراءة وتأليف ونظم، حيث يتلمس الباحث في نظرية النظم عنده أنها امتداد آخر لما بينته سابقا من جهود المرزوقي الذي حاول الفكاك من النظرة التجزيئية التي فرضتها العقلية الشفاهية وتوجيهه للنقد وفق متطلبات القراءة، من هنا:

"تأخذ القراءة عند عبد القاهر الجرجاني طابع الممارسة العقلية والفنية، إذ جعل الجرجاني المتلقي مكونا من مكونات العمل الأدبي، فإنه يمد الظاهرة الشعرية إلى المتلقي، ويقترح التأمل لإزالة أغلفة النص، وإن تصور الجرجاني لعملية الإبداع أخذ يحوم في فضاء التلقي، إذ عزى سر الخلق الفني إلى اكتشاف المتلقي لآليات اشتغال الدلالة في النص، فتحدث المفاجأة التي تنتج اللذة عبر العملية الذهنية في رحلة البحث والكشف."[12]

يرجع هذا التوجه الجديد عند الجرجاني في فهم العلاقة بين النص وقارئه البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا أو يستجيد نثرا، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول: حلو رشيق وحسن أنيق، وعذب سائغ، وقلوب رائع فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرء في فواده، وفضل يقترحه العقل في زناده."[13]

يعول عبد القاهر هنا على حجم الصورة الشعرية، التي يرسمها الشعر عند قارئه، رافضا في الوقت نفسه كل شعرية مستندة على الصوت أو الجانب اللفظي كما كان يصوره الخطاب النقدي الشفاهي، فالمعول في عصره عصر القراءة هي الصور والأخيلة وتأثير النص في العقول والأفئدة وليس تأثيره في السمع أو الأذن.

وليبرز الجرجاني محاور الشعرية الجديدة التي مهّد لها المحدث منذ القرن الثاني للهجرة بلور مفهوما آخر على المستوى الدلالي للشعرية هو مصطلح معنى المعنى.

يقول: "وإذا قد عرفت هذه الجملة فها هنا عبارة مختصرة وهي أن تقول المعنى ومعنى معنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر."[14]

يفرق عبد القاهر في نظرته للشعرية الكتابية بين المعنى الشعري، الذي يقترن بصورته الفنية التي تمثل نشاط القارئ في النص وكذا المعنى العام، فهو يميز بين المعنى حين يتشكل في بنية العمل الفني ومطلق المعنى.

الملاحظ أيضا من النماذج التمثيلية التي ساقها الجرجاني لإبراز الفرق بين المعنى ومعنى المعنى اعتماده على التمثيل البصري للقضية عبر مفاهيم الحرفة اليدوية وبخاصة حرفة الصائغ، التي يظهر فيها العمل اليدوي للبصر وليس للسمع وهذا لتلمسه غلبة الشعرية البصرية المتعلقة بالكتاب على شعرية الملفوظ، يقول: "وأن سبيل المعنى الذي يعبر به عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصياغة فيه كالفضة والذهب، يصاغ منهما خاتم أو سوار، فكما أن محالا إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة أو الذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة."[15]

من هذه النظرة تأسست نظرة جديدة نحو الشعرية العربية أختزل أركانها في:

1- معيار التشبيه القائم على رد المجرد إلى المحسوس:

"حيث رأى الجرجاني في التشبيه دلالة فنية تقوي المعنى المجرد الذي يتكلم عنه الشاعر بأن ينقل من العقل إلى الإحساس، ومن الفكر إلى الحس، وتفضيله للمعنى البعيد في التشبيه على المعنى القريب لأن هذا الابتعاد يوفر العقل لذة الكشف."[16]

يقول الجرجاني: "وهكذا إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب وكانت النفوس لها أطرب، وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب...، ولذلك تجد تشبيه البنفسج في قوله:

ولا زوردية تزهو بزرقتها بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفنا بها أوائل النار في أطراف كبريت.

أغرب وأحجب، وأحق بالولوع وأجدر من تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق..، وإذا ثبت هذا الأصل وهو أن تصوير الشبه بين المختلفين في الجنس مما يحرك قوى الاستحسان ويثير الكامن من الاستظراف فإن التمثيل أخص شيء بهذا الشأن، وأسبق جار في هذا الرهان."[17]

فعبد القاهر يرى أن جهات الاختلاف بين المشبه والمشبه به كلما كانت كثيرة كان التشبيه أجود لأنه يحتاج إلى إطالة نظر وإجالة فكر، وهذا ما يسمح به التلقي القرائي الذي ساد عصره، والذي سيسمح له بتحويل نظرية الشعر والواضح البسيط في التشبيهات إلى المعقد والغامض.

2- معيار الاستعادة القائمة على التباعد بين عناصرها:

هذا المعيار متعلق بما سبق في باب التشبيه، حيث انتصر الجرجاني لجمالية الغرابة بدل الألفة "فنظر إلى جمالية الاستعارة على خلاف ما ذهبت إليه العرب من مناسبة المستعار منه للمستعار له وقد أكد أن التشبيه أصل في الاستعارة، وأنها ضرب منه وتعتمد عليه، وأن حسنها يكون على قدر إخفاء التشبيه والمبالغة فكلما ازداد التشبيه خفاء كانت الاستعارة أحسن حتى إنها تكون أغرب ما يمكن إذا كان الكلام مؤلفا تأليفا جيدا من حسن السبك والحبك."[18]

وبلاغة الاستعارة في منظوره لا تكون في المثبت إنما في الإثبات كما يبين ذلك في كتابه، ففي قول الشاعر:

فسبلت لؤلؤ من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد.

قال: "فلا تحسبن أن سبب الحس الذي تراه والأريحية التي تجدها عنده أنه أفادك ذلك فحسب، ذلك أنك تستطيع أن تجيء به صريحا...، ولكن اعلم أن سبب أن راقك وأدخل الأريحية عليك أنه أفادك في إثبات شدة الشبه مزية وأوجدك فيه خاصة قد ركز في الطبع أن الإنسان يرتاح لها ويجد في نفسه هزة عندها، كقول أبي نواس:

تبكي فتذري الدر عن نرجس وتلطم الورد بعناب

وقول المتنبي:

بدت قمرا ومالت خيط بان وفاحت عنبرا ورنت غزالا.[19]

3 – معيار التحام أجزاء النظم

أضاف لهذا المعيار وضوحا يتخذ من النظم نظرية قائمة، تجعل من النص بنية لغوية تنظم فيها العناصر عبر علاقات تحكمها معاني النحو، "لذا لا يكون الفضل للمفردات في ذاتها، إذ إن الفصاحة للفظ صفة معقولة– لا محسوسة – كما كان في الثقافة الشفاهية، فوجوه نظم الكلام والفروق الواقعة بين نظم ونظم لا تنتهي عند غاية أوحد، لذا تبدوا المفاضلة بين الفصحاء مردود إلى أفضلية اختيار عن اختيار لا اختيار لفظة دون لفظة."[20]

بهذا صنعت الشعرية العربية منعرجا حاسما على يدي عبد القاهر الجرجاني بالانتقال من شعرية اللفظ إلى شعرية النظم، ومن شعرية الوضوح إلى الغموض ومن الألفة إلى الإغراب، وهذا لم يتشكل إلا بسبب النقلة الحضارية التي عاشها المتلقي العربي في مواد تلقيه وقنوات الخطاب لديه فالكتابة فرضت أعرافا جديدة ومتطورة للعمود، من الاهتمام بالفصاحة إلى النظم، فإذا كانت الكتابة جاءت لترشح المستوى التقنيني للمجتمع في مرحلته التطورية، فإن الشفاهية أنتجت لها قوانين مؤثرة في العملية التواصلية، فعجزت الشعرية العربية على التخلص من كل

مؤثرات عصر الجاهلية، إلا أن ذلك لم يكن ليمنع من ظهور شعرية الكتابة كنسق جديد وشائع، كوّن لنفسه معايير أسهمت في تشكيل عناصر عمود الشعر العربي.

من خلال هذا العرض الذي قدمته في هذا المبحث يتأكد أن عمود الشعر إنما هو وليد متطلبات التلقي التي أفرزتها البيئة العربية، عبر كل تحولاتها الحضارية حيث تبين كيف استطاع تاريخ التلقي عند العرب أن يوجه ويرسم تاريخا آخر هو تاريخ الشعرية، تاريخ مغيب عند الكثير من الدارسين حيث غطت ثنائية القديم والحديث على كل المباحث التاريخية للشعر العربي، ليقدم خطابا نقديا يرى في السيرورة التاريخية للأدب تحولا جدليا داخليا للبنى النصية، دون أي دخل للتلقي في صنعه أو تشكيله.

إن من الواجب إنصاف عمود الشعر ورفع الملام عنه في قضية تطور الشعر العربي، حيث نظر إليه الدرس النقدي الحديث من حيث هو شعار جمود الشعر من خلال الإملاءات المجحفة التي كان يفرضها على الشعراء في العصر العباسي وهذا يرجع إلى الخطأ في الرؤية، إذا ما قسنا تجربة الإبداع بشروط التلقي.

"وعلى هذا الأساس يمكن القول أن نظرية عمود الشعر رحبة الأكناف واسعة الجنبات امتدت على طول مسيرة الشعر العربي، وأنه لا يخرج من نطاقها شاعر عربي أبدا، وإنما تخرج قصيدة لشاعر أو أبيات في كل قصيدة، وقد أشاء الناس فهم هذه النظرية وحملوها من السيئات الشيء الكثير ولكنها أساس كلاسيكي رصين فالثورة عليه لا تكون إلا على أساس رفض، جنس الشعر العربي جملة، بل إن المرزوقي زاد من اتساع هذه النظرية حين جعلها ذات وسط وطرفين، فإما أن يحقق هذه العناصر، أو يغلو فيها أو يقتصد بين وبين ولكل أنصاره المتلقين الذين يؤثرونه."[21]

خاتمة: بهذا يمكن أن ندرك أن الشعرية العربية، شعرية للتلقي في الأساس، إذ لعبت مفاهيم من قبيل الشفاهية والاعتدال والوضوح دورا حاسما في تشكيل الصورة النهائية لعمود الشعر بوصفه عمودا للمتلقي العربي، الذي لم يستطيع فيه العمود التخلص من إملاءات الأعراف الاجتماعية وعمود الذوق التي أثقلت كاهل الشعر بمتطلبات اجتماعية وثقافية فرضتها العقلية الثقافية في المجتمع العربي التي غطت كل شعرية جديدة لتعيد إحياء التراث الجاهلي باسم الأصالة، غير أن ذلك لم يمنع عمود الشعر من التحول والتغير استجابة للقارئ العربي المتحول هو أيضا.

الهوامش:

1- محمد تحريشي: أدوات النص، ص 140.

2- حسن البنا عز الدين: الشعر العربي القديم في ضوء نظرية التلقي والنظرية الشفوية، ص 36.

3- أدونيس: الشعرية العربية، ص 36.

4- ينظر: المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، ص 08.

5- محي الدين صبحي: نظرية النقد العربي وتطورها إلى عصرنا، الدار العربية للكتاب، ط1 بيروت، 1984، ص 35.

6 – محي الدين صبحي: نظرية النقد العربي وتطورها إلى عصرنا، ص 32.

7 – أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، تح: علي فوده مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة، 1994، ص253.

8- المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، ص 05.

9- المصدر نفسه، ص 06.

10- المصدر نفسه، ص 06

11- صلاح رزق: أدبية النص، ص 128- 129.

12- أحمد مطلوب: عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، ط1، بيروت، 1973 ص 203.

13- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 307.

14- المصدر نفسه: ص 102.
15- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز: ص 196-197.
16- محي الدين صبحي: نظرية النقد العربي وتطورها إلى عصرنا، ص 31.
17- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 116-117.
18- أحمد مطلوب: عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ص 156.
19-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 345 .
20- صلاح رزق: أدبية النص، ص 40.
21- إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 416.

النّحو العربي من الوصف البنوي إلى الوصف التّداولي
– دراسة في تداولية نحو اللغة العربية الوظيفي لأحمد المتوكل –

أ. ياسين بوراس
جامعة مولود معمري، تيزي–وزو

مقدمة: يمثُّل النّحو واللغة عند جميع الحضارات الإنسانية، ثنائية تستمد من خلالها اللغة استقرارها واستمرارها عبر الزّمن. والنّحو العربي لا يخرج عن هذا الاعتبار كونه ظهر ملازما للغة العربية، بعد أن ارتبطت نشأته بنص مُقدَّس، فكان آلية تقويم ما قد لا يصح من اللسان، أو آلية تنبيه من قد يقع في اللحن دون حسبان، ومع ذهاب عهد السليقة اللغوية، مَثّل النّحو العربي آلية تعليمية، ما استدعى أقلام الأعلام للتأليف والتصنيف فيه، فتراوحت كتب النّحو بين الكتب العلمية التي سارت في تقعيده وفْقَ الأعراف اللغوية للعربية، والكتب التعليمية التي سارت في بناء متونها بطريقة شارحة تَتشُد الغاية التَّعليمِية.

ولقد بُنِيَ النّحو العربي على نظرية الإعراب؛ فكانت أواخر الكلمات حسب هذه النظرية هي الدليل على وظائفها داخل التركيب، وانصب بذلك تعليم النّحو منذ قرونه الأولى على تحديد وظيفة الكلمات من خلال استظهار حركات أواخرها، بعد أنْ ساد "الاعتقاد بأن قواعد اللغة هي القواعد المتعلقة بحركات أواخر الكلمات أو ما يسمى بحركات الإعراب، ومن هنا بُوِّبَت كثير من كتب القواعد في اللغة العربية في أبواب بحسب هذه الحركات الأخيرة: باب المرفوعات، باب المنصوبات..."[1] وقد أثبتت هذه القواعد قصورها، حينما أدرك معظم الدراسين، أنّه بالرغم من معرفتنا هذه القوانين التي تحكم أواخر الكلمات، إلا أننا لا نمارسها وظيفيا ولا نستعملها أثناء كلامنا باللغة العربية، وإضافة إلينا كممارسين للغة العربية، نجد متعلمها ليس في منأى عن الأخطاء التي تلازم كلا من نطقه وكتابته

ما يعني أنّ الأهداف التعليمية للنحو العربي لم تعكس النتائج المرجوة من القواعد التي بناها القدماء، والتي لوحظ عليها أنّه إنّ كان لمتعلم العربية الحظّ في أن يكتسب منها ملكة الكتابة باللغة العربية، والتي قد تتراوح بين الخطأ والصواب فإنّ ملكة التعبير قد تبقى في منأى عن اكتسابها.

ولعل الانتقادات التي وُجِّهت إلى النّظرية النحوية العربية منذ ابن مضاء القرطبي (528 هـ) إلى يومنا هذا، وكذلك نداءات دعاة التيسير، والمحاولات العديدة لتجديد نظرية النحو العربي، والتي منها محاولة إبراهيم مصطفى، وشوقي ضيف، وتمام حسان، وعبد القادر الفاسي الفهري، وأحمد المتوكل وغيرهم ممن سلك في تجديده نظرية النحو العربي مسلكا مضادا لنظرية العامل، أدلّ دليل على قصور نظرية العامل، وعدم نجاعتها، وضرورة تجديد نظرية النّحو العربي.

ونتعرض في هذا المقال إلى محاولة أحمد المتوكل التجديدية للنظرية النحو العربي، من خلال وقوفنا على مشروعه **نحو اللغة العربية الوظيفي** الذي أمضى في تقديمه ما يقارب الثلاثين عاما، مرتكزا في بناءه على ما هو موروث عن القدماء، وأحدث ما توصلت إليه نظريات البحث اللساني، لنستشف مدى كفاءة نظريته في وصف الظواهر اللغوية في العربية، انطلاقا من هذه الإشكالية: **هل حققت نظرية نحو اللغة العربية الوظيفي الكفاية من حيث الوصف والتفسير للظواهر اللغوية في العربية، وهل بإمكان النّحو الوظيفي أن يُمثِّل نظرية نحوية تيسيرية، تضمن مستوى أحسن يتجاوز مستوى نتائج القواعد التقليدية الموروثة؟**

ترجع أصول نظرية النحو الوظيفي إلى مؤسسها الأول سيمون ديك (Simon Dike) من خلال أبحاثه المتعددة التي رسم بها الإطار النظري والمنهجي العام للنظرية، لأتباعه الذين أجروا دراسات لغوية متنوعة، مسّت مجال الدلالة والتداول والمعجم والتركيب في لغات مختلفة، تنتمي إلى فصائل متباينة نمطيا كاللغة الهولندية والإنجليزية والفرنسية والعربية، وقد تجسدت مبادئ هذه النظرية

في الفكر اللغوي العربي المعاصر، في أبحاث أحمد المتوكل، على النحو العربي في إطار هذه النظرية، وتمكن بفضل رسوخ قدمه في التراث اللغوي العربي وحسن استيعابه النظريات اللغوية الحديثة، من إغناء الدراسات النحوية العربية بمفاهيم ومصطلحات حديثة، شكلت نظرية علمية متماسكة، وهي مرشحة أكثر من غيرها لأنْ تكون بديلا معاصرا للنظرية النحوية القديمة، بفضل كفاياتها التفسيرية والنفسية والنّمطية والتطبيقية. وبفضل بنية نحوها أو جهازها الواصف الذي يتميز بالدّقة والمرونة[2].

وأما عن تحديد طبيعة هذه النظرية الوظيفية، فهي حسب أحمد المتوكل "نظرية تعتمد منهجيا أنظومة المبادئ الوظيفية المعروفة، التي يأتي في مقدّمتها مبدأ تلازم الوظيفة والبنية، وتحديد الوظيفة للبنية"[3] ويعني ذلك أنّ الوظيفة الأساسية للغة والتي هي التواصل ملازمة للبنى اللغوية، وأن الوظيفة الأساسية للغة والتي هي التواصل، هي المسؤولة عن تحديد هذه البنى اللغوية من حيث مضمونها وشكلها؛ إذ صاغ أصحاب النحو الوظيفي نظريتهم النحوية، على اعتبار أن اللغة أداة تواصل، "وانطلقوا من فرضية كبرى تتمثل في كون الخصائص التداولية، هي التي تحدّد الخصائص التركيبية والصرفية؛ بمعنى أنّ الوظيفة الأساس للغة التي هي التواصل تحدد البنية اللغوية"[4] وبهذا ينتقل مفهوم النَّحو من النظرية القائمة على أنّ البنية، هي التي تُحدِّد المعاني الوظيفية، إلى العلاقة العكسية بأنّ الوظيفة التّداولية هي التي تُحدِّد البنية.

ويُعَدُّ النَّحو الوظيفي مُعالَجةً نوعية للأنحاء التي قامت على الوصف البنوي عازلة اللغة عن وظيفتها التواصلية، حيث "تَجاوز البحث اللساني في إطاره الوظيفي، القدرة النَّحوية للغة إلى القدرة التّداولية، ففهم اللغة فهما عميقا، لا يمكن أنْ يكون إلا عن طريق ربطها بمختلف الأهداف التّداولية التي تُستَعمل مِنْ أجلها"[5] ويَعتبِر النَّحو الوظيفي بهذا أنّ الأنحاء البنوية أو الاتجاهات التي سارت في وصفها اللغة وصفا بنويا، تُمثِّل فصلا للغة عن وظيفتها التواصلية. والنَّحو العربي لا

يخرج عن هذا الاعتبار؛ لكونه لا يتجاوز في وصفه تحديد العلاقة البنوية التي تجمع وحدات الجملة، محددا وظيفتها من خلال حركات أواخرها؛ لهذا عمد أحمد المتوكل إلى تبنِّي النَّحو الوظيفي؛ قصد إعادة وصف قواعد اللغة العربية وِفقَ مفاهيمه النّظرية؛ حتّى يتّصف نحوها بالشمولية في وصف الظواهر اللغوية في العربية وأصبح بذلك نحو اللغة العربية الوظيفي يتضّمن ثلاثة أنواع من الوظائف هي: الوظائف الدّلالية والوظائف والتّركيبية والوظائف التّداولية، ويحكم هذه الوظائف **قيد أحادية الإسناد** الذي مفاده[6]:

– لا موضوع يحمل أكثر من وظيفة واحدة، من كل نوع من الوظائف الثلاث في نفس الحمل.

– لا وظيفة تُسنَد إلى أكثر من موضوع واحد، داخل نفس الحمل.

أولا– الوظائف الدّلالية: يكمن الدور الأساس الذي تقوم به الوظائف الدلالية في تعيين مختلف الأدوار التي تقوم بها الحدود في بناء الوقائع؛ حيث تتكون البنى التّركيبية في اللغة العربية من جملة إسنادية، تتكون من مُسنَد ومُسنَد إليه، أو من مسند ترد بالنسبة إليه عدة مسانيد، مثل قولك: جاء محمد (مسند + مسند إليه) أو قولك: شرب محمد لبنا (مسند + مسند إليه$_1$ + مسند إليه$_2$). ويُصطلَح على البنية المُكوَّنة على هذا الأساس في النَّحو الوظيفي بـــ (البنية الحملية) ويُسمَّى المسند فيها **محمولا**، وتسمى الموضوعات المُسنَد إليها المحمول **حدودا**.

وقد وضع أحمد المتوكل سلميّة توضح مختلف الأدوار الدلالية للحدود التي يمكن أن ترد مساوقة للمحمول في اللغة العربية، وتعكس هذه السلمية درجات الأسبقية بين الحدود، حسب أولوية تمركزها بالنسبة للمحمول، نحو ما هو في السلميّة الآتية[7]:

منف
قو
متض > مستق> متق> حد / زما / مك > مستفيد> أداة> حال> علة> مصاحب
حا

وترصد السلمية التي وضعها المتوكل مختلف الأدوار الدلالية التي تقوم بها الحدود، التي قد ترد مساوقة للواقعة التي تُعتبَر محمول البنية الحملية؛ حيث يرد كل حدّ له وظيفة دلالية تلعب دورا بالنسبة للواقعة، فالحدّ الحامل الوظيفة الدّلالية **(المُنفِّذ أو القوة أو المتموضع أو الحائل)** تدلّ على صاحب الواقعة، والحدّ الحامل الوظيفة الدّلالية **(المستقبل)** يدلّ على مُستقبِلِ الواقعة، والحدّ الحامل الوظيفة الدّلالية **(المُتقبِّل)** يدل على متقبل الواقعة، والحد الحامل الوظيفة الدّلالية **(الحدث)** يدلّ إما على تأكيد الواقعة (أكرمت زيدا **إكرامًا**) أو هيئة الواقعة (وقف زيد **وقفة** احترام) والحد الحامل الوظيفة الدّلالية **(الزمان)** يدلّ على زمن الواقعة (جاء زيد **يوم الخميس**) والحد الحامل الوظيفة الدّلالية **(المكان)** يدلّ على مكان الواقعة (دخل زيد **إلى الجامعة**) والحد الحامل الوظيفة الدّلالية **(المستفيد)** يدلّ على المستفيد من الواقعة (اشترى زيد سيارة **لابنه**) والحد الحامل الوظيفة الدّلالية **(الأداة)** يدلّ على أداة الواقعة (سافرت **بالسيارة**) والحد الحامل الوظيفة الدّلالية **(الحال)** يدلّ على هيئة صاحب الواقعة (أقبل زيد **مسرعا**) والحد الحامل الوظيفة الدلالة **(العلة)** يدلّ على سبب الواقعة (نعبد الله **طمعا** في جنته) والحد الحامل الوظيفة الدّلالية **(المصاحب)** يدلّ على المُصاحبِ صاحبَ الواقعة (جِئْتُ و**زيدًا**).

ثانيا- الوظائف التركيبية: ترتبط الوظائف التركيبية بالوظائف الدلالية في النحو الوظيفي ارتبطا مباشرا؛ حيث تُسنَد الوظائف التركيبية إلى الحدود على أساس دلالي، وكما سبق أنْ أشرنا تتكوَّن البنية الحملية من محمول وحدود موضوعات وحدود لواحق، ويأخذ كلّ حدّ منْ تلك الحدود وظيفة دلالية تدلّ على الدور الذي يلعبه في بناء الواقعة أو في تحديد الظروف المحيطة بها، وتختلف هذه

الوظائف الدّلالية باختلاف أدوارها، كما يختلف عددها تبعا للحدود التي قد ترد مساوقة للمحمول (الواقعة) إذ قد يَرِد في البنية الحملية المُنفِّذ فحسب (جاء **عمر**) وقد يَرِد المُنفِّذ إلى جانب المُتقبِّل (كتب **عمر الدرس**) وقد يَرِد الاثنان معا إلى جانب المستقبل (وهب **زيد عمرا سيارة**).

ومع تعدد هذه الحدود المساوقة للمحمول واختلاف وظائفها، إلا أنّ الوظائف التّركيبية في نّحو اللغة العربية الوظيفي، لا تُسنَدُ إلا لحدين اثنين من بين الحدود الأخرى التي قد ترد ضمن البنية الحملية على أساس أنّ الوظائف التّركيبية قد قُلِّصت إلى وظيفتين تركيبيتين لا أكثر، هما وظيفتا **الفاعل والمفعول**، ولا تُسنَدان إلا لحدَّيْن اثنين حاملين لإحدى الوظائف الدّلالية؛ إذ "ثمّة اقتراحات قُدِّمت في إطار نماذج لغوية مختلفة، يجمع بينها أنّها تستهدف تقليص الوظائف التّركيبية إلى وظيفتين اثنتين: وظيفة الفاعل ووظيفة المفعول وأنّها تَعتَبر أنّ الوظيفة المفعول لا يحملها في نفس الجملة إلا مكون واحد"[8] وحسب هذا المبدأ فإنّه لا إمكانية في النَّحو الوظيفي لإسناد هذين الوظيفتين لأكثر من حدّ في البنية الحملية، بالرغم من توفّر اللغة العربية على مُكوِّنيْن يمكن أنْ يأخذا نفس الوظيفة التّركيبية المفعول نحو قولك: أعطت هند **خالدا القلم**.

وقد صاغ المتوكل سلميتين تضبطان وظيفتي الفاعل والمفعول في اللغة العربية، تِبَعا للوظائف الدّلالية التي لها إمكانية أخذ هاتين الوظيفتين التّركيبيتين على النَّحو الآتي:

2-1- سلميّة إسناد الوظيفة التّركيبية الفاعل: اقترح أحمد المتوكل السلميّة الآتية لضبط **الوظيفة التّركيبية (الفاعل)** والوظائف الدّلالية التي لها إمكانية الاستناد إليها، من الوظائف التي يمتنع أنْ تُسنَد إليها هذه الوظيفة في قواعد اللغة العربية[9]:

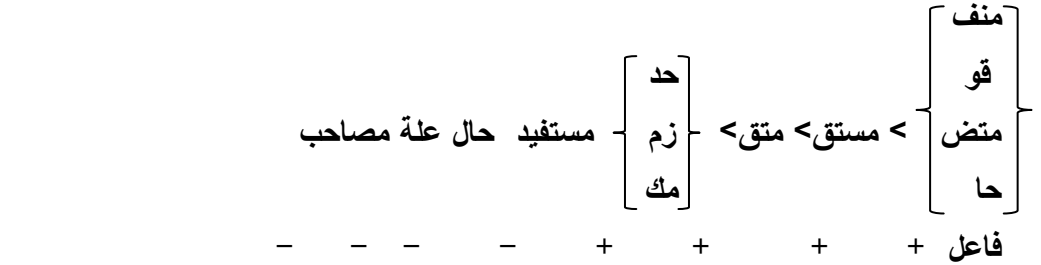

	منف / قو / متض / حا	> مستق	> متق >	حد / زم / مك	مستفيد	حال	علة	مصاحب
فاعل	+	+	+	+	−	−	−	−

وتفيد السّلميّة التي صاغها أحمد المتوكل لضبط الوظيفة التّركيبية الفاعل، تِبَعا للوظائف الدّلالية التي لها إمكانية الاستناد إليها، أنّ هذه الوظيفة التّركيبية (الفاعل) لها إمكانية الاستنـــاد إلى الحـــدود الحاملـــة الوظـــائف الدّلالية (**المُنفِّذ أو القوة أو المتموضع أو الحائل**) في حالة بناء الفعل للمعلوم، وإلى (**المستقبل** و**المُتقبِّل** و**المكان**، أو **الزمان**، أو **الحدث**) في حالة بنائه للمجهول. وتفيد السلميّة ذاتها أنّ الحدود التي لها الوظائف الدّلالية (**المستفيد، والحال، والعلة، والمصاحب**) ليس للوظيفة التّركيبية الفاعل إمكانية الاستناد إليها "كما يدلّ على ذلك لحن الجمل الآتية:

- ؟؟؟ اشتُريَ لِزيد (**مستفيد**) حقيبةً.
- ؟؟؟ تُوقِف **تَعبٌ (علة).**
- ؟؟؟ جِيئَ **راكبٌ (حال).**
- ؟؟؟ سِيرَ و**النيلُ (مصاحب)**"[10]

وتُعَدُّ هذه الجمل المتوالية لاحنة؛ لأنّها تسند الوظيفة التّركيبية الفاعل إلى الحدود التي لا تُعتبَر داخلة في الوجهة، فالفعل (اشتَرَى) في الجملة الأولى واقعة تستدعي استحضار (منفذ، المُشتَرِي) يأخذ الوظيفة التّركيبية الفاعل و(متقبل، المُشتَرَى) يأخذ الوظيفة التّركيبية المفعول، فإذ بُنِي الفعل للمجهول ناب الحد المُتقبِّل عن الحدّ المُنفِّذ في أخذ الوظيفة التّركيبية الفاعل، فتقول (اشْتُرِيتْ حَقَيبَةٌ) ولا يصحّ أنّ ينوب الحد المُستفِيد (زيد) من الواقعة عن الحدّ المُنفِّذ لها. ومثل ذلك ينطبق الحال على الحدود الحاملة الوظائف الدّلالية الحال والعلة والمصاحب في الجمل المتوالية على

التّرتيب، فليس لها إمكانية أخذ الوظيفة التّركيبية الفاعل؛ لأنّها لا تصلح أنْ تنوب عن الحد (المُنفِّذ).

2-2- سلميّة إسناد الوظيفة التّركيبية المفعول: اقترح أحمد المتوكل السلميّة الآتية لضبط **الوظيفة التّركيبية (المفعول)** والوظائف الدّلالية التي لها إمكانية الاستناد إليها، من الوظائف التي يمتنع أنْ تُسنَد إليها هذه الوظيفة في قواعد اللغة العربية[11]:

مستقبل > متقبل > { مكان / زمان / حدث } مستفيد حال علة مصاحب

مفعول + + + - - - - -

وتفيد السلميّة التي صاغها أحمد المتوكل؛ لضبط الوظيفة التّركيبية المفعول تِبَعا للوظائف الدّلالية التي لها إمكانية الاستناد إليها، أنّ الوظيفة التّركيبية المفعول، لها إمكانية الاستناد إلى الحدود الحاملة الوظائف الدّلالية (**المستقبل**، و**المُتقبِّل**، و**المكان** و**الزمان** و**الحدث**). وتفيد السلميّة ذاتها أنّ الحدود الحاملة الوظائف الدّلالية (**المستفيد، والحال، والعلة، والمصاحب**) يمتنع إسناد الوظيفة التّركيبية المفعول إليها؛ وذلك لكونها خارجة عن حدود الوجهة التي تقتضيها الواقعة ودليل خروجها عن حدود الوجهة، هو أنّها لا يمكن أنْ تنوب عن الفاعل في حالة بناء الفعل للمجهول.

وبناء على مفهوم الوجهة عند فيلمور والإسناد عند النّحاة، فإن الوظيفتين التّركيبيتين الفاعل والمفعول في نحو اللغة العربية الوظيفي، لا يمكن أنْ يأخذها من الوظائف الدّلالية إلا الحدود التي تصلح أنْ تكون مسندا إليه بالنسبة للواقعة، والتي تشمل وفق قواعد اللغة العربية الحدّ ((المُنفِّذ، والمتموضع والحائل، والقوة) أو المُتقبِّل، أو المستقبل، أو المكان، أو الزمان، أو الحدث) بالنسبة للوظيفة التّركيبية

الفاعل، والحد (المُتقبِّل والمستقبل والمكان، والزمان والحدث) بالنسبة للوظيفة التّركيبية المفعول.

ثالثا- الوظائف التداولية: يكمن الدور الأساس للوظائف التداولية في النحو الوظيفي في تعيين مختلف الأدوار التي تقوم بها مكونات الجملة بالنسبة لكل من طرفي التداول (المتحدث والسامع) وهي تُعدُّ أساس تميز النحو الوظيفي عن الأنحاء البنوية، حيث سعى أصحاب النّحو الوظيفي إلى رصد جميع الوحدات التركيبية في عدة لغات مختلفة نمطيا؛ قصد حصر مختلف الأدوار التي يمكن أن تقوم بها أثناء العملية التواصلية. وقد حصر المتوكل هذه الوظائف التّداولية التي يمكن أنْ تُحدِّد مختلف الأدوار التي تقوم بها مُكوِّنات الجملة أثناء العملية التواصلية في خمس وظائف، تتميّز فيما بينها؛ من حيث داخليتها أو خارجيتها، على نحو ما هو آتٍ:

3-1 الوظائف التّداولية الداخلية: وهي الوظائف التي تتدرج ضمن البنية الحملية، وتشمل وظيفتي **(المحور والبؤرة)** على النَّحو الآتي:

3-1-1 المحور: ذهب أحمد المتوكل إلى تعريف (المحور) وفق التعريف الذي اقترحه سيمون ديك بأنّه "المُكوِّن الدّال على ما يُشكِّل (المُحدَّث عنه) داخل الحمل"[12] ويُوضِّح هذا التعريف أنّ كلّ ما يمكن أنْ يُشكِّل بالنسبة لكل من المتحدِّث والسامع مدار حديثهما، تُسنَد إليه الوظيفة التّداولية الداخلية المحور على نحو ما تبيّنه الجمل الآتية:

- لمن أعطى **زيدٌ** الكتابَ؟
- أعطى **زيد** الكتاب محمدا.

ويُعَدُّ المُكوِّن **(زيد)** في الجملة الأولى محور الاستخبار، وفي الثانية محور الإخبار، ومع تَوفُّر الجملتين على مُكوِّن ثان (الكتاب) يمكن اعتباره محورا، إلا أنّ ذلك يمتنع في النَّحو الوظيفي؛ لكونه يتنافى وقيد إسناد الوظائف، والذي مفاده أنّه لا وظيفة لأكثر من حد، ولهذا فقد ذهب أحمد المتوكل إلى أنّه في هذه الحالة، يأخذ

الحد (الفاعل أو ما ينوب عنه) الأولوية في أخذ الوظيفة التّداولية المحور، ويرى أنّه "يُزكّي فرضية أسبقية المُكوِّن الفاعل، على غيره من المُكوِّنات في أخذ الوظيفة التّداولية المحور حصر النحاة العرب القدماء لعلاقة ما أسموه بالإسناد بين الفعل (أو ما يقوم مقامه) والفاعل (أو نائبه) مصطلحين على الأول مسندا والثاني مسندا إليه"[13] ويعني ذلك أنّ وظيفة المحور ينفرد بها (الفاعل) أو (ما ينوب عنه) في حالة بناء الفعل للمجهول نحو ما توضّحه الأمثلة الآتية:

- أعطى **زيدٌ** خالدا الكتاب. **(محور)**
- أُعطِي **خالدٌ** الكتاب. **(محور)**
- أُعطِي **الكتابُ** خالدا. (بشرط الإحالية: تعني أنْ يكون المُكوِّن المحور محيلا على شيء يعلمه المتحدِّث والسامع ويشكِّل مدار حديثهما)

3-1-2 البؤرة: ذهب أحمد المتوكل إلى تعريفها وِفقَ التعريف الذي اقترحه سيمون ديك، بأنّها "المُكوِّن الحامل للمعلومة الأكثر أهمية أو الأكثر بروزا في الجملة"[14] ويُقصَد بها المعلومة التي ينقلها المتحدِّث للسامع أو الحدّ الذي يتضمن الفائدة الإخبارية، وقد اقتصرت النظرية النَّحوية الوظيفية عند ديك في بدايتها على إسناد هذه الوظيفة لكل مكوِّن يُعتبَر في التّركيب متضمنا معلومة جديدة بالنسبة للسامع إلا أنّ أحمد المتوكل ذهب إلى التمييز بين نوعين من البؤرة على أساس أنّ "ما يُمكِن أنْ يضيفه المتكلم إلى مخزون المخاطب ليس معلومات جديدة فحسب؛ بل كذلك معلومات تُعدِّل، أو تصحِّح، أو تعوِّض معلومات في مخزون المُخاطَب يعدُّها المتكلم مُستوجِبة للتعديل أو التصحيح أو التعويض"[15] وبناء على الفرق بين نقل معلومة جديدة، وبين تعديلها أو تصحيحها أو تعويضها بواسطة المكون الحامل الوظيفة التّداولية البؤرة، ميّز المتوكل بين بؤرتين رئيسيتين، هما: **بؤرة جديد وبؤرة مقابلة** "واقترح دعما للتمييز بينهما رائزين اثنين: رائز سؤال جواب ورائز التّعقيب"[16] ويرتبط رائز السؤال والجواب ببؤرة الجديد حيث تمثِّل جوابا طبيعيا جملة **(عمر مسافر غدا)** والتي تتضمن بؤرة جديد، لسؤال مثل: **متى مسافر عمر؟**

أو ما الخبر؟ ولكن لا تصلح أنْ تكون أجوبة طبيعية للجمل التي تتضمن بؤرة مقابلة، نحو ما تبيّنه الإجابات اللاحنة الآتية:

- متى مسافر عمر؟
- ؟؟؟ **غدا** مسافر عمر.
- ماذا قرأتَ؟
- ؟؟؟ كتابَ الجرجاني قرأتُ.

ويرتبط رائز التعقيب ببؤر المقابلة؛ حيث يُطلَقُ "على العبارات المُصدَّرة بحرف النّفي أو بحرف الإضراب (بل) اللذان يُستعملَان رائزا لوجود بؤرة المقابلة"[17] ويعني ذلك أنّ الجملة إذا تصدرها نفي أو حرف الإضراب (بل)، أو إذا أَمكَن إلحاق تعقيب النفي أو الإضراب بها فإنّها متضمنة بؤرة مقابلة، نحو ما تبيّنه الجمل الآتية:

- **بل يوم الخميس** مسافر عمر. (لا يوم الغد)
- ليس المسافر **زيد**. (بل عمر)
- عمر ليس مسافرا **غدا**. (بل يوم الخميس)
- **كتاب الجرجاني** قرأتُ. (لا كتاب سيبويه)

وكما ميّز المتوكل بين نوعين من البؤرة؛ من حيث طبيعتها (بؤرة الجديد وبؤرة المقابلة) كان قد ميّز البؤرة؛ من حيث مجال التبئير بين نوعين من البؤر: **بؤرة الجملة** و**بؤرة المكوِّن**؛ حيث "تُسنَد كل من بؤرة المقابلة وبؤرة الجديد إلى مكوِّن من مكونات الجملة، أو إلى الجملة برمتها"[18] فإذا أسندت البؤرة إلى جملة بأكملها عُدَّت بؤرة جملة، وإذا أسندت إلى مُكوِّن من مكوناتها عُدَّت بؤرة مُكوِّن نحو ما تبيّنه الجمل الآتية:

- عاد زيد من السفر **البارحة**. (بؤرة مكون جديد)
- **البارحة** عاد زيد من السفر. (لا اليوم). (بؤرة مكون مقابلة)
- عمر، **عاد أخوه من السفر**. (بؤرة جملة جديد)

– **أحَضَر الضيوف؟** (أم لا). (بؤرة جملة مقابلة)

وتوضِّح الأمثلة المتتالية نوع البؤرة؛ من حيث طبيعتها بالنسبة لكل من المتحدِّث والسامع (بؤرة جديد أو بؤرة المقابلة) كما توضّح نوع البؤرة من حيث مجال التبئير؛ إذ تُعدُّ الجملتان الأولى والثانية متضمِّنة بؤرة مكوِّن على أساس أنّ مجال التبئير فيها يمسّ مكونا من مكوناتها، سواء كانت بؤرة جديد أو بؤرة مقابلة. أمّا الجملتان الثانية والثالثة فتُعدّ متضمنة بُؤَرا جُمَلِيَّة، على أساس أنّ مجال التبئير فيها يمسُّ الجملة بأكملها سواء كانت بؤرة جديد أو بؤرة مقابلة، وهذا التَّمييز بين نوعي البؤرة؛ من حيث مجال التبئير، يوضّح أنّ البؤرة قدّ تمسّ إحدى مكونات البنية الحملية، كما يمكن أنْ تمسّ البنية الحملية بأكملها؛ لكون البؤرة بالنسبة للجملة وظيفة تداولية داخلية، ولا يمكن أنْ يمسَّ مجال التبئير فيها الوظائف التّداولية الخارجية (المنادى، والمبتدأ، والذيل).

3-2 – الوظائف التّداولية الخارجية: وهي الوظائف الخارجة عن حدود البنية الحملية، وتشمل الوظائف التّداولية (**المبتدأ، والذيل، والمنادى**) على النّحو الآتي:

3-2-1 المبتدأ: عرّف المتوكل الوظيفة التداولية المبتدأ، وِفقَ التعريف الذي اقترحه ديك، بأنّه "ما يُحدِّد مجال الخطاب، الذي يُعتَبر الحمل بالنسبة إليه واردا"[19] ويعني ذلك أنّ الخاصية المميزة للمبتدأ هي ورود الحمل بأكمله تابعا له، أو واردا بالنسبة إليه نحو ما تبيّنه الجمل الآتية:

– **زيد**، أبوه مريض – **زيد**، هل لقيت أباه – **زيد**، إنْ تُكرِمه يُكرِمْك.

وتأخذ المركبات الاسمية الأولى في الجمل المتتالية؛ حيث البنية الحملية الموالية لها كلّها واردة بالنسبة إليها، الوظيفة التّداولية المبتدأ باعتبارها تشكِّل مجال الخطاب، وما يلاحظ على هذه المكونات الاسمية أنّها لا تأخذ سوى الوظيفة التّداولية (المبتدأ) وليس لها إمكانية أخذ وظيفة دلالية؛ لأنّها لا تُعتَبر حدا من حدود البنية الحملية، وكذلك يمتنع أنْ تأخذ وظيفة تركيبية؛ لأنّها لا تعتبر فاعلا ولا مفعولا، وهذا ما جعلها تنضوي ضمن الوظائف التّداولية الخارجية لا الداخلية

ويدل على خارجيتها، أنّها بخلاف المحور الذي يُعَدُّ وظيفة تداولية داخلية، له وظيفة دلالية ووظيفة تركيبية؛ ويفرض الحمل قيود انتقائه، في حين أنّ المبتدأ لا يخضع لقيود انتقاء الحمل، نحو ما توضحه الأمثلة الآتية:

- **زيد** منطلق. **(محور)**
- **المسافرون** منطلقون. **(محور)**
- **زيد**، أخواه مسافران **(مبتدأ)**
- **المسافرون**، غادر أحدهم. **(مبتدأ)**

وتوضّح الأمثلة المتتالية أنّ (المحور) يفرض الحمل قيود انتقائه، فيكون مطابقا للمحمول في الجنس العدد، أما المبتدأ فلا يخضع لقيود انتقاء الحمل؛ بمعنى أنه ليس من الضروري أنْ يطابق المبتدأ المحمول في الجنس والعدد؛ لكونه خارجا عن الحمل، وهذا ما يجعل وظيفته خارجية، مقارنة بوظيفة المحور الداخلية؛ حيث "يشكل المحور بخلاف المبتدأ موضوعا من موضوعات المحمول في البنية المحمولية، ويترتّب عن ذلك؛ أنّه يأخذ وظيفة دلالية، وتلحق به وظيفة تركيبية معينة، بالإضافة إلى وظيفته التّداولية (المحور) نحو قولك:

- **زيد** منطلق **(منفذ فاعل)**

وبخلاف المبتدأ الذي يأخذ وظيفة تداولية فحسب، وليس له إمكانية أخذ وظيفة دلالية ولا تركيبية لأنّه ليس حدا من حدود البنية الحملية"[20] نحو قولك:

- **زيد**، أخواه مسافران. **(مبتدأ، لكن ليس منفذا ولا فاعلا)**

3-2-2 الذيل: يُعرِّف المتوكل الذيل بأنه "المُكوِّن الذي يُوضِّح معلومة داخل الحمل، أو يعدِّلها أو يصحِّحها"[21] وبعبارة أخرى "هو المُكوِّن الذي يوضِّح أو يعدِّل أو يصحح معلومة واردة في الحمل"[22] ويوضّح التعريفان أنّ الوظيفة التّداولية (الذيل) تنقسم إلى ثلاثة أنواع **ذيل توضيح**، و**ذيل تعديل**، و**ذيل تصحيح**، وأمثلتها الجمل الآتية:

- أخوه مسافر، **زيد**. (ذيل توضيح)

– ساءني زيد، **سلوكه.** (ذيل تعديل)

– قابلت اليوم زيدا، **بل خالدا.** (ذيل تصحيح)

وقد ذهب أحمد المتوكل بخلاف النحاة القدماء الذين يعدّون المكونات الأخيرة في هذه الجمل، على التوالي، **مبتدأ مؤخرا**، و**بدلا**، و**مضربا به (معطوف)** إلى أنّه يعتبر "هذه البنيات على اختلاف خصائصها البنوية، حاملة وظيفة تداولية واحدة هي **وظيفة الذيل**، ويرجع هذا الاختلاف البنوي إلى اختلاف الأدوار التي يقوم بها المُكوِّن الذيل على مستوى البنية الإخبارية للجملة"[23] والتي يأتي فيها المُكوِّن الحامل الوظيفة التّداولية الذيل، مختلفة أدواره وفقا لخطابات تداولية مختلفة، بين التوضيح أو التعديل أو التصحيح للمعلومة المراد نقلها للسامع.

3-2-3 المنادى: عرِّف أحمد المتوكل الوظيفة التداولية المنادى بأنّها "المُكوِّن الدال على الكائن المنادى في مقام معيّن"[24] ويُمثِّل أحمد المتوكل للوظيفة التّداولية (المنادى) بالأمثلة الآتية: "**زيد**، ناولني الملح – **يا خالد**، اقترب – **يا طالع الجبل** انزل – **أيها الأطفال**، حان وقت النوم – **وا زيداه** – **وا خالدا** ابتعد – **يا لزيد** لخالد – **يا لعمرو**، لما أصابنا."[25]

ويُلاَحظ على الجمل التي مثّل بها المتوكل للوظيفة الدّلالية (المنادى) أنّ الجملة الأولى منها، لا تشتمل على حرف النداء، وأما باقيها فإنّها قد تضمّنت أدوات النداء (يا، وأيها، ووا) مع أنّ ما عُرِفَ عن استعمالات العرب القدماء لأحرف النداء أنّها قد بلغت سبعة حروف على الأقل وهي (أَ، أَيْ، يا، آ أَيا هَيا، وَا). ويرجع تقليص عدد هذه الحروف إلى الاقتراح الذي قدمه أحمد المتوكل، والذي مفاده أنْ "تُقلَّص قائمة الأدوات الواردة في كتب النَّحو إلى عدد أقل؛ إذ إنّه من الواضح أنَّ بعض هذه الأدوات، ليست إلّا بدائل لهجية كما هو الشّأن مثلا بالنسبة لـــ (هيا) في مقابل (أيا) كما أنّه لم يَعُد مُستَعمل في اللغة العربية المعاصرة إلا بعض من الأدوات التي أحصاها النّحاة العرب القدماء، وأهمُّ الأدوات التي تُستَعمل الآن في البنيات الندائية (أيها) و(يا) و(أ)"[26] واقتصر بذلك المتوكل على وصف الوظيفة

التداولية المنادى، بناء على أربع أدوات هي أداة النداء الصفر، والحروف الثلاثة (أيها، ويا والهمزة) بناء على محدودية استعمالها في اللغة العربية المعاصرة مقارنة بما كان مُستعمَلا عند العرب قديما.

رابعا- قيود إسناد الحركات الإعرابية في نحو اللغة العربية الوظيفي: ينطلق النَّحو الوظيفي من مبدأ تحديد الوظيفة للبنية؛ ويعني ذلك أنّ الوظيفة الدّلالية أو التّركيبية أو التّداولية هي المسؤولة عن تحديد الحركات الإعرابية للمكونات داخل الجملة، وقد ميّز أحمد المتوكل في نحو اللغة العربية الوظيفي بين ثلاثة أنواع من الحالات الإعرابية التي يمكن أنْ تَلحَق المُكوِّنات، منها "حالتان إعرابيتان (وظيفيتان) وحالة إعرابية (بنوية) **الحالتان الإعرابيتان الوظيفيتان** هما حالتا **(الرفع والنصب)** أما **الحالة الإعرابية البنوية** فهي الحالة الإعرابية **(الجر)**"[27] وما يُميِّز الحالة الإعرابية الوظيفية عن الحالة الإعرابية البنوية هو أنّ الأولى (الرفع والنصب) ترتبط بالمكون عن طريق الوظيفة الدّلالية أو التّركيبية أو التّداولية التي يشغلها داخل الجملة، في حين أنّ الثانية (الجرّ) ترتبط بالمُكوِّن، إذا كان مسبوقا بحرف جرٍّ أو كان مضافا، بغضّ النّظر عن وظيفته الدّلالية أو التّركيبية أو التّداولية؛ بمعنى أنّ الحركة الإعرابية البنوية تجعل المُكوِّن يأخذ حركة الجرّ التي تحجب حركته الإعرابية الوظيفية.

وتُسنَد الحالات الإعرابية الوظيفية إلى المُكوِّنات داخل الجملة، تِبَعًا للوظيفة التي يمكن أنْ يشغلها المُكوِّن؛ حيث تتضافر الوظائف التّركيبية، والوظائف الدّلالية، والوظائف التّداولية في تحديد الحركات الإعرابية للمكوِّنات، ويتمّ إسنادها وفق القواعد الثلاث الآتية[28]:

- لا تتغيّر الحالات الإعرابية اللازمة بتغيّر أسيقتها الوظيفية، ولا بتغيّر أسيقتها البنويّة، فهي تلزم حالتها الإعرابية، كما هو ممثّل لها داخل المعجم ذاته.

- تأخذ المُكوِّنات **المنتمية إلى الحمل؛** أي المكونات التي تشكِّل حدودا للمحمول، إمّا باعتبارها موضوعات أو باعتبارها لواحقا، الحالة الإعرابية التي تقتضيها وظيفتها الدّلالية، إنْ لم تكن لها وظيفة تركيبية (إن لم تكن فاعلا أو

مفعولا) وتأخذ الحالة الإعرابية التي تخولها إياها وظيفتها التّركيبية (الفاعل والمفعول) إنْ كانت مسندة إليها وظيفة تركيبية، بالإضافة إلى وظيفتها الدّلالية.

– تأخذ المُكوّنات **غير المنتمية إلى الحمل** ذاته حالاتها الإعرابية، بمقتضى وظيفتها التّداولية ذاتها؛ إذ إنّ هذه المكونات بحكم خارجيتها بالنسبة للحمل، لا تحمل وظيفة دلالية ولا وظيفة تركيبية فالمكون المبتدأ مثلا يأخذ الحالة الإعرابية (الرّفع) بمقتضى وظيفته التّداولية نفسها وظيفة (المبتدأ).

خاتمة: ما يمكن استخلاصه مما قدّمه المتوكل في تطبيقه أحدث نظريات البحث اللساني على اللغة العربية، أنّه هدف من خلال مشروعه إلى إعادة وصف قواعد اللغة العربية، بما يحقق الوصف الكافي لمستوياتها الثلاثة **الدلالية والتركيبية والتداولية**، ويعكس هذا الوصف حقيقة الظاهرة اللغوية؛ من حيث هي مجموعة من الوحدات اللغوية لها أدوار دلالية تشير إلى الواقع الخارجي، وتحكم إسناد هذه الأدوار إلى بعضها البعض في المستوى التركيبي قواعد تركيبية، وتحكم مضمونها وشكلها الوظيفة الأساسية للغة وهي الوظيفة التّداولية. ومن النتائج العامة حول طبيعة هذه النظرية ما يلي:

– يقوم نموذج النظرية النحوية الوظيفية على إلغاء فرضية العامل بناء على أنّ الوظائف هي التي تحددّ البنية أو الحركات الإعرابية؛ حيث تتضافر الوظائف التّداولية والوظائف التّركيبية، والوظائف الدّلالية في تحديد الحركات الإعرابية للمكوّنات في الجملة.

– تحدّد الوظائف الدلالية مختلف الأدوار التي تقوم بها الحدود بالنسبة للواقعة مع تحديدها نوع الحركة الإعرابية للحدود التي ليس لها إمكانية أخذ وظيفة تركيبية أو تداولية، وتحدد الوظائف التركيبية الحركات الإعرابية للحدين اللذين يعتبران وجهيين بالنسبة للواقعة؛ أي الحدان اللذان يأخذان الوظيفة التركيبية الفاعل والمفعول. وأما الوظائف التداولية فإنّ وظيفتها الأساسية هي تحديد دور مكونات الجملة بالنسبة لكل من طرفي التداول (المتحدث والسامع) إضافة إلى تحديدها نوع الحركة الإعرابية للمكونات التي تأخذ هذه الوظيفة.

– تظهر تداولية نحو اللغة العربية الوظيفي مقارنة بنظرية النحو العربي الموروثة في تحقيقه الوصف الكافي لمستويات اللغة العربية بما فيها المستوى الدلالي والمستوى التركيبي والمستوى التداولي في حين كانت النّظرية النحوية العربية لا تتجاوز تحديد العلاقة البنوية التي تجمع مُكوِّنات الجملة.

– يلازم نحو اللغة العربية الوظيفي بين البنية والوظيفية، بدل تناول قواعد اللغة في قوالب معزولة عن وظيفتها التواصلية، وهو ما يُسهِم في زيادة القدرة على استيعاب المتعلم القواعد النّحوية بمستوياتها الثلاث، ويعين على تَعلُّم اللغة قواعدا وتداولا (استعمالا).

– يُقلِّل نحو اللغة العربية الوظيفي من الاصطلاحات النّحوية في تنظيره ووصفه الظواهر اللغوية في العربية، ما يساعد متعلم اللغة على استيعاب المفاهيم النّحوية.

– يُوفِّق بين كل الاقتراحات التيسيرية التي تعلّقت بالحذف والاختصار لأبواب النحو، معتبرا جميع الظواهر اللغوية صالحة للوصف الوظيفي، مما يصنِّفه ضمن تيار توفيقي بين دعاة التجديد وتمسك النّحاة بالنظرية النحوية الموروثة.

الهوامش:

1– داود عبده، نحو تعليم اللغة العربية وظيفيا، ط1. الكويت: 1979، مؤسسة دار العلوم ص51.

2– يحيى بعيطيش، نحو نظرية نحوية وظيفية للنحو العربي، أطروحة دكتوراه جامعة قسنطينة الجزائر: 2006، ص77.

3– الوظيفية بين الكليّة والنّمطية، ط1. الرباط: 2003، دار الأمان، ص55.

4– مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، دط. المغرب: دت. جامعة عين الشق، ص258.

5– حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ط1. بيروت: 2009، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ص346.

6– أحمد المتوكل، من البنية الحملية إلى البنية المكوِّنية: الوظيفة المفعول في اللغة العربية، ط1. الدار البيضاء: 1987، دار الثقافة، ص98.

7- المرجع نفسه، ص24.

8- المرجع نفسه، ص93-94.

9- المرجع نفسه، ص42.

10- أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ط1. الدار البيضاء: 1986، دار الثقافة، ص38.

11- أحمد المتوكل، من البنية الحملية إلى البنية المكوِّنية: الوظيفة المفعول في اللغة العربية ص24.

12- أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ط1. الدار البيضاء: 1985، دار الثقافة ص69.

13- المرجع نفسه، ص75.

14- المرجع نفسه، ص28.

15- أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية الخطاب من الجملة إلى النص، ط1. الرباط: 2001، دار الأمان، ص118.

16- أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص30.

17- المرجع نفسه، ص31.

18- المرجع نفسه، ص31.

19- المرجع نفسه، ص115.

20- المرجع نفسه، ص132-133.

21- المرجع نفسه، ص147.

22- حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص 352.

23- أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص 146-147.

24- المرجع نفسه، ص161.

25- المرجع نفسه، ص148.

26- المرجع نفسه، ص166.

27- أحمد المتوكل، من البنية الحملية إلى البنية المكوِّنية: الوظيفة المفعول في اللغة العربية ص33.

28- ينظر: المرجع نفسه، ص34.

ملامح استراتيجية المغالطة ومستوياتها في التراث العربي.

أ. فطمة يحي

جامعة مولود معمري، تيزي–وزو

شهد حقل الدّراسات اللّغوية والتّواصلية إنجازات نظرية وتطبيقية مهمة، خاصة بالدّرس الحجاجي، والذي تتمحور غايته الأولى والأخيرة في الإقناع. ويتم من أجل ذلك اعتماد مسلك التدليل على الدعوى التي تخضع لجملة من القواعد، والّتي من شأنها أن تضمن السّير السليم للمحاورة.

ومع تزايد الاهتمام بهذا المجال، توصّل عدد من الباحثين إلى التأكيد على أن الملكة الحجاجية لن تكتمل إلا بالانفتاح على درس السفسطة، أي تلك الأحوال التي يخرج فيها الحجاج من وجهه النموذجي ليتحول إلى ممارسة باطلة منتجة لما اصطلح عليه بالمغالطة أو الحجة المعوجة. التي ينحو فيها الهدف نحوا سلبيا ومعاكسا للممارسة الحجاجية العاقلة خارقا القواعد الأساسية لهذه الفاعلية، فلا تكاد تخلو من إمكانية الوقوع في الانحرافات مادام الكثير منها يتولد من طبيعة اللغة ذاتها.[1]

إذن أصبح من الملِّح الالتفات إلى هذه الظاهرة الخطابية التي تعترض الفاعليّة الحوارية ودراستها دراسة تحليلية نقدية بهدف الوقوف على آليات اشتغالها حتى تسلم المحاورة من الوقوع في شباكها.

وعلى هذا الأساس فقد شهدت العقود الأخيرة دراسات مستفيضة حول هذه الظاهرة، ولم تعد المغالطة محصورة في تلك الطريقة غير المقبولة في الاستدلال

المنطقي، إنما كشفت هذه الدّراسات على أن المغالطة يمكنها التواجد في ميادين أخرى غير المنطق ونقصد بذلك المنطق غير الصوري.

ومن الأبحاث والنّظريات التي اشتهرت في هذا المجال كتاب "المغالطات" "لشارل هامبلن" الصادر سنة 1972 الذي أخذ كل أنواع المغالطات التي تم تصنيف منذ أرسطو كالالتباس والإيهام وغيرها والذي كان هدفه الأول اجتياز مسألة التصنيف بغية الوقوف على الآليات التي يمكن للحجة أن تظهر من خلالها صالحة دون أن تكون كذلك[2]. ثم يأتي بعده الكتاب المشترك بين "جون وودز" "دوغلاس والتون "المعنون ب" الحجج: منطق السفسطات" في عام 1982 والذي يعتبر توسيعا لمؤلف هامبلن، وجاءت مساهمتهما في الموضوع منخرطة في سنة ثقافية تعتبر أن دراسة البرالوجيسم تكتسي على وجه التأكيد أهمية منهجية أساسية في الفلسفة وخصوصا في محال الانسانيات وتعد الثقة في قدرات المحاجة باعتبارها مساعدا للحقيقة[3] وفي السياق نفسه تأتي مساهمة الباحثين الهولنديين "فان إيمرن" و"روب خروتندروست" "السفسطات من منظرو تداولي جدلي" والتي أصبحت تعد أهم مساهمة نسقية محكمة البناء تتوخى البحث في السفسطات والاستفادة من التراث الكلاسيكي القديم لهذه الظاهرة الخطابية كفعل من أفعال الكلام يرد في المحاورة النقدية[4]

لم يخلو تراثنا العربي الإسلامي من محاولات لرصد هذه الظاهرة، والوقوف على الوجوه السيّئة للحوار والتناظر، هذا ما تظهره المساهمة الفلسفية القديمة والمساهمة النقدية الأدبية.

فمن الوجهة الفلسفية برزت جهود كل من "ابن رشد" من خلال ترجمته لآثار أرسطو والتي احتوت على كتاب المغالطة، وكتاب الأمكنة المغلطة "للفارابي". والملاحظ على هذين الكتابين أنهما احتويا على الاعتبارات المنطقية الأرسطية واعتبرت المعيار الأساس في تقويم الحوار.

اتبع ابن رشد في كتاب السفسطة نفس الطريقة التي سار عليها في ترجمة الأورغانون، فكان يورد موقف أرسطو ثم يتبعه بالشرح والتفسير وتقديم الأمثلة. عرف ابن رشد المغالطة على أنها القياس الذي يلزم عنه نتيجة هي نقيض النتيجة التي وضعها المخاطب، وقد أشار إلى أن من أهم الأسباب التي تجعل المخاطب يستخدم هذا النوع من القياس هو ما يعرض للمعاني من قبل الألفاظ، فيوهم الآخر على أن ما يعرض في الألفاظ يعرض في المعاني[5] أي استغلال تعدد المعاني ومحدودية الألفاظ.

كما جاء القول في أجناس المخاطبات المختلفة في المناقشة، وجعل المخاطبة سوفسطائية إذا تشبه مستعملها بالحكماء وإذا تشبه بها بالجدليين سميت مشاغبية لأنها توهم أن مقدماتها محمودة دون أن تكون كذلك في الحقيقة[6]

بالإضافة إلى ذكره لأهم مقاصد المخاطبة السوفسطائية وحددها في خمسة مقاصد وهي: تبكيت المخاطب، إلزامه الشنعة، التشكيك، استغلاق الكلام واستحالته، سوق المخاطب إلى الهذر والتكلم بالهذيان. وأخيرا وقف على التصنيف الذي اقترحه أرسطو لأنواع المغالطات (اللفظية والمعنوية)* والحلول المقترحة لتجنب الوقوع في مثل هذا النوع من المخاطبة[7]

أما الفارابي فمن جهته فقد اهتم بالغلط والتغليط وبمختلف وجوههما التي كان الهدف منها بيان كيفية اتقائهما والتحصن منهما في حالة النظر المنفرد والمتوحد وفي حالة التناظر مع الأعيان المخالفة، ولا يميز الفارابي بين وجوه الغلط ووجوه التغليط لأنه يعد الأمكنة التي يقع فيها الغلط نفسها التي تقع فيها المغالطة، إذ يقول في هذا الأمر " فينبغي الآن أن نقول في الأمكنة التي منها يغلط الناظر في الشيء وفي الأمور التي شأنها أن تزيل الذهن عن الصواب في كل ما يطلب إدراكه ويخيّل الباطل في صورة الحق، وتلبس على الإنسان موضع الباطل فيما يقصد علمه فيقع فيه من حيث لا يشعر. وهذه الأمكنة بأعيانها هي التي يمكن أن يغالط

الإنسان من يخاطبه حتى إن كان مطالبا أو ملزما أوهم أنه طالب وتسلم من غير أن يكون طالب أو تسلم، وبه يوهم أنه ألزم أو عاند من غير أن يكون عاند في الحقيقة. وإن كان مجيبا أو محاميا أو واضعا أوهم بها أنها سلّم من غير أن يكون سلّم أو دافع من غير أن يكون دافع في الحقيقة. فإنها (الأمكنة) إذا تبيّنت لنا لم يخف علينا كيف الوجه في التحرز منها عند النظر إما فيما بينها وبين أنفسنا وإما فيما بيننا وبين غيرنا[8].

كما خاض الفارابي في الأسباب التي تمهّد لنشوء المغالطة وتمريرها على المتحاورين والسبب في رأيه راجع إلى نقص الإنسان الذي يعود إلى الجهل بالنظريتين الأرسطيتين القياسية والجدلية فيقول هذه المواضع ليست تغلط كل إنسان، وإنما تغلط من كان به نقص، والنقص بالجملة هو:

- أن لا يعرف القياس وأصنافه ولا المقدمات على الجهة التي حددنا.
- أو أن يعرفه لا بأجزاء حدّه على التمام.
- أو أن ينقصه إحدى تلك القوى الأربع (الآلات الجدلية الأربعة: آلة الاقتضاب، آلة القدرة على تمييز الاشتراك، آلة القدرة على تمييز الفضول، آلة القدرة على إدراك التشابه)
- أو أن تكون تلك القوى بأسرها ناقصة[9].

وهي نفس الغاية التي تصبو لها الدراسات المعاصرة من خلال الوقوف على الأنواع المختلفة للمغالطة من أجل إظهار الجوانب المختلفة لهذه الظاهرة حتى يتحرز المتحاورون من الوقوع فيها.

اقتصرت جهود كلاًّ من ابن رشد والفارابي في الإطار المنطقي الذي سنّه المعلم الأول، فلم تتعرض للاعتبارات غير المنطقية المسببة للمغالطة، وعليه سوف ننتقل للمساهمة النقدية الأدبيّة في تعاملها مع هذه الظاهرة.

أولى النّقاد القدامى أيما عناية بهذه الظاهرة الخطابية، وتجسدت عندهم ضمن الأساليب التي يستعملها الخطيب والشاعر لحمل المستمع على قبول رسالته، وقد تراوحت آراء النقاد بين مؤيد ومعارض لهذا الاستعمال ذلك أن مجيء الإسلام والأحكام القرآنية كانت تدعو إلى تجنب مثل هذه الأساليب في التعامل مع الغير. فانبنت الرؤية النقدية على هذا الأساس وفضلت الأكثرية الاحتجـــاج الصحيـــح فـــ "قد أجمعت العلماء وذو العقول من القدماء على تعظيم من أفصح عن حجته وبيّن عن حقه، واستنقاص من عجز عن إيضاح حجته، وقصر عن القيام لحجته"[10] ذلك أن الاحتجاج الصحيح هو الذي يكون مؤيدا للصدق وناصرا للحق أما الاحتجاج المخادع فإنه مؤيد للكذب وناصر للباطل، وقد أثرت هذه النظرة حتى على الشعر وكان لابد من توجيهه نحو الانتصار للحق" فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه"[11]

وهناك من جعل من المغالطة وسيلة لنصرة فكره ومذهبه كالمعتزلة التي "استغلت كل الطرق الممكنة والمتاحة والمشروع منها وغير المشروع لنصرة الفكر المعتزلي بالحق وبالباطل"[12] وهو الأمر الذي دفع نقاد المعتزلة للاهتمام بالبلاغة لقدرة البيان على التمويه والخداع. وهو موقف استحسنه النقاد فيما بعد إذ أصبحت البلاغة تُعرف على أنها" كشف ما غمض من الحق، وتصوير الحق في صورة الباطل"[13] فقياس بلاغة البليغ وعلو شأنه يكون ب" تحسين ما ليس بحسن، وتقبيح ما ليس بقبيح بضرب من الاحتيال والتحيُّل"[14] وهذا إن دلّ على شيء فهو يدل على أسبقية القدامى في تحرير استراتيجية المغالطة من المجال المنطقي الذي حصرها فيه أرسطو والاشتغال عليها في مجال اللّغة العادية والفنّية.

وهناك من النقاد من وازى بين المغالطة والكذب المباح، بشرط أن تكون الغاية من ورائها أخلاقية أو دينية، وهو مفهوم موازٍ للقصدية، وهي التي تُحدث الفرق

بين الغلط والتغليط، فالغلط هو الذي يكون بدون قصد أما التغليط فهو الذي يتعمد فيه المغالط إحداث مثل هذا الخرق[15]

هذا بالإضافة إلى أن المدوّنة النقدية التراثية تحمل بعضاً من أنواع المغالطات التي تمّ الكشف عنها في الدّراسات المعاصرة وإن كانت غير مصنّفة إلا أنها تحمل نفس المفهوم الذي تحتويه تلك المغالطات ونذكر منها المغالطة التي تندرج في الحجّة الشخصية والتي تتخذ وُجهة سلبيّة وفيها يعمد المتكلم إلى تحقير الخصم والتنقيص من قدراته والتشكيك في كفاءته ومصداقيته ووجهة إيجابية فيها يعمد إلى الثناء عليه والإعلاء من شأنه ومكانته وقدراته والإقرار بمصداقيته وتثبيت كفاءته وذكر محاسنه[16] وقد ذكر الجرجاني في حديثه عن الإقناع الذي لا تقبل حججه حتى يرجع إلى حال المعنى أن "هناك نوع من التخييل يعطى فيه الممدوح حظا من الفضل والسؤدد ليس له، ويبلغه بالصفة حظا من التعظيم ليس هو أهله...، لأن هذا الكذب في وصف الممدوح بالكرم لا يبين بالحجج المنطقية، والقوانين العقلية، إنما يكذب فيه القائل بالرجوع إلى حال المذكور، واختباره فيما وصف فيه"[17]

وهي نفسها التي صنفها حازم القرطاجني ضمن الاستدراجات، فيقول "إنما يصير القول الكاذب مقنعا وموهما أنه حق بتمويهات واستدراجات ترجع إلى القول أو إلى المقول له، وتلك التمويهات والاستدراجات قد توجد في كثير من الناس بالطبع والحنكة الحاصلة باعتياد المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الظنون في شيء ما أنه على غير ما هو عليه بكثرة سماع المخاطبات في ذلك التدرب في احتذائها"[18]

فالقسم الأول من المغالطات يتمثل في جملة من الحجج التي ترمي إلى الإيقاع بالمتلقي وحمله على الإذعان والحال أنها لم تستقم حججا صحيحة لذا سماها حازم بتمويهات، أما القسم الثاني فيشمل ما يثير به المتكلم متلقيه بوصفه ومدحه والتقرب إليه وسماها استدراجات.

إذن توصّلنا إلى أن المغالطة وإن كانت من المسائل المطروحة في الدّرس الحجاجي المعاصر إلاّ أنّنا نجد شذرات متفرقة في الكتب التراثية القديمة، والفرق الوحيد هو أنها لم ترد ضمن دراسة موحدّة حالها حال باقي الظواهر الخطابية الأخرى.

أما الآن فسوف ننتقل لرصد المستويات التي تتشكل ضمنها المغالطة مستشهدين بذلك بما ورد في التراث الأدبي العربي.

يعرف حافظ إسماعيلي علوي المغالطة فيقول" أنها استدلال فاسد أو غير صحيح، يبدو وكأنه صحيح، لأنه مقنع سيكولوجيا، لا منطقيا، على الرّغم مما به من غلط مقصود، وذلك لاختفاء هذا الغلط وراء الغموض اللغوي أو الإثارة العاطفية"[19] بمعنى أن هناك مغالطة لفظية وهي التي تتخذ اللّغة (القول) وسيلة لتحقيق مآربها التضليليّة ومغالطة معنوية وهي التي تستغل الجانب العاطفي للمتلقي حتى تنتصر لمكائدها.

تقوم المغالطة في المستوى الأول على الالتباس وتخليط المعاني عن طريق "غموض العبارات أو الكلمات التي صيغت فيها الاستدلالات، إما نتيجة لأخطاء نحوية، أو تعقيد التراكيب اللغوية، أو بسبب تعدد معاني بعض الكلمات التي تستخدم بأكثر من معنى في استدلال واحد، فتكون هذه المعاني التي تتغير أثناء الاستدلال غير محددة بالنسبة إلينا، وبالتالي غير واضحة، ويجعلنا هذا الغموض اللغوي لا ندرك فساد الاستدلال أو عدم تعلق النتيجة بالمقدمات ، فنقتنع بالحجة مع أنها في الحقيقة غير مقنعة"[20] يَتبنى المخاطِب كما في الحوار الذي سوف نعرضه الآن (وهي من القصص المشهورة عن سيّدنا عمر ابن الخطاب والهرمزان) مجموعة من الأفعال التغليطية لتحقيق هدفه مستغلا مضمون المعاهدة ليخرج به من حيّز الصواب إلى حيّز التغليط.

حين وصل الهرمزان إلى عمر ابن الخطاب لينظر في أمره، طلب الهرمزان كوب ماء قبل أن يباشر عمر في الحكم (القتل) فرضي عمر بذلك والتزم بفعل تعهد على أن لا يؤذيه حتى يفرغ من شرب الماء "اشرب لا بأس عليك، إني غير قاتلك حتى تشربه"[21] فرمى الهرمزان الإناء من يده، فأمر عمر بقتله، فقال: "أولم تؤمّني؟ قال: وكيف؟ قال: قلت لي لابأس عليك، فقال الزبير وأبو سعد: صدق. فقال عمر: قاتله الله أخذ أمانا ولم أشعر"[22]

معروف عن سيّدنا عمر أنه شخص عادل وتقي ورحيم برعيته، إذ يقول فيه القاسم ابن عمر" كان إسلام عمر فتحا، وهجرته نصرا، وإمارته رحمة"[23] فلا يُظلم عنده أحد، ولا يُرد أحدهم من مجلسه خائبا، وكيف إن كان هذا الطلب آخر أمنية لرجل ينتظر مصيره الموت. ما أجبر عمر أن يلتزم بفعل تعهد بعدم القتل وهو فعل صالح لفترة محددة والذي حدّد هذا الفعل هي أداة الجر "حتى" وهي بمعنى الانتهاء من حالة للدّخول في حالة أخرى؛ أي الانتقال من عدم القتل إلى القيام بفعل القتل. فمعرفة الهرمزان لحقيقة تغيُّر الأحداث التي يمكن لفعل الإنجاز أن يُحدثها جعلته يلجأ إلى سلوك المنع والمتمثل في هذه الحالة برمي إناء الماء "فالعلم بحدوث شيء ما مع الرغبة في عدم حصوله، يتم القيام بإنجاز فعل يكون من نتيجته أن ذلك الحدث لم يحصل مما كان يمكن أن يقع لو لم يتم القيام بذلك السلوك"[24]

يعلم الهرمزان أن مثل هذا التصرف لن يحول دون قتله وربما سيزيد الطين بلّة، إذ أن عمر قد كلَّف نفسه بالالتزام بعهد كان في غنى عنه، لكن أخلاقه ودينه فرضت عليه الأخذ بالرِّفق، فقد يُفهم تصرف الهرمزان بقلّة الاحترام والاستخفاف بمكانة أمير المؤمنين، وردة فعل عمر ابن الخطاب تثبت ذلك إذ أمر الحراس بقتله. ففي خضم هذه الظروف المحيطة بالفعل يمكن القول أن الهرمزان يريد استعجال الموت ولكن إذا ما أعدنا تركيب وبناء قصد مفترض وغاية مرادة نجد أن

الهرمزان يستعين بفعل مساعد لتحقيق قصد معين والذي يمكن اكتشافه من خلال ملاحظة الحال الذي ورد فيه إيقاع الفعل مفترضين أن الفاعل يقوم بهذا الفعل تبعا لخطة معينة. بالتالي كانت حيلة الهرمزان أقوى، ذلك أن الأمان الذي وعده به عمر سار لحين الفراغ من شرب الماء الذي بيده، وبما أن الماء قد سُكب ولم يتم شُربه فهذا يعني أن الأمان لازال قائما.

إن مصدر السوء في هذا التدليل يتمثل في استغلال النسبيّ والمطلق، فالدّليل الذي يكون صادقا نسبيًّا ينزل في التدّليل منزلة الدّليل الصادق صدقا مطلقا[25] فالالتزام الذي فرضه عمر على نفسه كان صالحا لفترة محددة وفي ظروف معينة لكن الهرمزان جعل صلاحية الوعد تتجاوز الزمن والمكان لتناسب ظرفا جديدا وهو أمر مخالف تماما لمقصدية عمر الذي لم يكن ينوي الإبقاء على حياة الهرمزان، ولكن حيلة هذا الأخير قد انطوت على عمر ولم يحقق مقصديته، وفي المقابل تحققت غاية الهرمزان وحال دون إنجاز فعل القتل.

يرجع السبب في انطواء الحيلة على سيّدنا عمر ابن الخطاب إلى درجة الخفاء بين المعنى المطلق والمعنى المقيد، إذ يلعب هذا العنصر دورا كبيرا في كشف التغليط" فكلما كان الخلاف أخفى كان الغلط فيه أكثر والوقوف على وجه الغلط فيه أعسر، وكلما كان أظهر كان الغلط فيه أقل والوقوف عليه أسهل"[26] تمكن الهرمزان من إخفاء الخلاف بين الأمان في المعنى المقيد والأمان في المعنى المطلق وذلك عن طريق الاستشهاد بعبارة ابن الخطاب 'لابأس عليك' والتركيز عليها دون الأخذ ببقية الكلام الوارد بعد هذه العبارة، وهي كافية لتجعل الهرمزان يأخذ أمانا على حياته دون أن يشعر عمر ابن الخطاب بذلك.

وقفنا في هذا المثال على حالة واحدة من مجموعة من الحالات التي يمكن للمغالطة أن تظهر من خلالها، نفس الشيء بالنسبة للمستوى الثاني فمهما حاولنا أن نحصر المغالطة إلا أنها تجد في كل مرة فجوة لتتسلل منها. بالرّغم من هذا الأمر

إلا أننا سوف نخوض في تحليل إحدى النماذج الكثيرة التي من خلالها سوف نقف على المستوى الثاني لتشكل المغالطة، وهو مستوى المتلقي وعواطفه.

من بين الأساليب التي ذكرت سابقا والتي يتكئ عليها المخاطب لتمرير مغالطته، أسلوب التهديد والمصطلح عليها بحجة القوة؛ أين يسعى فيه صاحبه إلى حمل المخاطِب على سلوك معين أو على عمل معين سعيا يستند إلى التهديد، يستمد منه الحجة وعلى أساسه يسأل الإقتناع الذي يتخذ في نهاية الأمر شكل الاستسلام[27] تولي هذه الحجة اهتمامها وتركيزها على تغيير سلوك المخاطب أو الخصم وتكييفه وفق الوجهة المناسبة للمتكلم، دون أن تولي عناية لما يفكر فيه المخاطَب أو ما يعتقده أو ما يؤمن به، أو ما إذا اقتنع أم لا. فهذه الحجة تحمل في صميمها فكرة القوة تصنع الحق، وهي مغالطة لأن التهديد يعمل على مستوى دافعي مغاير لمستوى القناعة الفكرية[28]

يمكن فرض القوّة على تغيير السلوك ولكن لا يمكن فرض الرأي العقلي بالقوّة و إن حدث الانصياع فهذا لا يعني حدوث الاقتناع. وتتخذ هذه المغالطة المسار التالي:

افعل كذا وإلا ضربتك أو لا تفعل كذا وإلا ضربتك

زخرت ميادين الحكم والسياسة بأنماط متعددة من وسائل الاحتيال وفرض القرارات، وهي ميزة توارثتها عبر العصور حتى أصبحت الجوهر الذي لا يمكن الاستغناء عنه، فلا يختلف الحكام في القديم عما هم عليه الآن، إذ تمحورت أولى اهتماماتهم بجعل الرعيّة تستسلم وتنصاع للأوامر والقرارات دون أن تتيح لهم فرصة المشاركة وإبداء الرأي، فقناعة الآخر كانت آخر هم يفكر فيه السياسي بما أن مكانته تتيح له أساليب سهلة تعود عليه بنتائج جيدة، فكانت المحاجة عند هذا الرجل تضييعا للوقت وإهدارا للجهد فاحتلت مكانها القوّة والعنف والإكراه. وما معاوية ابن أبي سفيان إلا واحدا من بين الكثيرين الذين انتهجوا هذا الأسلوب في

التعامل مع رعاياهم، ويظهر هذا من خلال الرسائل الكثيرة التي كان يبعثها مهددا من خلالها متلقيها بقبول البيّعة ليزيد وتوليه الخلافة من بعده.

جاء في رسالته التي كتبها لمروان ابن الحكم حاكمه في المدينة أن يدعو القوم لمبايعة يزيد بحكم تحقق البيّعة في الشام والعراق، ولكن الناس قد أنكروا بيعة يزيد وعلى رأسهم 'عبد الرحمن ابن أبي بكر' و'الحسين ابن علي' و'عبد الرحمن ابن الزبير' و'عبد الله بن عمر' فقرر معاوية القدوم إلى المدينة واللّقاء بهم. فوكلت الجماعة 'ابن الزبير' متحدثا عنهم، ثم أتوا معاوية، فرحب بهم وقال: "قد علمتم نظري لكم، وتعطفي عليكم، وصلتي أرحامكم، ويزيد أخوكم وابن عمكم، وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تأمرون وتنهون، فسكتوا، وتكلم ابن الزبير، فقال: نخيرك بين إحدى ثلاث، أيها أخذت فهي لك رغبة وفيها خيار: إن شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله (ص)، قبضه الله ولم يستخلف (أحدا، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبابكر)؛ فدع هذا الأمر حتى يختار الناس بأنفسهم؛ وإن شئت فما صنع أبو بكر، إلى رجل من قاصية قريش وترك من ولده ومن رهطه الأدنين، من كان لها أصلا؛ وإن شئت فما صنع عمر صيّرها إلى ستة نفر من قريش يختارون رجلا منهم، وترك ولده وأهل بيته، وفيهم من وليها لكان لها أصلا.

قال معاوية: هل غير هذا؟

قال: لا.

ثم قال للآخرين: ما عندكم؟

قالوا: نحن على ما قال ابن الزبير[29]

اختار معاوية محاججة الأطراف أولا من خلال تبرير الأسباب التي دفعته لاتخاذ القرار، وفي نفس الوقت هو تبرير محمّل بمجموعة من العروض التي سوف يستفيد منها الأطراف إذا ما قبلوا البيّعة. والسبب في ذلك راجع للمكانة

الاجتماعية التي يتمتع بها هؤلاء الأشخاص، فإلى جانب قدرتهم على التأثير في القوم، هم أبناء كبار الصحابة فإيمان القوم بهم سبب قويّ في إتباع خُطاهم. يمكن تمثيل الحجج التي عرضها معاوية على هذا الشكل:

مقدمة (مضمرة) ← لا فرق بين يزيد و أبناء الصحابة الآخرين

التدعيم ←
- صلة الرحم التي تربطهم
- قرابة الأخوة
- قرابة العمومة
- يزيد يمثل صورة الحاكم فقط

النتيجة ← المبايعة

يمكن تلمس وجه التضليل والحيلة في الدعائم التي قدمها معاوية، وذلك في احتجاجه بالقرابة التي تجمع بين يزيد والشخصيات المشاركة في الحوار حتى يؤثر فيهم، فتسلم يزيد للحكم أو عبد الله أو غيره أمر واحد وتفضي بنتيجة واحدة هي أن الكل سيكون طرفا في الحكم. هذا بالإضافة إلى احتمال آخر يمكن أن يكون واردا في ذهن معاوية وهو يحتج بالقرابة؛ إثارة الطمع في نفوس هؤلاء من خلال الوعد الذي قطعه عليهم بتمسك زمام الحكم، فإن صحَّ الوعد هذا يعني أن الرأي الأول والأخير سيكون راجعا لهؤلاء الأطراف.

والغريب أن الجماعة دخلوا في حالة صمت، وهي ردة فعل اشترك فيها جميع الأطراف، ويمكن أن تعبر عن معنيين هما: نجاح معاوية في التأثير على الأطراف المشاركة في الحوار، وتمكن الطمع من التسلل إلى نفوس هؤلاء الشباب، فإن تحقق الأمر فسيكونون الأصل وما يزيد إلا صورة للحكم. والاحتمال الثاني وهو الغالب في تفسير فعل الصمت، وهو أن الجماعة استغربت من العرض الذي قدَّمه معاوية لمعرفتهم بالنَّوايا الحقيقيَّة التي أجبرته على مثل هذا الفعل، ذلك أن

المعروف عن الرجل أنه كان يروض الناس لهذه البيعة سبع سنين، فالواقع يشير على غير ما صرّح به.

قوبل عرض معاوية بالرَّفض من قبل الجماعة ما دفعه إلى تغيير أسلوب التعامل، وقبل أن ينتقل معاوية إلى فرض رأيه بالقوة كان يلِّح في السؤال ' هل غير هذا' 'ما عندكم' وكأنه كان يدفع الأطراف إلى الخضوع لإرادته بطريقة تجنبه استخدام القوّة بمنحهم فرصة أخرى للتراجع لكن الشباب تمسكوا بموقفهم ما جعل معاوية يتحول من عارض إلى معترض مستخدما حجة أكثر فاعلية من الحجة الأولى وهي التهديد والإكراه لترسيخ رأيه وإرغام الطرف الآخر على الإذعان فقال معاوية: "إني أتقدم إليكم وقد أعذر من أنذر إني قائل مقالة، فأقسم بالله لئن رد علي رجل منكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمته حتى يضرب رأسه، فلا ينظر امرؤٌ منكم إلا في نفسه، ولا يُبقي إلا عليها"[30]

يمكن أن نعرض هذه المغالطة على النحو التالي:

س ٧ ع ، ليس س إذن ع

بحيث: القضية س: البيعة ليزيد.

القضية ع: القتل هو الجزاء في حالة عدم المبايعة

يظهر جبروت معاوية من خلال التصريح بالقتل، وهو حق منحته له السلطة التي يتمتع بها وهي ظاهرة منتشرة في الأوساط السياسية وبين الحكام السياسيين إذ يقومون في بعض الأحيان بالعنف والإكراه مستغلين السلطة الممنوحة لهم لتمرير قراراتهم، مع إجبار الآخر على الامتثال لأوامرهم قهرا وكرها.

تعد استراتيجية المغالطة من أهم المظاهر الخطابية التي يجب أن تولى لها العناية من خلال دراستها وتحليلها، والكشف عن المزيد من آلياتها وتقنياتها، لما لها من قدرة وتأثير على الفاعلية الحوارية. ولا نتصور أنها محصورة فقط في الكتب التراثية، لأن العصر الحالي يشهد موجة عظيمة ومتنوعة من المغالطات

فالتكنولوجيا الحديثة وتطور وسائل الإعلام، بالإضافة إلى عوامل أخرى قد غذّت هذه الاستراتيجية وجعلت منها الحليف الذي يلجأ إليه المتكلم كلما خانته قدراته على صياغة الحجة السليمة.

الهوامش:

---

(1) رشيد الراضي، الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، دار الكتب الجديدة المتحدة، ط1، 2010، ص16.

(2) فيليب بروتون وجيل جوتييه، تاريخ نظريات الحجاج، تر: محمد صالح ناحي الغامدي جامعة الملك عبد العزيز، ط1، جدة، 2011، ص 74.

(3) محمد النويري، الأساليب المغالطيّة مدخلا في نقد الحجاج، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، من أرسطو إلى اليوم، منوبة، تونس، مجلد XXXIX، 1998 ص 404.

(4) رشيد الراضي، السفسطات في المنطقيات المعاصرة، التوجه التداولي الجدلي نموذجا، عالم الفكر، الكويت، مجلد 36، ع4، أفريل 2008، ص223.

(5) محمد بن أحمد بن محمد ابن رشد، كتاب السفسطة ضمن كتاب تلخيص منطق أرسطو، تح: جيرار جهامي، بيروت، المجلد 2، 1986، ص 669.

(6) المرجع نفسه،ص 272.

(7) المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(8) حمو النقاري، من منطق مدرسة بورويال: في سوء النظر والتناظر ووجوه الغلط و التغليط فيهم، ضمن كتاب التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2006، ص 192.

(9) المرجع نفسه، ص 193.

(10) ناصر بن دخيل الله فالح السعيدي، الاحتجاج العقلي والمعنى البلاغي، رسالة دكتوراه في البلاغة والنقد، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1425-1426ه، ص 260.

(11) ابن رشيق القيرواني، العمدة، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ج1 ط5، 1951، ص27، نقلا عن ناصر بن دخيل الله فالح السعيدي، الاحتجاج العقلي والمعنى البلاغي، رسالة دكتوراه في البلاغة والنقد، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية 1425-1426ه، ص 261.

(12) حمو النقاري، من منطق مدرسة بورويال، ص252.

(13) أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح: علي محمد البيجاوي –محمد أبي الفضل إبراهيم المكتبة العصرية، بيروت، 1986، ص 53.

(14) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(15) حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، إفريقيا الشرق، المغرب، 2004، ص

(16) حسان الباهي، تهافت الاستدلال في الحجاج المغالط، عالم الفكر، الكويت، مجلد 36، ع4 أفريل 2008، ص 259.

(17) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: محمود شاكر، دار المدني، جدة، ط1، 1991 ص 270.

(18) : حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بلخوخة، دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت، 1986، ص 63.

(19) حافظ إسماعيلي علوي ومحمد أسيداه، اللسانيات والحجاج: الحجاج المغالط، عالم الفكر الكويت، مجلد 36، ع4، أفريل 2008، ص 272.

(20) محمد أحمد مصطفى السيرياقوسي، التعريف بالمنطق الصوري، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1980، ص 379، نقلا عن حافظ إسماعيلي علوي ومحمد أسيداه اللسانيات والحجاج: الحجاج المغالط، عالم الفكر، الكويت، مجلد 36، ع4، أفريل 2008 ص 277.

(21) : إبراهيم شمس الدين، قصص العرب، الباب السابع، دار الكتب العلمية، ط1، 2002 ص471.

(22) المرجع نفسهن الصفحة نفسها.

(23) أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق: عبد المجيد الرّحُيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج5، ط1، 1983، ص1504.

(24) فان دايك، النص والسياق، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، لبنان، 2000، ص 245.

(25) حمو النقاري، من منطق مدرسة بورويال، ص 172.

(26) ابن رشد، كتاب السفسطة، 676.

(27) محمد النويري، الأساليب المغالطة مدخلا في نقد الحجاج، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، من أرسطو إلى اليوم، منوبة، تونس، مجلد XXXIX، 1998، ص 426.

(28) عادل مصطفى، المغالطات المنطقية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2007 ص112.

(29) : أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق: عبد المجيد الرّحُيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج5، ط1، 1983، ص 120.

(30) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

قضايا تداولية معاصرة في التراث العربي

البيان والتبيين نموذجا

أ. خالدي حفيظة

جامعة مولود معمري، تيزي–وزو

إن ما يشغل بال النقاد والدارسين في الآونة الأخيرة، موضوع تحليل الخطاب بعد أن تم الانتقال من الإطار الضيق في التحليل متمثلا في الجملة، إلى إطار أوسع تحدى الجملة إلى الخطاب مع باحثين متعددين، وعلى رأسهم الأمريكي "هاريس" الذي وسع نطاق التحليل من الجملة إلى النص، ونتيجة لذلك تعددت المناهج والنظريات في تحليلها للنظام اللغوي، وتعددت معها الرؤى والآليات تبعا للخلفيات المعرفية والابستمولوجية التي انبثقت عنها، غير أن الاشتراك كان في الهدف والغاية، وهو تحليل الخطاب والوصول إلى معناه.

لقد كانت مناهج ونظريات دراسة النظام اللغوي غربية المنشأ، سواء ما تعلق منها بالنظريات التي اكتفت بدراسة النص دراسة شكلية محايثة، مستبعدة بذلك السياق الخارجي بمفهومه الواسع، ودوره في تحصيل المعنى من مثل البنيوية، أو ما تعلق بالنظريات التي لم تقتصر على ما يقوله ظاهر النص إلى ملابساته الخارجية من مثل التداولية. وما كان على الناقد العربي إلا التعامل معها، ومحاولة استغلالها بما يتلائم وطبيعة النص العربي المدروس، غير أن الدارسين وبعد اطلاعهم على أفكار هذه المناهج لاحظوا أن هناك تضايفا أو شبها بين ما ذكر عند

الغرب وبين تلك النظرات والتطبيقات الثاقبة التي وردت عند علماء العربية – على تعدد اتجاهاتهم– باعتبارهم الأسبق زمانا بحيث أشاروا إلى مختلف التنظيرات والأفكار، حتى وإن لم تأخذ طابع النظرية المتكاملة المعالم ذات اسم واضح، ولعل ذلك راجع إلى عدم اهتمامهم بذلك، إذ كان همهم الاجتهاد والبحث المعرفي على حساب التنظير.

لقد تم التركيز في مداخلتنا على المنهج التداولي، إذ كانت الأبحاث التداولية تثير اهتمام كثير من الباحثين في مختلف المجالات بما تطرحه من إمكانات لحل مشكلاتهم العالقة، نظرا لانفتاحها ونهلها من مختلف المعارف الإنسانية: من علم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم الاتصال، والذكاء الاصطناعي، لأجل ذلك حاولنا العودة إلى التراث العربي، محاولين استنباط بعض نقاط الالتقاء والتشابه بين الأفكار والآليات التي وردت عند مؤسسي هذا الاتجاه في الغرب، وبين تلك التي تعرض لها العلماء القدامى في مؤلفاتهم، تذكارا منا بجهود أسلاف لا يحل نسيانها وبعثها بحلة حضارية جديدة يكون لهم فضل السبق.

نظرا لكثرة وتنوع المؤلفات في التراث العربي القديم، والتي لا يمكن الإحاطة بها كلها، سنركز على مؤلف (البيان والتبيين) للجاحظ (159ه– 255ه)، ومع الجاحظ ومؤلفه سنمعن في التراث العربي الغني، ونرسي بالضبط في القرن 3ه لنحاول الكشف عن بعض القضايا التداولية التي أنبأ بها الجاحظ في مؤلفه قديما.

يدرس المذهب التداولي علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، من هنا يشترط الاستعمال والتلفظ حتى يوصل المتكلم قصده للسامع ويؤثر فيه، وهو الأمر الذي أشار إليه الجاحظ يقول:"... المعاني القائمة في صدور الناس والمتصورة في أذهانهم، والمختلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم

مستورة خفية، وبعيدة وحسية ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما يحي تلك المعاني ذكرهم لها وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها..."[1].

تظهر معالم المقاربة التداولية جلية في هذا النص، من خلال تأكيد الجاحظ على استعمال اللغة وتداولها، إذ كانت المعاني (متصورة في ذهن المتكلم، متصلة بخاطره، معبرة عن فكره...)، ما يعني أن إطلاع المتلقي عليها يكون أمرا صعبا أو مستحيلا، إذا لم يصرح به المتكلم وينطق به، وفي سرده لصفات المعاني تأكيد لما ذهب إليه (جون سورل John R. Searl) عندما أكد على سمة القصدية التي هي حالة ذهنية، تطبع الفعل الكلامي فهي: "المصطلح العام لجميع الأشكال المختلفة التي يمكن أن يتوجه بها العقل، أو يتعلق نحو الأشياء أو الحالات الفعلية في العالم"[2].

وإذا ما حاولنا الربط بين تأكيد الجاحظ على فكرة ضرورة استعمال المتكلم للغة، قصد إيصال ما في ذهنه من مقاصد ومعان، وبين ما يماثل ذلك في اللسانيات الحديثة، يكون لزاما علينا الوقوف أمام ما أشار إليه (جان سيرفوني)، عند حديثه عن الإشكالية الملفوظية وشروط إنتاجها، إذ تطرق إلى ثلاثة شروط[3]:

1. الجملة خارج سياقها
2. شروط الحقيقة
3. المكون الملفوظي

إن ما يهمنا في هذه الشروط، هو المكون الملفوظي، إذ بعدما بيّن في الشرط الأول حتى تكون الجملة مبنية بشكل جيد، عدم الاكتفاء بضم كلمات تنتمي إلى

اللغة، ومشكلة وفقا لقواعد علم التركيب، إنما يجب بالإضافة إلى ذلك أن تكون بينهما درجة معينة من الدلالية، في حين بين في الشرط الثاني – والذي مهد به إلى الشرط الثالث– شروط حقيقة الجملة، ومن خلال ذلك يتضح المستعملين (متحدثين ومخاطبين)، الذين تصبح الجملة ملفوظا بوساطتهم.

من هنا يتضح لنا أن الجاحظ قد ركز على فعل التلفظ، الذي يقوم به المتكلم في حيز زماني ومكاني، يبغي من وراء ذلك إخراج النص من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، وهذا ما تعول عليه التداولية الحديثة؛ فهو الأساس الذي بنى عليه (أوستين) نظرية الأفعال اللغوية ومن بعده (سورل)، بوصفه ممارسة المرسل لينجز فعلا لغويا يتلاءم مع السياق:"... ونكتفي بالتأكيد هنا بأن النطق بالألفاظ يشكل في العادة أمرا مهما، بل الحدث الرئيسي في إنجاز الفعل(كالرهان أو ما شئت) وهذا هو القصد من الإنشاء في كل تلفظ"[4]. وإذا ما عدنا إلى النتيجة التي توصل إليها (أوستين) –بعد فشله في التوصل إلى معيار فاصل بين العبارات الوصفية والإنشائية– عندما أشار بأن: "كل جملة بمجرد التلفظ بها على نحو جاد توافق على الأقل إنجاز عمل قولي وعمل متضمن في القول، وتوافق أحيانا كذلك القيام بعمل تأثير بالقول"[5]. يتضح أن التلفظ يعادل عمل (فعل) القول، الذي ينتج عن مجرد النطق بمجموعة من الأصوات مترابطة من الناحية الصرفية والنحوية. على أن ما نعنيه بالتلفظ ليس مجرد النطق الصوتي، إنما التلفظ بوصفه فعلا في السياق. ونتيجة لذلك: "يمتلك الملفوظ قيمة متضمنة في القول "يظهرها" من خلال تلفظه"[6]. فإذن التلفظ أو فعل القول يفضي إلى عمل متضمن في القول، والذي يؤدي في الغالب إلى عمل تأثير بالقول، وهذا يكون سببا في التغيير والإنجاز وهو الهدف من نظرية أفعال الكلام.

من هنا يكون التلفظ النشاط الرئيس الذي يمنح استعمال اللغة طابعها التداولي.

ولعل ما يعزز ما ذهب إليه أبو عثمان، فيما يخص إصراره على التلفظ وضرورة استعمال اللغة لإيصال ما يدور في ذهن المتكلم، تفضيله للكلام على الصمت، وذلك في معرض مناقشته لثنائية الصمت والكلام، بالرغم من إثباته بعض محاسن الصمت يقول: "وكيف يكون الصمت أنفع والإيثار له أفضل، ونفعه لا يكاد يجاوز رأس صاحبه، ونفع الكلام يعم ويخص، والرواة لم ترو سكوت الصامتين كما روت كلام الناطقين، وبالكلام أرسل الله أنبياءه لا بالصمت، ومواضع الصمت المحمودة قليلة، ومواضع الكلام المحمودة كثيرة، وطول الصمت يفسد اللسان"[7].

فإذن ينتصر الجاحظ إلى الكلام ويفضله على الصمت، محاولا بذلك محاججة الذين قالوا بعكس ذلك، من خلال التركيز على منافع الكلام الكثيرة، وليس أدل على ذلك حال الرسل والأنبياء، ودور الكلام في إبلاغ رسالاتهم وإقناع أقوامهم، وهذا لا يعني –بالمقابل– أن الجاحظ قد بخس الصمت دوره، إذ بين مواضعه المحمودة من مثل: أنه دواء لداء الثرثرة الفارغة، كما يعتبر وسيلة من خلالها يتمكن صاحبه من إخفاء عيوبه، وهو بالإضافة إلى ذلك سلاح المرء وعبادة، يعلم الحكمة والصبر وبصفة عامة اعتبر الجاحظ الصمت في موضعه بلاغة، وهو صفة حميدة يتمتع بها صاحب العقل الراجح، ومع هذه المواضع المحمودة للصمت إلا أن الجاحظ ينتصر للكلام واستعمال اللغة، نظرا لما يوفره من منافع، لعل من أهمها في نظر الجاحظ الإخبار عن المعاني ومقاصد المتكلمين، وذلك بغرض الفهم والإفهام.

تهتم التداولية بالتواصل في الدرجة الأولى، والإقناع، والتأثير في المتلقي وتقديم الفائدة، ومنه فإن غايتها منفعية بحتة، وهو الأمر الذي أشار إليه الجاحظ بعد إصراره على فكرة التلفظ، التي تؤدي إلى الفهم والإفهام، وهما محور

التخاطب في عمومه:"... وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجليها للعقل وتجعل الخفي منها ظاهرا، والغائب شاهدا، والبعيد قريبا، وهي التي تلخص الملتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مقيدا، والمقيد مطلقا، والمجهول معروفا والوحشي مألوفا، والغفل موسوما، والموسوم معلوما، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، كانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجح"[8]. فالملاحظ أن الجاحظ يصر ويلح على الغاية من استعمال اللغة التي هي نفعية بحتة؛ إذ يركز على ضرورة إفهام المتلقي، وإبلاغه محتوى الرسالة الأدبية، ما يعني أنه حاضر في ذهنه، من خلال استجلاء المعاني له، وتقريبها له، وفك الغامض منها...، وهذا كله اعتبره الجاحظ من مهام البيان: "... والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى (...) حتى يفضي السامع إلى حقيقته (...) لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام..."[9]. فما يهم الجاحظ هو الغاية من الخطاب (الفهم والإفهام) بغض النظر عن وسيلة المتكلم في ذلك. وهذا الاهتمام بالمتلقي والحرص على التأثير فيه، جعله يراعي استعداد المتلقي لسماع الخطاب من عدمه، والغرض من ذلك دائما تحقيق الهدف الرئيس وهو الفهم والإفهام محاولا بذلك الاحتجاج بآراء مشهورة[10]:

يقول مطرف بن عبد الله: "لا تقبل بحديثك على من لا يقبل عليه بوجهه".

يقول عبد الله بن مسعود: "حدث الناس ما حدجوك بأبصارهم وأذنوا لك بأسماعهم (ولحظوك بأبصارهم)، وإذا رأيت منهم فترة فأمسك".

يقول بعض الحكماء: "من لم ينشط لحديثك فارفع عنه مؤونة الاستماع منك".

الملاحظ من خلال الشواهد حرص الجاحظ على تحقيق الهدف من الخطاب المتمثل في الفهم والإفهام، ولا عجب أن يكون الاهتمام بمتلقي الخطاب من الأمور

التي تضمن له ذلك، إذ كان قطبا هاما من أقطاب العملية التواصلية، ومراعاة الوقت المناسب الذي يكون فيه مهيئا لفهم ما يقال، من جملة هذا الاهتمام، ما يعني أن المتكلم يضمن نفاذ ما يقوله إلى المتلقي، فيحصل الفهم والإفهام.

هذا، وينتقل الجاحظ إلى البلاغة، ويختار من تعريفاتها ما يتوافق ومذهبه (الغاية من البيان)، إذ استحسن تعريفا للإمام إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الذي يقول: "يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع"[11]. ولعل السبب في استحسان الجاحظ لتعريف الإمام تضمنه لفكرة المنفعة؛ بحيث يجعل الإمام البلاغة في حسن الفهم والإفهام، فيطلب من المتكلم والمتلقي الاشتراك في تحقيق الهدف على حد سواء، أما المتكلم فيحرص على ألا يكون تكلفه وتعقيده سببا في سوء إفهام السامع وأما السامع فيرجى منه أن يكون فطنا، ولا يضطر المتكلم –نتيجة سوء فهم السامع– إلى إجهاد نفسه في تفهيمه، كأن يلجأ إلى معان دون المستعملة.

واهتمام الجاحظ بالمنفعة، جعله لا يولي بالا لطريقة إخراج المعاني، أو تخير الألفاظ، أو التبسيط فيها أو حتى رفعها إلى مستوى الخاصة، إنما ما يهمه هو المنفعة: "... والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال..."[12]. فإذن الشرف والجمال مرتبط بأمور ثلاثة: الصواب، والمنفعة، وعلاقة المعنى بمقتضى الحال؛ أما المنفعة فتتمثل –كما رأينا– في الفهم والإفهام، وأما الصواب، فقصد به تجنب الخطأ في تقديم المعنى، في حين يذكرنا الشرط الثالث في التداولية المعاصرة بإحدى القواعد التي قال بها "بول جرايس" Grice سنة 1975، وهي قاعدة

(العلاقة)، وذلك عند حديثه عن قانون من قوانين الخطاب ألا وهو "مبدأ التعاون" principe de coopération، والذي يعد ركيزة أساسية من الركائز التي تقوم عليها التداولية والعمود الفقري للمحادثة وصيغته هي: ليكن انتهاضك للتخاطب على الوجه الذي يقتضيه الغرض منه (أي يجب أن يتعاون المتكلم والمخاطب على تحقيق الهدف المرسوم من الحديث الذي دخلا فيه)، ومن قواعده:[13]

العلاقة (Relation): ويرتبط بعلاقة الخبر بمقتضى الحال، ويحتوي على القاعدة التالية:

1. ليناسب مقالك مقامك.

من هنا يظهر جليا التشابه بين ما ذهب إليه الجاحظ، فيما يخص وجوب مراعاة المتكلم لمقتضى الحال، ما يعني أنه يختار من المقال ما يتناسب والمقام، وبين ما أكد عليه (جرايس) في قاعدة العلاقة، التي أثبتها في (مبدأ التعاون).

إن إشارة الجاحظ إلى فكرة مراعاة المتكلم لمقتضى الحال، هو بمثابة تمهيد لما أشار إليه فيما يتعلق بفكرة السياق، وهنا تجدر الإشارة إلى أهمية السياق في الدراسات التداولية الحديثة، ذلك أن طبيعة المنهج التداولي هو نقل الدرس اللساني من طابع الوصف الذي اتسمت به معظم التيارات البنيوية إلى طابع التحليل الوظيفي المبني على المعاينة الخارجية من خلال الآثار المترتبة عن الأقوال، أي يحاول أن يبحث فيما يمكن أن ينجز بالكلام في ظل توافر شروط سياقية معينة وبلغة أخرى ربط ما ينجز لغة بعناصر السياق الذي تم فيه إنجاز ذلك الإنجاز، من مثل: مقاصد المتكلم، معتقداته، وكذا الوقائع الخارجية من مثل: زمن القول ومكانه، والعلاقة بين طرفي الخطاب، وهي كلها عناصر تحدد الدلالة عند المتلقي ليعتمد عليها في تأويل الخطابات.

من هنا كان السياق أساسا من أسسها المكينة، إذ يجب مراعاته في إنتاج الفعل الكلامي وتأويله، ذلك أن مقاصد المتكلمين لا تظهر في أحايين كثيرة على مستوى القول، ما يعني أن ضبطها يكون بالاستناد إلى عوامل أخرى كالسياق، من هنا غدت دراسته محل اهتمام القضايا التداولية جميعا، لأن تحليل الأقوال يخضع إلى السياق، وبالتالي فاهتمام الدرس التداولي كله ينصب في مدى ارتباط النص بالسياق. ولعل هذا ما كان يقصده الجاحظ عندما قال: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[14].

يبدأ قول الجاحظ بعبارة (ينبغي)، التي تدل على وجوب أخذ مسألة السياق بعين الاعتبار، ولو أن الجاحظ لم يذكر ذلك بصريح اللفظ، فقوله (أقدار المعاني) معناه أنه يجب على المتكلم أن يكون على اطلاع بمختلف المعاني: اللغوية (فيعرف بناء المعنى تبعا لمستوياته المختلفة: النحوي، والتركيبي، والدلالي)، وهو ما اصطلح عليه بالكفاءة اللغوية، غير أن اللفظ ليس هو الوحيد المسؤول عن حدوث المعنى ما يعني أن: "الوحدات الكلامية للغة ليست مجرد سلسلة أو خيوطا من صنع الكلمات، فهناك مكون لا كلامي يفرض دائما بالضرورة فوق المكون الكلامي في كل وحدة كلامية محكية"[15]. وهنا نكون أمام المعاني الاجتماعية والدينية (فيعرف ما تواضع المجتمع عليه بشأن الألفاظ ومعانيها)، لإدراكه أن: "اللغة كائن اجتماعي يتأثر بالمتغيرات النفسية والاجتماعية للأفراد والجماعات"[16].

بعد معرفة المتكلم لمختلف هذه المعاني، يأتي الدور على المستمعين، فيأخذ في الحسبان مكانة المتلقي، ثقافته، مستواه الاجتماعي، ويوازن بين هذا كله وبين المعاني التي يخاطبهم بها؛ فمخاطبة الأمير تختلف عن مخاطبة الإنسان العادي ومخاطبة العالم تختلف عن مخاطبة الجاهل... وهكذا كل حسب قدره، هذا بالإضافة إلى مراعاة مناسبات القول، فقد يكون الخطاب واحدا والمناسبة تختلف فتختلف تبعا لذلك المعاني وتأويلها، فمقام التعزية يباين مقام الفرح، ومقام المدح يباين مقام الذم... وهكذا تختلف الحالات والمقامات، وما يكون على المتكلم –حتى يحقق الهدف من الخطاب– أن يراعي كل هذا؛ فيوجه الكلام تبعا لطبقات المخاطَبين، ويجعل لكل مقام مقالا، ولعل هذا ما ذهب إليه العسكري بقوله: "وإذا كان موضوع الكلام على الإفهام فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام وتعدم منفعة الخطاب"[17]. وهذا كله أكده (أوستين): "... إنه من الضروري ودائما أن تكون المناسبات التي حصل فيها التلفظ بالعبارة هي ظروفا مناسبة مخصوصة على وجه ما أو على وجوه كثيرة"[18].

إن المتتبع لما أورده الجاحظ يظهر له جليا التشابه بين ما قيل وبين وجهة نظر الدراسات التداولية فيما يتعلق بالسياق، بحيث أولت له عناية بمفهومه الواسع؛ من متكلم، ومخاطب، والعلاقة بينهما، والمعارف المشتركة بينهما، التي يعود جزء كبير منها إلى التواضع بين أفراد المجتمع، بالإضافة إلى زمن القول ومكانه وتأثير كل ذلك على إنشاء الفعل اللغوي وتأويله.

تولي التداولية أهمية كبرى لأقطاب العملية التواصلية اللسانية، فبالإضافة إلى الاهتمام بالمتلقي حاولت التداولية لفت الانتباه إلى المتكلم أو المرسل، باعتباره من

يتلفظ بالخطاب قصد التعبير عن مقاصد معينة، ضف إلى ذلك أن اللغة الطبيعية بدونه (المتكلم): "لا يمكن أن تتجسد، وتمارس دورها الحقيقي، فتصبح موجودا بالفعل بعد أن كان وجودها بالقوة، ليس هذا فحسب، بل يكون وجودها ذو فعل مناسب للسياق..."[19]. ليكون بذلك عنصرا مهما في عملية التواصل، الأمر نفسه الذي ذهب إليه الجاحظ بحيث احتل المتكلم في نظريته البلاغية مكانا هاما، لا يقل عن المكانة التي حظي بها في الدراسات التداولية ولعل ما يوضح ذلك، تركيزه على الصفات التي يجب أن تتوفر في صاحب البيان، حتى يحقق الهدف الأساسي وهو الفهم والإفهام، وذلك في معرض حديثه عن المعتزلي (واصل بن عطاء) الذي كان ألثغا، فاحش اللثغ، خاصة وأنه كان رئيس نحلة، وعليه الاحتجاج لرأيه على باقي أرباب النحل وزعماء الملل، يقول: "... وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج، وجهارة المنطق، وتكميل الحروف..."[20]. فالملاحظ أن الجاحظ يركز على فن الخطبة، من صوت جهور، ومخرج سهل، وإتقان للصنعة، وتمام للآلة... غير أن ما يمكن الوقوف عنده من الصفات، التي يجب أن تراع في أي خطاب بغض النظر عن صنفه، هو تمام الآلة الذي يقصد بها سلامة آلة النطق من العيب معددا بعض العيوب التي يمكن أن تلحق به: من لثغة، وحبسة، ولكنة، وحُكلة... غير أنه ركز أكثر على اللثغة، التي رأى أنها تمنع المرء من الفصاحة وتدخله في العي والحصر، وتلوي لسانه، وتعدمه البيان، محاولا إعطاء أمثلة عن الحروف التي يمكن أن تعرض لها[21]:

1- اللثغة التي تعرض للسين تكون ثاء مثل: (بثم الله) بدل (بسم الله).

2- اللثغة التي تعرض للقاف تكون طاء مثل: (طلت له) بدل (قلت له).

3- اللثغة التي تعرض للام تكون ياء مثل: (حمي) بدل (حمل).

4- اللثغة التي تعرض للراء تكون أربعة أحرف:

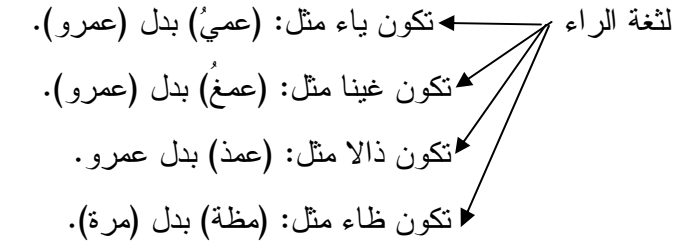

إن ما أراد الجاحظ أن يبينه من خلال تأكيده على تمام آلة النطق هو ضمان تحقيق الفهم والإفهام، وإقناع المتلقي، الذي يؤدي إلى التأثير فيه.

لقد عد الجاحظ أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة: لفظ وإشارة، وعقد، وخط، ثم حال (نصبة)، أما اللفظ فقصد به البيان الذي يكون عن طريق التواصل اللساني، في حين يختلف الأمر إذا تعلق بالبيان بالإشارة، إذ لا وجود لتواصل لساني، لأن ذلك من مهمة الجوارح: "... والإشارة واللفظ شريكان ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ (...) وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير، ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس، ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص"[22]. فإذا يركز الجاحظ على دور الإشارة في التواصل بين الناس؛ إذ كانت نعم العون للفظ في إيصال المراد، هذا بالإضافة إلى دورها في ستر ما لا يجرؤ المتخاطبون على الإفصاح عنه لأسباب تبقى مرتبطة بالسياق. ويعطي الجاحظ مثالا عن ذلك بقول شاعر:

أَشَارَت بِطَرفِ العَينِ خيفَةَ أَهلِها إِشَارةَ مَذعُــورٍ ولَــم تَتَكَلَّمِ

فَأَيقَنتُ أَنَّ الطَّــرفَ قَالَ مَرحَبًا وَأَهلاً وسَهلاً بالحَبِيبِ المُتَيَّمِ

تظهر معالم المقاربة التداولية جليا في هذا النص من خلال حديث الجاحظ عن التواصل الإشاري، وهو الأمر الذي ذهب إليه (سبربر وولسن)، عندما اقترح ما يعرف **بالتواصل الإشاري الاستدلالي**، وهذا الأخير لا يقتصر على التواصل اللساني، إنما:" يوجد تواصل إشاري استدلالي عندما يبلغ شخص ما شخصا آخر بواسطة عمل معين مقصده المتمثل في إبلاغه معلومة معينة"[23]. وهذا العمل المراد تبليغه عن طريق التواصل الإشاري الاستدلالي: "لا يقتصر على استخدام القول لتبليغ معلومة، بل إن هذا التواصل يوجد كلما بلغنا شيئا ما، وكان مقصد التواصل واضحا"[24].

لو عدنا إلى قول الشاعر السابق الذكر لاتضح لنا أن المخاطبة حاولت أن تتواصل مع المخاطب تواصلا إشاريا فيما يخص المقصد الإخباري، إذ لم تصرح مباشرة بقصدها، والمتمثل في رضاها وقبولها ود ووصال الحبيب، إنما أشارت بالعين، ليتمكن المخاطَب من التوصل إلى القصد، ووسيلته في ذلك إعمال الذهن والقيام بعمليات استدلالية من مثل الإطلاع على ما تواضع عليه المجتمع فيما يخص لغة العيون، خاصة عندما يتعلق الأمر بالمحبين، ضف إلى ذلك مراعاته لعناصر السياق من: هوية المتكلم، وهي امرأة لا تستطيع التصريح بالموضوعات التي تخدش الحياء، وطبيعة الموضوع، إذ لا طالما كانت مثل هذه المواضيع العاطفية حساسة، هذا بالإضافة إلى العلاقة بين المتخاطبين والمعارف المشتركة بينهما، إذ كانت المخاطبة على اطلاع بمستوى المتلقي الثقافي والاجتماعي، قبل أن تعمد إلى التواصل الاشاري، ما يعني تيقنها من أنه سيؤول تصرفها تأولا صحيحا إلى غيرها من العمليات الاستدلالية التي يقوم بها المعنيون بالتواصل الاشاري الاستدلالي.

على سبيل الخاتمة: يتضح من خلال تصفحنا لمؤلف الجاحظ، الحضور القوي والقديم للتداولية في التراث العربي، وهو حضور لا يقل عنه في التراث الغربي بحيث احتوى على بعض القضايا التداولية فقد كان يدور موضوع الكتاب حول الإقناع والتأثير في المتلقي؛ بحيث أشار إلى تعريف البيان باعتباره فهما وإفهاما بالوسائل اللغوية وغير اللغوية، ليولي أهمية بذلك إلى الغاية (الفهم والإفهام) على حساب الوسيلة.

واهتمام الجاحظ بعملية التأثير والإقناع في المتلقي والمقام، جعله يحظى بفضل السبق لما يعرف حاليا بـــ (نظرية التأثير والمقام)، وهنا نوافق ما ذهب إليه محمد العمري، عندما أشار إلى أن نظرية التأثير والمقام تعتبر: "... أحد الأبعاد الأساسية في البلاغة العربية وهو بعد جاحظي في أساسه، وإن تخلي البديعيين عنه في مرحلة لاحقة أدى إلى اختزال البلاغة العربية وتضييق مجالها، وتحظى نظرية التأثير والمقام حاليا بعناية كبيرة في الدارسات السيميائية، ومن ثم الشروع في إعادة الاعتبار إلى البلاغة العربية تحت عنوان جديد: التداولية"[25].

مثل كتاب الجاحظ موقفا حضاريا، حاول من خلاله تكوين مجتمع تربط بين أفراده علاقات الإقناع والاستمالة بشتى صور الدلالة والتعبير الاجتماعي، الأمر نفسه الذي تنشده التداولية؛ إذ تدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وتنطلق من استثمار الممكن والمتاح من الآليات لتوصيل رسالة معينة في إطار إنجازها.

الهوامش:

1- أبو عثمان عمرو بن الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، ج1، ط7، مكتبة الخانجي، القاهرة 1998، ص 75.

2- جون سورل، العقل واللغة والمجتمع، تر: سعيد الغانمي، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر (د، ت)، ص 128.

3- جان سيرفوني، المنفوظية، تر: قاسم المقداد، منشورات اتحاد كتاب العرب، (د، ب)، 1998 ص 15، 16.

4- ينظر، أستين، نظرية أفعال الكلام العامة – كيف ننجز الأشياء بالكلام – ، تر: عبد القادر قينيني، إفريقيا الشرق المغرب، 1991، ص 18.

5- ينظر آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم –علم جديد في التواصل–، تر: سيف الدين داغفوس، محمد شيباني، ط 1، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت 2003، ص 32.

6- باتريك شارودو، دومنيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري، حمادي صمود، دار سيناترا، تونس، 2008 ص 222.

7- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 272.

8- م، ن، ص 75.

9- م، ن، ص 76.

10- ينظر، م، ن، ص 104.

11- م، ن، ص 78.

12- م، ن، ص 136.

13 - Voir : H-paul Grice, logique et conversation, traduit :frédéric berthet et michel bozon, p5 .

14- الجاحظ، م، ن، ص 139.

15- ينظر، فاطمة الشيدي، المعنى خارج النص- أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب- دار نينوى للطباعة والنشر، دمشق، 2011، ص 11.

16- م، ن، ص 20.

17- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تح:علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل ابراهيم ط2، دار الفكر العربي، مصر (د.ت)، ص29.

18- ينظر، أستين، نظرية أفعال الكلام العامة – كيف ننجز الأشياء بالكلام –، ص 19.

19- ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية لغوية، ط1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، 2004، ص45.

20- الجاحظ، م، ن، ص، 14.

21- ينظر، م، ن، ص 64.

22- م، ن، ص 78.

23- ينظر آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم -علم جديد في التواصل-، ص80.

24- م، ن، ص، ن.

25- محمد العمري، البلاغة العربية -أصولها وامتداداتها- افريقيا الشرق، بيروت 1999، ص 293.

إرهاصات اللّسانيات التداولية من خلال المؤلَف

(Introduction à la pragmatique linguistique)

للمؤلِف جيلالي دالاش (D. Dalache)

ترجمة: محمد يحياتن

أ. كتّاب نصيرة

جامعة مولود معمري، تيزي–وزو

مقدمة: لقد حفل القرن الواحد والعشرون بنهضة علمية ومعرفية في كلّ المجالات، ونمى الفكر البشري نموا مذهلا، وإنّ ما يصطحب هذا النضج العلمي اللّغة التي تترجمه على ساحة الواقع؛ فبعدما كانت دراسة اللّغات في القديم دراسات مقارنيه معيارية، ليأتي فردنيان دي سوسير F. de Saussure الذي قام بدراسة اللّغة دراسة علمية، أي دراسة اللّغة في ذاتها ولذاتها. ولقد تطورت بعد ذلك على أيدي علماء أفذاذ؛ إذ تمكنوا من بلورة الفكر اللّساني الحديث، وظهرت عدّة مدارس لسانية منها البنوية والوظيفية والسلوكية والتوزيعية التحويلية والتوليدية إلى التداولية، وهذه الأخيرة أضحت آخر ما توصلت إليها الدراسات اللّغوية الحديثة. وقد تراكمت جملة من العلوم والمعارف في ظلّها، ولا تعتبر اللّغة أداة تبليغية وحسب، بل تتجاوزها إلى الأثر الذي تحدّثه في المتلقي، ولهذا ما حاول جيلالي دلاش تقديمه في هذا العمل لجمهور الطلبة أساساً. وإن الهدف الذي يروم تحقيقه

إنما هو جعل القارئ يستأنس بمفاهيم اللسانيات التداولية الأساسية، ومنابع هذا العلم.

وقام محمد يحياتن بترجمة كتاب جيلالي دلاش الموسوم بـــ "**مدخل إلى اللّسانيات التداولية**" **(Introduction a la Linguistique de la Pragmatique)** في سنة 1992، وقد نشره ديوان المطبوعات الجامعية. وتعتبر قفزة نوعية على الساحة الفكرية الجزائرية التي بدأت تتفتح على العلوم الحديثة ومن النّظرة الأولى يجذبنا عنوان الكتاب، على أنّه يخزن معلومات، ومعارف ثمينة حديثة في تاريخ اللّسانيات الحديثة؛ ويعتبر تخصصًا لسانيًا حديث يدرس كيفية استخدام النّاس للأدلة اللّغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم، كمّا يعني من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث، ويعتبر كذلك أن اللّسانيات التداولية إنّما هي لسانيات الحوار أو الملكة التبليغية أي ما يعرف بـــ Compétence de communication التي تقابل الملكة اللّغوية الصرفة compétence التي حدّدها تشومسكي. ولقد رصد لنا كذلك منابع هذا العلم الذي ينحدر من فلاسفة اللّغة، ومحاولة منه تقريب الأفكار التي يحملها هذا العلم الجديد فما هي تصوراته للغة، وبخاصة تصوراته لدليل اللّغوي؟

ويتبين أن مُترجم الكتاب له ثقافة واسعة في عالم اللّسانيات، وهذا النوع من البحوث يحتاج إلى إلمام واسع بالعلوم الحديثة وفهمها، ومن مضمون الكتاب يعدّ علما شاقا وصعبا لما يحتويه من معلومات ومعارف جدّ ثرية ومعقدة وبخاصة الفلسفية، ونظرًا لشاسعة هذا الحقل وتداخله بين جميع المعارف والتخصصات (علم النفس، علم الاجتماع، علم التربية، والفلسفة...) وعند قرأتنا لهذا الكتاب وجدنا فيه كثرة من المعارف والمصطلحات العلمية والمفاهيم، واعتمد بالدرجة الأولى على

القاموس اللّساني الذي وضعه أستاذنا الفاضل الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح وقد تبّن المقابل الذي اقترحه زملاؤنا بالمغرب الشقيق للدلالة على (la Pragmatique) ألاّ وهو "اللّسانيات التداولية" لخفته وسلاسته. وإن الولوج في هذا الكتاب يحتاج إلى معرفة خصبة بالعلوم اللّغوية الحديثة، لأنّنا أمام كتاب يعدُّ البذرة الأولى في الدخول إلى اللّسانيات التداولية، وقد ترجمه إلى العربية متخصص في العلوم الحديثة يُجيد اللغتين العربية والفرنسية جيدا؛ فهو عالم لساني مترجم، وباحث لديه رصيد طويل في اللّسانيات بترجماته المتنوعة.

أولا: دراسة مقدمة الكتاب؛ لقد استهل المترجم الكتاب بمقدمة قصيرة بَـيَّن فيها (محمد يحياتن) المغزى الذي يصبوا إليه هذا الكتاب، من إعطاء المفاتيح الأولية النظرية والتطبيقية لهذا العلم الجديد ورغبة منه سدّ الثغرة التي تشكو منها المكتبة العربية من هذه العلوم الحديثة والجديدة؛ فالباحث اللّساني يجب عليه معرفة هذا المنهج الجديد في دراسة اللّغة الذي تجاوز الجانب البنوي الذي أتى به دي سوسير والجانب الدلالي الذي أتى به تشومسكي من القدرة والملكة، ويعدّ مدخلاً لهذا التخصص لاسيما وأن صاحبه (جيلال دلاش) قد توخى عند وضعه الأسلوب التعليمي حتى يستأنس الطلبة بمفاهيمه ومناهجه. والكتاب صغير الحجم حوالي 55 صفحة، بالإضافة إلى الغلاف باللون الأخضر والأبيض، وعند قراءتنا للكتاب المترجم التمسنا فيه بساطة أسلوبه، وحسن في اختيار المصطلحات المتداولة والذي يجعل عند مقاربة النص الأصلي، بالنص المترجم وكأن المسألة عكسية؛ بحيث يتحول النص الأصلي إلى مترجم والعكس صحيح.

ثانيا: دراسة في العنوان؛ إن ما يلفت انتباه القارئ هو العنوان، فالكتاب موسوم بـــ (مدخل إلى اللّسانيات التداولية) ملخص في ثلاثة كلمات، وهي:

2-1- المدخل: يعني الدخول في صميم الموضوع؛ وعرفه معجم الوسيط: (دخل) المكان ونحوه وفيه دخولا: صار داخلَه. ويقال دخل الدار. وأصله دخل في الدار.. أدخله و- اجتهد في الدخول. (تَداخَلتِ) الأشياء: داخلت. و- دخل قليلا قليلا و- تكلّف الدخول في الأمر؛"[1] فهي الطريقة التي يلج فيها الشخص إلى الموضوع، ويكون متحرزا، ونبيه قصد الوصول إلى نتائج صائبة، ويبحث عن الطرائق التي تؤدي به إلى الدخول في شيء ما، وتمثل الباب الأول والافتتاحي لدخول إلى صميم الموضوع، وهي اللّمحة الأولية التمهيدية والمفتاحية المساعدة للدخول إلى الموضوع.

2-2: اللّسانيات: فقد ظهرت في القرن العشرين على يد فردنياند دي سوسور (FERDINAND DE SASSEURS) في كتاب نشره طلبته (دروس في الألسنية العامة) ويختص بدراسة اللّسان البشري؛ فهو "الدراسة العلمية الموضوعية للسان البشري أي دراسة الظاهرة العامة والمشتركة بين بني البشر[2]، قصد استقراء الخصائص العامة المشتركة بظاهرة اللّسان البشري. وهي دراسة وصفية بعيدة عن المعيارية تقوم بتحليل الأوضاع اللّغوية كما هي موجودة في الواقع في. ويقوم على دراسة وحدات اللغة في ذاتها ولذاتها نقدّمها في الشاكلّة الآتية[3]:

وصف وحدات اللغة؛

اللّسانيات

تحليل وشرح وظائف هذه الوحدات.

2-3: التداولية: تعدُّ من المواضيع الحديثة التي عني بها العلماء بالدراسة والتمحيص، ولقد ظهرت في ظل جملة من النظريات العلمية والفلسفية؛ فهي تشابك مشارب علمية متعددة، وتنظر إلى اللّغة على أنّها "أقوال تتحول إلى أفعال ذات صبغة

اجتماعية بمجرّد التلفظ بها"[4]، وهي مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللّغوي بمستعمله؛ فالتداولية تحيط بكلّ المعارف والمحدّدات الثقافية والاجتماعية لإيصال بالخطاب مفهوما وذلك باستخدام آلياتها التي تساعد في تبليغ محتوى الرسالة وتخلق أثرًا عند المتلقي.

ثالثا/ دراسة في المتن: وبعد تشريح دقيق للكتاب، نلاحظ من الوهلة الأولى أن صاحب الكتاب لم يقسمه إلى محاور؛ فقد استعرض مسألة النشأة في البداية، وهي ليست بالأمر الهين، لأنّها مدينة لعدّد من التيارات الفلسفية وهو ميدان يستلزم تكوينا متينًا، وهذا التخصص يمكننا من الوقوع في شرك الاعتقاد بأنّ اللّسانيات لا تعني البنية اللّغوية الصرفة (الصوت، الكلمة، الجملة) غير محتفلة بالاعتبارات غير اللّغوية والعلاقات التي تربطها بالتخصصات الأخرى المتنوعة، ومن هنا؛ فالنظرية اللّسانية أيا كانت جاذبيتها مدينة لا للتفكير الفلسفي وحسب، بل كذلك لوجهتها التي تمسّ الواقع والمعيش اليومي. ودعم رأيه بثُلّــة من العلمــاء وذكر أمثال: أ. ماس (A. MASS) ود. فنــدرليش (D. VENDREISH) في كتابهما الموسوم بـــ (PRAGMATIK UND SPRACHLICHERS) أربعة منابع أساسية أدّت إلى تكوّن هذا التخصص، وهي على التوالي:

– السيميائيات المنطقية المرتبطة بـــ"نادي فينا" (CERCLE DE VIENNE)؛

– سيميائيات ش. موريس (C. MORRIS) وتندرج ضمنها تيار طاغ أعيد التفكير من خلال؛

– مكوّن العمل (COMPOSANTE TRAVAILLE) ويمثله ج. كلوس (G. KLAUS) من ألمانيا الديمقراطية؛

– الذرائعية الأمريكية (PRAGMATIQUE AMERICAIN) لـــ ش. س. بيـــــرس (C. S. PEIRSE)[5].

لقد أدرج في الجزء الأول من الكتاب المنبع التي تنحدر منها اللّسانيات التداولية، وقدّم منها مختلف التصورات التي قدّمها مؤسسيها، رغم أنّها كانت شظايا فلاسفية لا أكثر للغة البشرية. وتسعى كلّ هذه التصورات في البحث عن القوانين الداخلية التي تنتظمها، بل تعتني بتأثير الأدلة على السلوك البشري، ولا تستبعد مستخدمي الدليل من أبحاثها؛ فإنّها قد عدّت على نحو حصيف بمثابة أسس اللّسانيات التداولية وقدّمها على النحو الآتي:

3-1- تصورات فلاسفة اللّغة للدليل اللّغوي: قدّم فيها أغلب تصورات علماء الفلسفة اللغويين، وهي:

3-1-1- تصور ش .س. بيرس: يعتبر المؤسس لهذا العلم الجديد، ويعود له الفضل الكبير في إطلاق مصطلح التداولية، فقد لامح أشياء جديدة في اللّغة تسهم في التغير بفضل الأدلة اللّغوية، وإن العالَم بالنسبة لنا ندركه بواسطة التفاعل بين الذوات والنشاط السيميائي يتم أساسًا بفضل الأدلة، والناس تربط بينهم علاقة تواصل مبنية بالأدلة (في شكلّ رموز) والتي تمثل الواقع وتحملهم على السعي والتحرك.

ويصف هابرماس (HEBRMAS) تصور بيرس العلمي نوعا من إسقاط تجربة التطور العلمي صوب السيرورة الجماعية والموجَّهة للجنس البشري، وهذه العلاقة المتينة القائمة بين العلم والحياة قد أعيد طرحها في شكل حكمة؛ فالعلم بالنسبة إلينا شكّل من أشكال الحياة، والحياة لا يمكن إدراكها إلا بفضل نوع الأدلة، ثم يشرع بيرس في تطوير نظريته حول الدليل الذي يوفر في نظره علاقة ثلاثية تتحقق بواسطة سيرورة متجانسة تدعى SEMIOSIS؛ فالدليل عند بيرس هو (الوحدة

الممثلة REPRESENTM) موجود هاهنا من أجل شخص ما (مؤول الدليل الأول INTERPRETANT) ⇇ أي من أجل نوع الموضوع: قاعدة الوحدة الممثلة (base de représentm) وقد ميّز بيرس بين ثلاثة أنماط من الأدلة[6]:

– الرمز SYMBOLE: علاقة اعتباطية تربط بموضوعه، أصوات لغة ما مثل: كلّب CHIEN.HUND.

– الإيقونة ICONE: يتوقف من حيث شبهها الصوري المحض الصوت المحكي للطبيعة ONOMATOPEE

– الإمارة INDICE: العلة بالمعلوم: الدخان دليل على النار؛ والدموع؛ دليل على الحزن والألم.

تعتبر الصيرورة السيمائية عملية انصهارية للعوامل الثلاثة التي تعمل وحدة كاملة. ويلح كارل أوتو–آبل (O. APEL) في دراسته لأعمال بيرس على أهمية الوظيفة الثالثة، إذ إنّ الواقع المدلول عليه يفترض تجربة إنسانية مبنية لا على ما هو فرضي، بل على ما هو اجتماعي، لأنه بفضل ما هو اجتماعي تتطور التجربة الإنسانية.

3–1–2– تصور موريس: فسّر الدليل اللّغوي بطريقة تأويلية سميائية، فهو:

– قائم على سلوك الجسم؛ جسم يفعل في المحيط، مثلا إعلان رضاء ⇇ البعد السلوكي (وينفعل به وتفاعل)

– صيرورة الدليل أو الناقل (porteur)

– إحالة الدليل أو المدلول عليه؛

–عنصر الأثر الذي يحصل لدى المرسل إليه، يبدو وكأنه الدليل أو المؤول؛

وتعتبر هذه التوجهات الأربعة متداخلة فيما بينها أيَّما تداخل، ومعناه لا توجد تراتبية في الصيرورة السيميائية، وأثناء وصف السيميائيات، تفترض اللّسانيات التداولية مسبقا التركيبة والدلالة ... المناقشة ... علاقات الأدلة بمؤولها، وعلاقة الأدلة بعضها ببعض، وكذا علاقة الأدلة بالأشياء التي تحيل إلى المؤولين. "وإن نظرتهم إلى بنية اللّغة من وجهة التداولية إنَّها نظام من السلوك ووظيفة الدلالة تهيئ المرسل إليه بردّ فعل ما مثال: هناك كلّب أمام الدار. وتهيئ المخاطب لردّ فعل معين تستخدم أقوال في أوضاع ومقامات بعينها تثير وظيفة اللّغة التقييمية (Appréciation)"[7]؛ ما أروع المشهد (الموقف ايجابي أو سلبي) والصيغة السلوكية الطاغية على هذا التصور لدليل يختلف قليلا عن تصور كارل بوهلر (k. Buhler) في بعض الوجوه.

3-1-3- تصور الدليل عند كارل بوهلر: عارض البنوية في نظرتها التنقُضية للغة، واشتهر باكرا بالنشاط اللّغوي للغة (Activité Langagière) واقترح نموذجه التبليغي الذي ينبني على رفضه لتحليل اللّغوي الذي جاء به سوسير، لاعتقاده بأنّ التحليل الذي أنجزه إنما تمّ بواسطة "ساطور جزار" واقترح صيغة تداولية انطلاقا من نتائج أبحاثه حول اللّغات الهندية والأوروبية، حيث يقوم الفعل بوظيفة مركزية تحدّد بنية الجملة، واستخلص بأنّ هذه الخصيصة تجعل من المتكلمين أفرادًا فاعلين، وأطراف ذوي نشاط لغوي حقيقي، والفعل يقوم بوظيفة مركزية والفعل اللغوي مصدر لكلّ ما هو تاريخي، ويحمل الدليل صبغة الفعل بواسطة الوظيفة المرجعية (أي الدلالة على المسميات) التي يحتويها، غير أنّ المؤلف يضيف بعض التقييد لأفكاره وذلك بإلحاحه على هذا الوظائف يمكن أن يتزامن وجودها في صلب نشاط لغوي واحد وتدعيما لهذا التقييد، يذكر المؤلف بعض الحالات كوظيفة

التمثيل: اللغة العلمية؛ لغة المنطق الحديث؛ لغة الرياضيات/ وظيفة التعبير: اللغة الشعرية الغنائية/ وظيفة النداء: لغة الأمر/ اللغة المزدوجة: التعبير والنداء. "وينافح بوهلر من أجل لسانيات ديناميكية غير سكونية، من أجل لسانيات النشاط اللّغوي وذلك بإقحام مفهوم **الفعل الكلامي**"[8]، لأنّ أقول تظهر والحق يقال في صورة الفعل فالأدلة في علاقة مع محورين الاستبدالي والتركيبي؛ فالمدلول هو (المحتوى)؛ والدال هو (الصورة)؛ والموضوع هو الذي يكون في علاقة إحالة.

3-2- اللّسانيات التداولية: لقد استعرض في الجزء الأول تصورات فلاسفة اللّغة التحليلية، فبيرس أعترف على أنّ الأدلة في الكون هي التي تعمل على التحرك، بينما موريس يتصور الدليل اللغوي حامل لمعنى سلوكي قصده التغيير وكان أبرزها بوهلر الذي أشار إلى الفعل الكلامي لأول مرة، بفضل الوظائف التي تحمله دلالاتها المعجمية؛ ومن هنا انبثق التفكير في اللّسانيات التداولية في الثلاثينيات من هذا القرن، وقبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، حاولت التجريبية المنطقية القريبة من نادي فينا تغيير الوجهة الفلسفية التقليدية لدليل، وقد اجتهد التيار الذي يمثله أساسا كلّ من فريج (freg) وكارناب (Carnap) وفيتجنشتاين (Wittgenstein) في إعادة بناء اللّغة الصورية التي تكون بمثابة أداة ضرورية لرسم العالم وتأويله، فجملة الإثبات تمثل صورة الواقع العملي، لا يمكنها إلاَّ أن تكون صادقة أو كاذبة ويجب على الفلاسفة أن تتلفظ بجملٍ لها معانٍ، وتنقسم هذه الجمل إلى:

- قضايا تركيبية: تتوفر إما على قيمة الصدق أو الكذب، مثال: القط متسلق على الممسحة (صادقة أو كاذبة)؛

– وقضايا تحليلية: تتوفر على الصدق دائما، مثال: الأعزب غير متزوج (صادقة على الدوام).

وإن هذه الاعتبارات لا تمثل وصفا للواقع أولان بل تمثل فعلاً (أو حدثًا) ونقدّمه في الترسيمة الآتية:

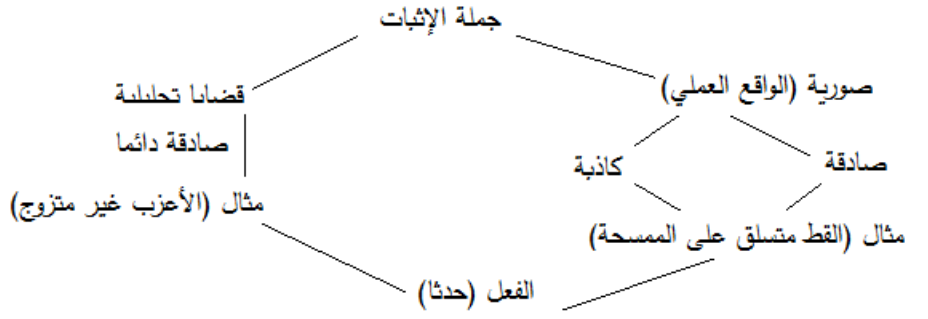

ويمثل الدليل بالنسبة لفلاسفة التحليلين انعكاسية لوصف نفسه والعالم، على غرار فلاسفة الطبيعيين الذين يرون أنّ القول يعبّر عن نفسه لا يعني أنّه يكّف عن التمثيل، بينما يعتبر فلاسفة الطبيعية أنّه لا يمكن عزل اللفظ عن سياقه، وهذا العنصر أساسا في نظرهم.

3-2-1- تصور فيتجنشتاين: فقد أسهم فيتجنشتاين في بلورة هذا العلم وخاصة بعد انضمامه إلى فلاسفة أكسفورد قصد دراسة اللّغة الطبيعية، وتعتمد هذه الفلسفة على ثلاث مفاهيم أساسية، وهي: الدلالة؛ القاعدة وألعاب اللغة.

أ – **مفهوم الدلالة:** لا يجب الخلط بين المعنى المحصل والمعنى المقدّر؛ فالجملة لها معنى مقدر أما الكلام له معنى محصل. لا تتوفر على المعنى إلاّ من خلال النظام الذي تنضوي تحته، وفي خاتمة المطاف يحدّد معناها الحقيقي الذي يمكن مشاهدته والتحقق منه في صلب الممارسة اليومية لألعاب اللّغة.

ب- مفهوم القاعدة: يجب أن ننظر إليه حسب المؤلف من وجوهه الاجتماعية، والاستبدالية والنّحوية ونقدّمه في الترسيمة الآتية:

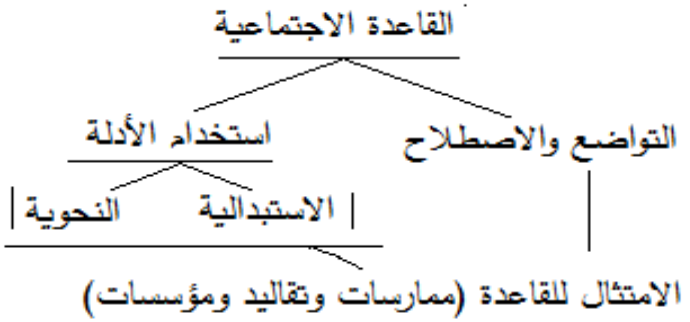

وتستخدم القاعدة في كونها تستند إلى التواضع والاصطلاح، وإن إعطاء معلومة ما وأمر هي كلّها ممارسات.

ج – مفهوم ألعاب اللّغة: شكل هذا المفهوم فكرة أساسية فيتجنشتاين (Wittgenstein) ويمثل كيانا غير منفصل عن مفهومي القاعدة والدلالة، والشك غير وارد في ألعاب اللّغة إذ لم تثبت التجربة العكس، ويقول الفيلسوف لمزيدًا من التوضيح في هذه اللعبة، تصور اللعبة التالية: عندما أنديك (أدخل من البات) ففي جميع الأحوال يبدو الإقدام على الشك ضربًا من المستحيلات. وألعاب اللّغة شكل من أشكال الحياة تتطور بتطور الحياة الاجتماعية (التعلم والمجتمع) ودعا إلى نظرة أكثر إنسانية للغة؛ فهي مدينة قديمة ماهة من الأزقة والساحات والمنازل القديمة والجديدة التي في أحقاب مختلفة، ونقدّمه في الترسيمة الآتية:

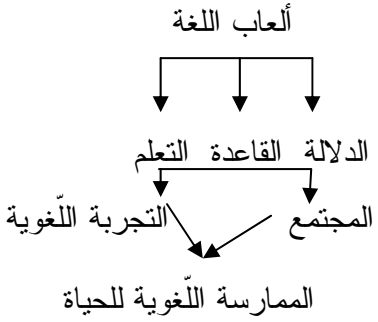

ولقد بيّن مسعى فيتجشتاين في كيفية اشتغال الكلمات في التجربة، وبيّن أن تعقد (الألعاب اللّغوية) تتطور بتطور النشاطات الاجتماعية، وتشكّل هذه الألعاب طرائق يتعلم بواسطتها الأطفال لغتهم الأم وكيفية الاندماج في المجتمع.

3-2-2- تصور ج. ل. أوستين j. l. Austin : قدّم الفعل الإنشائي ونقيضه الفعل التقريري رفض ثنائية الصدق والكذب للجمل الإثبات التي وضعها المناطقة وإقراره على أنّ كلّ قول هو عمل لأنّ التماثل يوجب وجود جملة وصفية إثباتيه وتقريرية عند التلفظ بهذه الأقوال؛ فإن الكلّمات تنجز في الوقت ذاته أعمالا؛

آمرك بالمجيء (أمر)؛

أمره بالمجيء (وصف تقرير حال).

وبالنسبة للأفعال الإنشائية تصف بالصدق أو الكذب، فهذه الأقوال قد تنجح أو قد تخفق أو أنّها تستجيب لمقتضى الحال... وبالإضافة إلى الأفعال الإنشائية نجد عناصر النغمة والقرائن الفضلية وسلوك المتكلمين (حركات وإيماءات) وكذلك تخضع هذه الأقوال لبعض الشروط التي تضمن لها النجاح والتوفيق وتفترض هذه الأقوال أولا وجود كيفية اصطلاحية تستدعى نتيجة اصطلاحية، ويتلفظ (عبارات) في ظروف معينة، وأنّ كلّ الأفراد المساهمين في التفاعل ملزمون بالامتثال إلى القواعد حتى يتم تنفيذها بكيفية مخلصة وكاملة من قبل المشاركين. وهو ما حمله

على كتابة كتابه الموسوم القول هو الفعل (Quand dire c'est faire) وإن مفهوم الأقوال الإنشائية ومفهوم الأقوال التقريرية قول موسوم داخل السياق. وخلص أوستين إلى أنّ كلّ قول موسوم داخل السياق، والقول هو كيفية من كيفيات العمل ونحلل الفعل اللّغوي عند أوستين الذي ينقسم حسب الشاكلّة الآتية إلى:

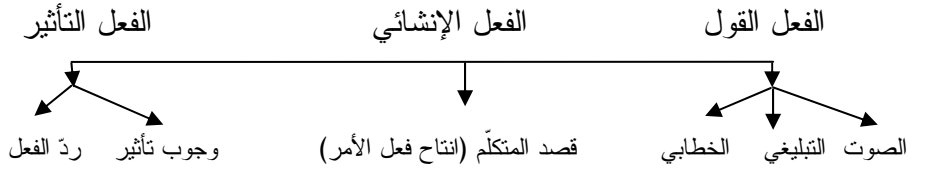

ولقد جمع أوستين الأفعال اللّغوية في خمسة (5) فصائل كبرى:

- الأفعال اللّغوية الدالة على الحكم verdictifs قدّر، حكم على؛
- الأفعال اللّغوية الدالة على الممارسة exécutifs عين، نصح، بحذر؛
- الأفعال اللّغوية الدالة على الوعد commissifs وعد، كفل، التزام؛
- الأفعال اللّغوية الدالة على السيرة conductifs شكر، هنأ، لعن،
- الأفعال اللّغوية الدالة على العرض expositifs افترض، اعترف، ردّ.

وتقوم هذه الأفعال بضبط مكانة أقوالنا داخل الحديث أو الحوار.

3-2-3- تصور سورل J. R. Searle: اقترح بعض التعديلات وطوّر نظرية الأفعال الكلّامية، وقسم الأفعال الكلامية، **أولا: الأفعال المباشرة:** يعتمد سورل على مبدأ فلاسفة اللّغة العادية الذي تلخصه العبارة المركزة التالية: "القول هو العمل" فالقول شكل من أشكال السلوك الاجتماعي تضبطه قواعد:

أ. فعل القول (acte énonciation) التلفظ (أصوات، لتشكل بنى صرفية وجمل)؛

ب. فعل الإسناد (acte propositionnel) المتكلم (1) والمتكلم (2)؛

ج. فعل الإنشاء (acte performatif) محتوى القول (القضية)؛

د. فعل التأثير (acte perlocutif) ردّ الفعل.

ونقدّم بعض الأمثلة:

- أنصحكم بمغادرة القاعة؛ ⟵ النصح، الأمر، التهديد؛
- غادروا القاعة فوراً؛ ⟵ أمر، التحذير؛
- حبذا لو غادر القاعة؛ ⟵ التمني، الأمر غير المباشر، التأسف؛
- هل غادر القاعة؟ ⟵ استفهام، الاستعلال.

ونجد سورل على غرار فيتجنشتاين يميز سورل بين نوعين من القواعد:

- القواعد المكّونة (réglé constitutive) التي تحدّد معايير اللعبة؛
- القواعد الضابطة (réglé régullstives) التي تنظم العلاقات بين الأشخاص وتحدّد بعض الأشكال السلوكية.

يأتي مضمون الفعل المباشر في شكلّ من السلوك الاجتماعي، وباستناده لهذه القواعد وضع سورل خطاطة للتصنيف أفعال الكلام تختلف قليلا عن خطاطة أوستين وهابرماس، أقول تطابق بين معنى الجملة ومعنى القول، أي أنّ الأفعال الكلامية تطابق القول (الفعلverde) وحكمه (mode) نوع الإنشاء مثال: أعلن عن افتتاح الجلسة/ أين وضعت الكتاب؟ ... تتسم هذه الأفعال بسمة التواضع والاصطلاح والطقوسية (rite) فالمعنى الحقيقي يطابق معنى الجملة، والمعنى الذي يقصده المتكلم يفهمه المستمع.

ثانيا/ الأفعال غير المباشرة تطارح سورل عدّة أسئلة مكنته من شرح القضية الحاسمة المتعلقة باللامباشرة في صلب الفصل الذي خصّصه للتخييل (fiction) والاستعارة، فما هي الاستعارة؟ وكيف تمتاز في الوقت ذاته عن الصيغ الحقيقية

وأشكال الأقوال المجازية، وما الذي يجعلنا نستعمل عبارات ذوات استعارة بدل استخدام المعاني الحقيقية؟ وكيف تشتغل الأقوال الاستعارية، أي كيف يمكن المتكلمين من مخاطبة مستمعيهم باعتماد الاستعارة دون أن يجهروا بما يريدون الإدلاء به، وما الذي يجعل بعض الاستعارات ملائمة والبعض الآخر غير ملائمة؟ وخلّص سورل إلى أنّ معنى الاستعارة عكس المعنى الحقيقي حيث يجبر المستمع من الانتقال من المعنى الحقيقي إلى المعنى الذي يسنده المتكلم في قوله "جارتك أفعى" فالمستمع يلغي وجوبًا المعنى الحقيقي بكون الجارة أفعى (زاحفة من الزواحف) ولا يحتفظ إلا بالمعنى المجازي، يؤدى معنى الحيطة من الشخص الموصوف، غير أنّه في بعض الحالات يضطر فيها المستمع كي يدرك السخرية ونجد كذلك أمارات غير معجمية كالنغمة، والبسمة تساعد على الوقوف في تجسيد الفعل غير المباشر. ولحصناها في الشاكلة الآتية: ونرمز لفعل القول بـــ (ف)

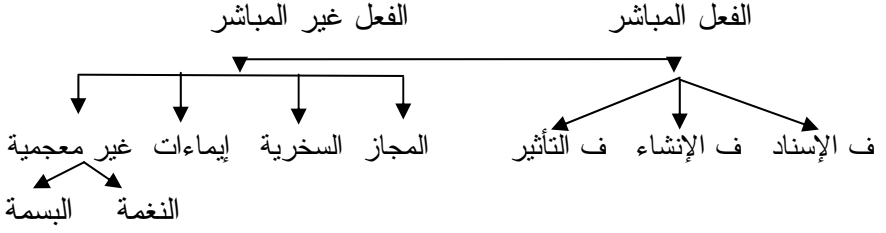

ويجب العناية بالأفعال المباشرة والأفعال غير المباشرة، وذلك أنّ خطأ ما يؤدي إلى صراعات بين الأشخاص، وبهذا عُني العديد من اللّسانين بالأفعال غير المباشرة، وانصب الاهتمام أساسًا على البحث عن تحديد وحصر وسائل وشروط إنجاز مثل هذه الأفعال أمثال سوكلن (Sokelan) وفي بعض الحالات قد يخضع الفعل إلى اصطلاح بكيفية غير مباشرة، ويكون حينئذ إزاء عوامل لا مباشرة متواضع عليها، وهي خاصة بشخص أو بزمرة صغيرة من الأشخاص. ونرى أنّه

لا يوجد شرح موحد للظاهرة اللّغوية، كما أنّ اللّجوء إلى مسلمات الحوار لقردن (Garden) ولا كوف (Lakof) لا تحل المشكلة حسب سورل التي تتمثل عناصره في نظرية الحديث والخبر الفعلي، وكذا قدرات الاستدلال والاستنتاج. وأما بربجيت شيلين لانج (R. S. Lange) تلاحظ الفعل المباشر نقيض الفعل غير المباشرة؛ فالأفعال المباشرة تنتمي إلى عالم الاصطلاحات والتواضعات والمؤسسات بقصد اضطلاعها بوظيفتها بفعالية وتواتر استخدامها دليل على أنّ المجتمع مؤسس عليها أيما تأسيس. "بينما تتمثل الوظيفة الاجتماعية للأفعال غير المباشرة أساسية"[9] وجرى بنا أن نذكر في هذا الباب قول دوروثي فرنك (D. Frank) تتوفر الأفعال غير المباشرة على: تحاشي المحاورات/ التحايل على حواجز غير مرغوب فيها/ تفادي مطلب غير مبرر / خلق إمكانات واسعة للذات وللطرف الثاني تمكن من الاهتداء إلى مخرج.

3- 3- تطور اللّسانيات التداولية: نلاحظ أن اللّسانيات التداولية قد تجاوزت الإطار الذي وضعه الرواد الأوائل، إذ قامت بتوسيع مجال بحثها ليمتد إلى دراسة حكم الحديث، والافتراض المسبق، والتفاعل.

3-3-1- حِكَم الحديث لــ غرايس (Grice): اقترح مفهوما أعم يمكن أن يشتغل بمعزل عن فعل الكلام كما يمكنه أن ينظم التواصل، أي نوعا من السلوك العقلاني للفرد، كما يؤسس مبدأ التعاون داخل التبادل التعاوني حول مقاصد المشاركين. وتكون هذه المقاصد ليست في الواقع صريحة بين أطراف التبادل والحال إنّها عبارة عن عناصر خفية تعتمد في شكّل اتفاق ضمني من قبل المتخاطبين الذين يسهرون على مجرى التواصل الحسن بموجب لعبة ذكّية من الاستنتاجات. وبنبي مبدأ التعاون على أربعة حِكم أساسية، وهي[10]:

– **حكمة الكّم:** اجعل مساهمتك في الحديث إخبارية بالقدر الذي يقتضيه هدف هذا الحديث، لكن لا تجعلها إخبارية أكثر مما هو مطلوب؛

– **حكمة الكيف:** حاول أن تقدم مساهمة حقيقية للحديث، ولا تجهر بشي لا يمكنك أنّ تدّعمه بدليل كافٍ؛

– **حكمة العلاقة:** قدّم مساهمة دالة (أي ذات بال) للحديث؛

– **حكمة حكم الكلام:** (maxime de modalité) تكلم بوضوح، متحاش الغموض والخلط والإبهام وقدّم حججك في شكل منظم.

ويا ترى ماذا يحصل لو لم يحترم أحد المشاركين حكمة من هذه الحِكم؟ بإمكاني خرق حكمة على كره مني، ذلك أني إن لم أوفر كمية المعلومات التي يتطلبها مني مقتضى الحال أو الطرف الآخر، فإنما يكون ذلك بقصد احترام حكمة على أخرى؛ غير أنّ بعض اللّسانيين يرى بأنّ هذه الحكم غير قادرة على تفسير كلّ شيء لاسيما وأنّ الأطراف لا يتوفرون على نفس الحاجات التبليغية، وفضلاً عن هذا فإنهم يستخدمون أشكالاً لغوية مختلفة أو قليلة التجانس.

3-3-2- الافتراض المسبق: ينطلق الأطراف المتخاطبون من معطيات أساسية معترف بها ومعروفة عند كلّ عملية من عمليات التبليغ، وهي الافتراضات المسبقة لا يصرح بها المتكلمون، وهي تشكل خلفية التبليغ الضرورية لنجاح العملية التبليغية وهي محتواة في القول، سواء تلفظ بهذا القول إثباتا أو نفيًا، وقمنا باختيار قول ما يدعى قول النفي، فإنّ الافتراض المسبق يظل صحيحًا.

– أغلق الباب/ لا تغلق الباب/ يتمثل الافتراض المسبق هنا في كوّن النافذة مفتوحة؛

مثال آخر: يقول الطرف 1 إلى الطرف 2، كيف حال زوجتك، وأولادك؟ ويفترض العلاقات القائمة بين هذين الشخصين التي تسمح بطرح مثل هذه الأسئلة برّد الطرف 2 قائلاً: هي بخير، شكرًا؛ والأولاد في عطلة. وتسمى بالافتراضات المسبقة الآلية والمنطقية. وأما عن رفض الافتراض المسبق إذا كانت الخلفية الإخبارية غير مشتركة بين المتكلمين فإن الطرف 2 قد يتجاهل السؤال أو يدلي بالخبر الضروري أو رفض الكلّ. أنا لا أعرفكم/ أنا لست متزوجًا/ لقد طلقت زوجتي، وتسمى بالافتراضات المسبقة الأولية.

دراسة الافتراض المسبق كعامل مهم في التعليميات: وتتمثل هذه الخلفية في المعرفة غير الصريحة في صلب التخاطب قد تمسّ عالم الحياة اليومية أو العالم المتخيل (عالم الجنّ والحوار) والعالم العلمي بوجه عام، لذا فإنّ أهمية الافتراضات المسبقة في التبليغ بيّنة، وقد اعترفت صناعة تعليم اللّغات **(Didactique)** بذلك مبكرًا. ألا تمكن وظيفة المعلم في تزويد المتعلم بالمعلومات التي تشكّل هذه الخلفية المعرفية الواجب تدعيمها على الدوام بقصد تحقيق التدرج الموسوم؛ فإن أسئلة المتعلمين واستيضاحاتهم كثيرًا ما تصدر عن الرغبة في الحصول على قاعدة مشتركة من الافتراضات العميقة تكّفل نجاح التخاطب.

3-3-3- مبدأ التفاعل: ركز دعاة نظرية الأفعال الكلامية في أبحاثهم حول شروط إنجاز هذه الأفعال وتحليلها وتصنيفها، إذ خصص كانط جزءًا هامًا من التفكير الفلسفي للنظر في هوية (الأنا) وتستمد هذه الهوية أصلها من التفكير الذاتي المتحرر من عرض الواقع بين الأفراد، في حين يرى هيجل بأن (الأنا) تستمد هويتها من علاقتها الجدلية بـــ الأخر، وتستلزم هذه العلاقة الجدلية سيرورة تفاعلية، وهي السيرورة التي يتكون فيها الوعي بالذات، ويتقوى بالخبرة المبتذلة.

ويضطلع فكر الفرد بوظيفة الوسيط (Meduim) بحيث الأنا والأنا الآخر يتخاطبان، وهكذا يدخل الأفراد في سيرورة التفاعل. ويميز هيجل في مذهبه الفلسفي بين ثلاث مقولات أساسية عند الإنسان: اللّغة، العمل، الأسرة وفي صلب المقولة الأخيرة التي تمثل الزمرة الأولية يتم التفاعل، وإنّ الفرد هو حيال تعقد العالم يستخدم رموزًا لتمثيل الأشياء وبكيفية مجرّدة، كما أنّ وجود الوعى إنما ينصب من خلال اللغة. وإن النشاط الأداتي خاضعًا لقواعد تقنية، فإن النّشاط التبليغي يخضع لمعايير العلاقات الاجتماعية المبنية على الاعتراف المتبادل؛ فعندما يتفاعل شخصان فإنهما يقيمان بينهما ذاتية، ويتبادلان المعلومات يجرى التبليغ (أو التواصل) في ذات الوقت على مستويين، أو وجهين حسب فاتزلافيك (Watzlawick) الوجه العلائقي: ويبرز من خلال النبرة، والحركة، والإيماءة علاقات = يسمى بالتبليغ القياسي(analogique)؛ والوجه المحتوى: ويتعلق بالمعلومات الفكرية والمعرفة المجرّدة = يسمى بالتبليغ المدعو (digitale) وهذه الاعتبارات حول مبدأ التفاعل تجعل مظهر العيني ينصب على الحوار كمكوّن التبليغ الأساسي. وقد تبين بعد ذلك أنّه من الضروري توسيع مجالها بحيث يعتبر الحوار والمقام مفهومان أساسان في نظرية التبليغ يستلزمان، وهما:

3-3-3-2- مفهوم البنية الحوارية: استثارت إشكالية الحوار اهتمام الدارسين منذ ثلاثين سنة وظهرت عدّه مدارس في توجهات متعددة تعني بهذه القضية:

- النزعة الاتنوميتودولوجية (Ethnomethodologie) بزعامة ساش (Sachs) وشقلوف (Schegloff) تلِّح على تحليل الحديثن وكذا الاستراتيجيات التي يعتمدها المتكلمون.

– والنزعة الاتنوغرافيون (ethnographes) بزعامة كل من هايمس (D. Hymes) وقمبرس (Gumperz) فإنّهم يهتمون بالملكة التبليغية (Competénce de communication) باعتبارها مجموع المعرفة الثقافية التي يمتلكها الفرد؛

– وأما النظريات التفاعلية المبنية على علم النفس (بخاصة فاتزيلافيك) فإنها تركز على الوجه العلائقى الذي ينطوي على مظاهر شتي كسوء التفاهم والمفارقات وهي مظاهر تستوجب العلاج.

– وأما النزعة اللسانية الاجتماعية ارفين–تريب (Ervin-Tripp) ولابوف (Labov) فإنها تقوم بتحليل الأقوال في مختلف مقامات التبليغ بالاعتماد على الوظائف اللّغوية المحصورة من قبل بوهلر وياكبسون.

وأخيراً علم الاجتماع الذي يشارك هو الآخر بنصيب لا يستهان به، وذلك من خلال أعمال قوفمان (Goffman) حول التفاعل الذي يحصل وجها لوجه face-à-face وذلك في الحالات التي يكون همّ المتفاعلين (المتخاطبين) فيها هو الحفاظ على هيمنتهم وكذا الحفاظ على سمعة المخاطَب غير أنه لا توجد حدود فاصلة بين هذه النزعات. ويقتضى من الأهمية بمكان في كلّ بحث تداولي الاحتفال بالحوار بوصفه بنية كبرى (macro-structures) والفعل اللّغوي بوصفه بنية صغرى (micro-structures) كما صوره فرانسيس جاك (F.Jacques). تلاحظ أيضا ولقد لاحظ رولي (Roulet) أنّ الحوار ينبني على ثلاثة مستويات ذات تراتبية قوية، وهي:

– التبادل échange.

– التدخل intervention .

- الفعل اللغوي.

هذا وبإمكان الحوار أن يتوفر على تبادل واحد أو عدّة تبادلات تنهض بإنجاز وظائف ثلاث أساسية:

- المبادرة initiative.
- رد الفعل reactive.
- المبادرة / رد الفعل.

وقد يكون التبادل تأكيداً (التحية ، التهنئة) أو إصلاحاً répara-teur (الاعتذار)

وقدم رولي هذه الخطاطة: تأكيدي (ت.ت)

التبادل. إصلاحي (ت.أ)

تدخل.

غير موجه (غ.م) موجه (م)

فعل تابع (ف.ت)

فعل موجه (ف.م)

فعل تابع (ف.ت)

تتجلى بنية التبادل في مقام "الشكر" على النحو التالي:

ت.م.ف.م: أعطني نشعل الله يعفو عليك (في العامية الجزائرية)

ف.ت: تفضل، هاك.

ف.م : عفوا حاشاك.

ف.ت: عزك الله.

ولا يجب أن ينسينا بناء الخطاطة تعقد التبادل الذي يعتريه في الواقع عدّة عوامل وإمكانات مختلفة لإنجاز الأفعال اللّغوية: العناصر اللّسانية المحضة والعناصر غير اللّسانية كالإيماءة، الحركة إلخ

3-3-3-3- مفهوم المقام: لا بدّ أن نسجل أولاً أنّ العديد من الكتّاب يستخدمون مصطلحي المقام situation والسياق context دون تمييز، إذ تلعب مسألة السياق دورا هاما في تمكين المحلل من تقطيع الوحدات الحوارية، فالسياق أشمل من المقام الذي يعد جزءًا منه، ولدينا على سبيل المثال السياق المرجعي الذي يحدّد العلاقة بين العلامات ومراجعها حتى يتمكن المحلل من الوقوف على العناصر المرجعية للحوار، أما السياق المقامي الذي يشكل جزءًا من البواعث الاجتماعية الفاعلة في الخطاب الحواري، وهي بواعث تؤطر الحوار ليسير وفق حدود واضحة، لأنّ التغطية المقامية للحوار تساعد التفسير الكثير من مجرياته ومساراته، وهذا ما يدفع إلى طرح السؤال عن مدى استجابة السياق المقامي لتفسير بعض المضامين الحوارية الغامضة، أما السياق التفاعلي فهو الذي يمس المتحاورين ومضمون الحوار، إذ يبين مدى إدراك الموضوع الحواري ومدى انسجامهم مع القضايا المطروحة فيه[11]. ثانياً يجدّر بنا أن نقدّم للقارئ بعض الآراء حول هذا المفهوم ولا يوجد تحديد وحيد، غير أنّ التحديدات المقترحة ههنا تحتوي بوجه عام نفس العناصر؛ فيحدّد فال (Vahle) المقام في قوله إنّه مجموعة من العوامل التي يتعين على الفرد الاحتفال بها حتى يتوفق في إنجاز فعله اللّغوي. ويميز فال بين أربع مقولات فرعية: النشاطات الفعلية" والمقام الاجتماعي الذي يشمل المنزلة الاجتماعية والدور (الذي يؤديه الفرد) في الزمر الأولية كالأسرة وأخيراً الانتماء إلى زمرة اجتماعية معينة، إذًا "فينبئ المقام على فكرة الكلام الذي

يجري فيه ويتوقف فهمه عليه، ولا يستغني عن التحليل اللّغوي للمقال، أي: الجملة المنطوقة أو المكتوبة. وهذا المقام تحدّده التجربة الاجتماعية، وتتعدّد المقامات الاجتماعية بحسب إطار الثقافة، ولكن المقامات حتى في هذا الإطار لا تسلك في نظام ثابت، لأن الثقافة تتطور"[12] وقام فندرليش (Wunderlich) بحصر صارم للعناصر المكوّنة للمقام والتي لخصناها كالتالي:

- المشاركون في التبليغ: المتكلمون والمستمعون؛
- مكان التفاعل؛
- القول (الصفات اللغوية، شبه اللغوية وغير اللغوية)؛
- مقاصد المتكلمين intentions؛
- ترقبات attentes المتكلم والمستمع؛
- مساهمة المشاركين في الموضوع؛
- معارفهم اللّغوية؛
- المعايير الاجتماعية؛
- شخصياتهم وأدوارهم.

ويمكن تلخيص هذه التصورات المختلفة بواسطة التحديد المقترح من قبل قاليسون وكوست (Galisson & Coste) على أنّ المقام هو مجموع شروط إنتاج القول، وهي الشروط الخارجة عن القول ذاته. والقول هو وليد قصد معين، يستمد وجوده من شخصية المتكلم ومستمعه أو مستمعيه، ويحصل ذلك في الوسط (المكان) واللحظة (الزمان) اللذين يحصل فيهما... وهذه العوامل كلّها المؤثرة في إنجاز القول وهي التي تشكّل المقام. ويعدُّ أساسي في كلّ دراسة لعملية التبليغ غير أنّه ليس سهلاً حصر جميع العناصر التي يشتمل عليه، وبخاصة النفسية منها.

3-4- موضوع اللّسانيات التداولية: توجد عدّة توجهات للسانيات التداولية فإنّها لم تهتد إلى صيغة موحدة، وإنّ اللّسانيات التداولية حسب جيلال دلاش هي في الوقت عيّنه: علم استخدام الأدلة ولسانيات الحوار ونظرية الأفعال اللغوية. أما موريس فإنه يرى بأنّ اللسانيات التداولية هي العلم الذي يعالج العلاقة بين الأدلة ومؤوليها؛ في حين يرى ريكاناتي ودبلر بأنّها تخصص درس في استخدام اللّغة داخل الخطاب والسّمات المميزة التي تؤسس وجهته الخطابية في صلب اللغة؛ وأخيراً فإن ف.جاك يعتبرها تخصصا يتناول اللّغة بوصفها ظاهرة خطابية وتبليغية واجتماعية في نفس الوقت. وتتعلق اللّسانيات التداولية بلسانيات التأدية (performance) ونظراً لعلاقاتها بالتخصصات الأخرى، فإنها تحتوي على أوجه لسانية واجتماعية ونفسية. ولما كانت لا تستبعد لسانيات النظام أو البنوية كذلك فإنّها تدرج علم التراكيب والدلالة. وإنّ القول ليس ذا محتوى فحسب بل إنّه ذو قصد، وفضلاً عن هذا، فهو إرادة اتصال بين أطراف التبليغ. كما أنّ القول فعل دخل مجرى النّشاط، وكلّ فعل يغير حالة العلاقات القائمة بين أطراف الحديث والموجودة من قبل ويأتي بشروط نشاطات مقبلة.

3-5- علاقاتها بالتخصصات الأخرى: توسع مجال اللّسانيات التداولية ولا يسمح لنا باعتبارها هي واللّسانيات الاجتماعية (Sociolinguistique) شيئا واحدا وهذا ما أكّده كيربرات أوركيوني (Kerbrat Orrechionni) في سعة إمكاناتها ومواردها، حيث يقول: تشهد اللّسانيات التداولية، التي هي آخر تخصص تمخضت عنه اللّسانيات توسعاً على جميع الأصعدة؛ فهي مسخرة لوصف ظواهر التناسق النصي (cohérence textuelle) كما يتمّ تسخير أحدّ مكوناتها لإدماجه في التحليل النصي، وذلك على نحو من السرعة (...) ولاشك أنّ اللّسانيات التداولية ستغزو

المجالات السيميائية الأخرى؛ وإنّه لبإمكاننا أن نستشف في كلّ هذا أمارة دالة على كون سيميائيات السينما – وذلك اقتفاءً لخطا كــ. ميتز (C. Metz) تعني الآن بالتحليل الداخلي للمحتويات الفيلمية ... وهذه الطفرة العجيبة (...) من شأنّها أن تجعل اللّسانيات التداولية تنفتح على إشكالات التخصصات الأخرى المجاورة كعلم الاجتماع وعلم النفس ... وتشهد الأبحاث اللّسانية في زماننا هذا انتقال مركز الاهتمام من الجملة إلى الحوار، وتقع هذه التوجهات على عدّة مستويات:

– نظام وبنى الحوارات؛

– نمذجة (Typologie) الحوارات (المحاجّة، الخبر، الطاولات المستديرة الدروس، إلقاء الكلمات إلخ...)؛

– حكم (Modalité) التفاعل (اليومي، القانوني، الديني، العلمي).

ومن جهة أخرى فإنّ اللّسانيات الاجتماعية التي نشأت كردّ فعل على اللّسانيات التي تجاهلت المكوّن الاجتماعي للغة، قد عنيت أولاً بمشكل اللّغة بوصفها وضعاً يناسب طبقات اجتماعية، وكما ألّح ف. كولماس (Coulmas) على أنّه يجب عليها أن تدرس مختلف العلاقات القائمة بين اللّغات من حيث الشكل (أو الصورة) والوظيفة، والوظيفة تعني في هذه الحالة تأديات أفعال الكلام، أما الصورة فتعني المحددات البنوية لمميزات النشاط، ولكن الظاهر أنّ اللّسانيات التداولية قد أحدثت الأثر الأكبر في صناعة التعليم (Didactique) سواء تعلق الأمر بتعليم اللّغة الأم أو اللّغات الأجنبية. وإنّ صناعة التعليم للجيل الثالث بعد قطيعتها مع المناهج التي لم تؤت ثمارها قد أخذت حسب أ. آبو (A. Abbou) تُعنى بالمتعلم ومقام التبليغ أي تزويد المتعلم أو المتعلمين بالأدوات التي تمكنهم من التحرّك بواسطة الكلام تحركاً يلائم المقام والمقاصد المراد تحقيقها، وإن الأمر لم يعد يتعامل بتلقين بنية

نحوية معينة، بل إنّه يتعلق بتوفير الوسائل اللّسانية التي تسمح للمتعلم بإجراء اختبار بين مختلف الأقوال وذلك حسب المقام. فأن يعرب المرء عن اعترافه بالجميل لطرف ما معناه إجراء فرز داخل سلسلة من التأديات والانتباه إلى ردود فعل الطرف المقابل ... وبالإضافة إلى هذا، لا بدّ من وضع هذه الأقوال في إطار تقابلي حتى يتمكن المتكلم من متابعة جريان التبادل في مختلف أطوراه:

- رجاء (طالب خدمة/ عرض مساعدة)؛
- قبول (تقديم الخدمة/ وقبول تلقيها)؛
- احتمال الرفض؛
- تحقيق الخدمة من قبل المحسن؛
- إسداء الشكر؛
- ردّ الفعل إزاء الشكر (التقليل من شأن الخدمة المقدمة)؛

ويمكننا أن نقترح على المتعلمين – ذوي التحصيل المتقدم تمريناً أصعب يتمثل في حملهم على إيجاد – وذلك انطلاقاً من فعل كلامي معين – الأفعال الأخرى التي يمكن أن ترتبط به، فعلى سبيل المثال، يمكن تدريبهم– بإزاء فعل الاتهام– على البحث عن الأفعال التي يمكن إنجازها في مقام معين:

- تجاهل الاتهام؛
- قبول الاتهام؛
- التبرء من التهمة بإلصاقها لشخص آخر؛
- الاعتذار؛
- المطالبة بالأدلة؛
- تبرير الفعل.

ولقد شمل هذا التحديد العميق اللّغة الأم نفسها؛ فبالنسبة للغة الألمانية اقترح نفر من المؤلفين (1974) خطاطة لوحدة تربوية لفعل (الأمر) واهتم هؤلاء المؤلفون بخمسة أوجه هامة لأفعال التبليغ وهي على التوالي: علاقة المعنى بالتركيب الأسلوب، شروط الإنجاز، العوامل النفسية، العوامل الاجتماعية، وثمة تمارين عدّة ومتنوعة تشمل أهمّ الأبعاد التبليغية. وفيما يلي بعض الأمثلة من اللّغة الألمانية التي دعم فيها المؤلف رأيه فيها على فعل الأمر الذي وقع التصديق علية من نفر من العلماء:

Bitte, putz die tafel = من فضلك امسح السبورة

Poutz die tafel, damit wir weiterrechnen = امسح السبورة حتى نتمكن من مواصلة الحساب

Ware es nicht gut jetz die tafel zu putzen= أليس من الأحسن مسح السبورة الآن؟

Wir bitten das ranchen im wartezimer zuunterlassen= نرجو منكم الامتناع عن التدخين في قاعة الانتظار

Ich behaefle ihnen das local sofort zu verlassen =آمركم بمغادرة المؤسسة فوراً

Wishen sie endlich die tafel abl= امسح السبورة

Tun sie bitte wening fett an die brakartoffeln= ضع قليلا من الشحم في البطاطا من فضلك.

Plakate ankleben verboten ! =الإلصاق ممنوع

ويمكننا بعد هذا اقتراح سلسلة من التمارين:

– ابحث عن الشروط السياقية والصفات المميزة للمشاركين.

– صف المقامات في حال الأقوال الإنشائية.

– ابحث عن أسباب نجاح أو إخفاق بعض الأقوال.

– اشرح استخدام اللّغة المناسبة واللّغة غير المناسبة وصف العلاقات الاجتماعية القائمة بين المشاركين.

– اشرح مفارقة المثال (8) (في حال إلصاق الملصق afficheur للافتة ما)

ونرى هكذا بأن توجه صناعة التعليم الحالية يقوم على إيلاء المتعلم الأولويات من جهة أخرى، ذلك لأنّ مفهوم التبليغ هو الذي يجب أن يكون الأسبق والمحرك وليس اللّغة، وإن الاهتمام بالمتعلم يعني الاعتراف الكلي بأنّ هدفه هو التبليغ لا لإحكام اللّغة وحذقها، وأنّ هذا الوجه الأخير سوى وسيلة وليس غاية في حدّ ذاتها ووسيلة واحدة ضمن وسائل أخرى، ولا يجب ههنا أن نبالغ في شأن إمكانات هذا التخصص، وأن نجعل دور صناعة التعليم يقتصر على التنفيذ الساذج، وإنّ باب الجدال لم يغلق بعد ولكن اللافت للنظر هو أن نتائج اللّسانيات التداولية قد سمحت بمراجعة جذرية لمناهج التعليم والتدرج والاختبارات ومراقبة المعلومات، وبخاصة نمذجة التمارين التي اتسعت قائمتها كثيراً. وإنّ كانت هذه المناهج مبنية على حاجات المتعلمين المهنية والاجتماعية، فإنّها ترنو إلى تطوير ملكتهم التبليغية وجميع المؤلفين يؤكّدون ويلحون على بعدين أساسيين لتحديد التعليم:

– البعد المعرفي: توفير معلومات والتشجيع بقصد حمل المرء على التخاطب دون عوائق نفسية وتحرير السلوكات اللّغوية في حدود الاحترام المتبادل؛

– البعد التداولي: تكوين الاستعدادات اللّغوية وتطويرها بقصد التبليغ الأمثل والأحسن، ومن ثم الحصول على فعالية اجتماعية أكبر.

وخلص في الأخير إلى أنّ اللّسانيات التداولية المنبثقة من التفكير الفلسفي في اللّغة سرعان ما تجاوزت دورها الأول، فقد فتحت آفاقاً واسعة على ميادين أخرى عديدة، وذلك بفضل المعرفة المتراكمة وكذا التجربة ضمن التفاعل الدائم بواسطة اللّغة. ولا أدل على ذلك من أنّ أهمّ توجهاتها أصبحت ... في الاقتصاد من أجل إدماج الفرد في المؤسسة، والذي أصبح الضمانة الأساسية للمردود الأكبر. ونلاحظ فيه إثقال المتن، لكن مرامنا كان يتمثل في مدّ القارئ – أخص بالأولوية هنا طلبة نهاية الليسانس وطلبة ما بعد التدرج– بالمبادئ الأساسية التي تمكنهم من ولوج اللّسانيات التداولية. وأحب أن أنهي هذا بإيراد قول لـــ: سورل، وهو عندي بمثابة تحية للتعاون القائم بين باحثي التخصصات المتعددة، كما هو عندي بمثابة دعوة إلى السير في هذا السبيل: في المرحلة الراهنة من التطور، توغل اللسانيون في جلّ الأقطار فيها والتي ظلت حكراً على الفلاسفة. وإن كتابات فلاسفة من أمثال أوستين وغرايس وغيرهما قد أضحت الآن في عداد أدوات العمل التي تعتمدها اللّسانيات المعاصرة، وإن التعاون بين اللّسانيين والفلاسفة لهو مثمر جدا لاسيما فيما يتعلق بدراسة ما هو عندي من قبيل أمهات القضايا من حيث تحليل اللّغة.

وأورد في الأخير مسرّد لأهم المصطلحات الواردة في المتن، وفهرس الموضوعات.

الهوامش:

---

1 – مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، ط4. القاهرة: 2004.، ص 305.

2 – خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، ط2. الجزائر: 2006، دار القصبة للنشر، ص9.

3 - J. Caelen, élément de linguistique et de pragmatique que pour la compréhension automatique, français, clips, p4.

4– عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ط1. الجزائر:2003 منشورات الاختلاف، ص 9.

5 – جيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، تر: محمد يحياتن، الجزائر: 1992، ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية– بن عكنون ، ص4–5.

6– ينظر، نفس المرجع، ص 8 –9.

7– المرجع نفسه، ص 11.

8– المرجع نفسه، ص 13.

9 – نفس المرجع، ص 30.

10 – نفس المرجع، ص 33.

11– ينظر: محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي: دراسة تطبيقية في اللّسانيات التداولية، المغرب: 2010 أفريقيا الشرق، ص 8–9.

12– تمام حسان عمر، اللّغة العربية معناها ومبناها، ط5. مصر: 2006، عالم الكتب، ص 10.

التداولية من الملفوظات إلى الخطاب

أ.علوشن جميلة

جامعة مولود معمري، تيزي–وزو

تحوي الرموز قوّة خاصة يمكنها أن تتحكّم في الآخرين، سواء كان في سلوكهم أو في شعورهم تجاه الأشياء، وهذا ما ستؤكّده التداولية المعرفية التي تطوّرت عن التيار الوظيفي. بدأ الاهتمام بفاعلية اللغة بفضل نظرية **أفعال الكلام** من خلال محاضرات "**أوستين**" بعنوان "**كيف ننجز الأشياء بالكلام**" الذي انطلق من فرضية "**أنّ الكلام يتمثّل في تبليغ الغير بعض المعلومات عن الشيء الذي يتمّ الكلام عنه لكنّه يتمثّل أيضا في محاولة التأثير في المخاطب، والعالم المحيط، ووجود ملفوظات هي ملفوظات انجازية بتوفّر بعض الشروط،**[1] كوجود المتكلم المناسب الذي سيتلفظ بالكلمات المناسبة، الموجّهة للمتلقي المناسب في المقام المناسب، فلا يتحقّق المقصد الذي يريده رئيس المصنع إذا لم يكن متوجّها بكلمات مناسبة إلى متلقي غير عماله.

معنى هذا أنّ **التداولية تجاوزت الدراسة البنيوية للغة إلى دراستها في سياق استعمالها بمراعاة كلّ ما يحيط بها من أحوال وما تخضع له من مقاصد المتكلّمين،**[2] ويختلف نوع التأثير المتحقّق، فيمكنه أن يكون تأثيرا إيجابيا، أو سلبيا حسب نية المتكلّم. لقد **ظهر المصطلح لأوّل مرة عند الأمريكي "تشارلس موريس" عند تمييزه بين ثلاثة أبعاد للدّليل السميائي والمتمثلة في:**

*** البعد التركيبي: هو مجموعة العلاقات القائمة بين التعابير اللغوية (الكلمات)**

*** البعد الدلالي: العلاقة الجامعة بين الرموز وعلاقاتها بما تشير إليه (المرجع)**

*** البعد التداولي: وهو المعنى الذي تكتسبه الألفاظ عند مستخدميها ومفسّريها.**[3]

من أهمّ مفاهيم التداولية نجد: **الفعل الكلامي، ونظرية الملاءمة، والقصدية متضمنات القول...**[4] لنبدأ بفعل الكلام.

1. الفعل الكلامي/ الإنجازي: ظهر لأوّل مرة الفعل الكلامي في محاضرات الفيلسوف الإنجليزي "ج.أوستين" الذي طوّر البعد التداولي المكوّن للدّليل من خلال رفضه لفكرة **كون العبارات اللغوية محصورة في وظيفة وصف الواقع، والحكم على مدى صدقها أو كذبها بمدى مطابقتها للواقع،**[5] فعبارة الجو جميل تكون صادقة إذا كان كذلك في الواقع أثناء عملية التلفظ. ميّز "أوستين" في البداية بين نوعين من الجمل: **أولا، الجمل الوصفية التي تصف الواقع، لا يمكن الحكم عليها بمعيار الصدق أو الكذب. ثانيا، الجمل الإنشائية (الاستفهام، الأمر، التعجب..) التي لا يمكن الحكم عليها بمعيار الصدق أو الكذب،**[6] ليكتشف عدم فعّالية التمييز بحكم وجود جمل لا تتوفّر فيها الشروط (ضمير المتكلم، زمن الفعل..) لكنّها تقوم بتحقيق الفعل الإنجازي، فالقول مثلا لشخص أثناء الخروج من البيت: الجو غائم سنقوم بإنجاز فعل، وكأنّنا نطلب منه إحضار مطرية، **ليستغني فيما بعد عن هذا التمييز، يكشف عن مفهوم الفعل المتضمّن في القول.**[7]

بمعنى أنّ كلّ الأقوال تحوي على فعل، فاقترح تمييزا جديدا للأفعال القولية منها: **أوّلا، الفعل القولي (التلفظ)، ثانيا، الفعل المتضمن في القول (الفعل المتحقق بقولنا شيئا ما)، وأخيرا نجد فعل التأثير بالقول (الفعل المتحقق نتيجة قولنا شيئا ما).**[8] يواصل تلميذه "سيرل" أعمال "أوستين" لكن هذه **المرة بتركيزه على الأفعال المتضمنة في القول، بتمييزه في الجملة بواسم المحتوى القضوي، فالقول: أعدك بالحضور، أعدك هي القوة المتضمنة في القول، فالوعد هو المقصود بالحضور غدا، ولإيصال ذلك سينتج الجملة بفضل القواعد اللّسانية**[9] الذي يمثّل المحتوى القضوي، أو المعنى الناتج عن انضمام المفردات إلى بعضها البعض، ووضع "سيرل" **شروطا لنجاح الفعل المتضمن في القول، كالقواعد التحضيرية (مقام التواصل، اللغة، النزاهة..) بالإضافة إلى قاعدة المحتوى القضوي (إسناد المخاطب إلى نفسه إنجاز فعل) – القواعد الأولية (اعتقادات تمثل خلفية، كتمني المتكلم أن ينجز العمل الذي أمر به) وأخيرا قاعدة النزاهة المتصلة بالحالة الذهنية للقائل (كأن يكون أثناء الوعد أو الإثبات نزيها).**[10]

وتجاوز التداولية السياق المنحصر في الجملة، إلى السياق بمعناه الواسع الذي يعرّفه "جان ديبوا" **كونه مجمل الشروط الاجتماعية التي تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي، واستعمال اللغة، كما أنّها المعطيات المشتركة بين المرسل والمتلقي، والوضعية الثقافية، والنفسية والتجارب، والمعلومات الشائعة بينهما.**[11] يدلّ **على تأثّرها بالعلوم الأخرى كعلم الاجتماع، وعلم النفس المعرفي، وعلم الاتّصال، واللّسانيات وغيرها.**[12] ففي علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي **يتعلق الأمر بالمشاركين في الخطاب ووضعهم**

الاجتماعي، الذين يستندون في تفاعلاتهم إلى تمثلات مجتمعهم،[13] إضافة إلى وجود أقطاب التواصل المعروفة، كالمخاطب، والمتلقي، والرسالة. ونحن ما يهمّنا تأثّر التداولية بالتيار المعرفي، ليظهر ما يعرف بالتداولية المعرفية التي ستمتح منها دراسة الخطابات الثقافية.

2- **نظرية الملاءمة/ المناسبة: (la théorie de la pertinence)** يعتبر كلّ من "سبربر" و"ولسن" من مؤسّسي التداولية المعرفية، وذلك بتأثّرهم **بالنظرية المعرفية المهتمة بكيفية اشتغال الذهن البشري من خلال مزجهم بالرؤية المنظومية التي اقترحها "فودور"، وحسبه الذهن يشتغل بشكل تراتبي، فالمحولة تترجم معطيات الإدراك الحسّي بواسطة النظام الطرفي (نظام شمّي، ونظام سمعي، ونظام لغوي وغيرها) كتأويل أوّل، ويتدخّل النظام المركزي(الدماغ) للتّأويل النهائي بواسطة المعلومات المخزنة في الدماغ التي تضاف إلى المعلومات المقدمة من طرف المحولة، والأنظمة الطرفية.**[14]

أمّا على المستوى اللّغوي يكون اشتغال الذهن كالتالي: يتمّ إدراك الظاهرة اللغوية بالمحولة الخاصة بها، لتتدخل **الأنظمة الطرفية لتأويل ملفوظ، يكون التعامل مع الملفوظ منحصرا في المستوى الصوتي، والتركيبي، والدلالي، ليتم التأويل النهائي في الأنظمة المركزية حيث تتكوّن فيها الفرضيات من عملية الاستدلال (التأويل)**[15] المطابقة للواقع، ممّا يحيل إلى مبدأ المناسبة الذي هو أساس التداولية المعرفية، المختزل للنظرية الحوارية عند "غرايس" القائمة على:

*** الكمية / الكم: تقديم القدر المطلوب من المعلومات.**

***الصدق/ الكيف: تقديم معلومات صحيحة، وغير خاطئة.**

*** الملائمة: ملائمة المعلومات للحوار فلكلّ مقام مقال.**

*** الطريقة/ الوضوح: بتجنّب الغموض ومخاطبة الآخرين على قدر خلفياتهم المعرفية.**[16]

ومبدأ المناسبة أو الملاءمة مبدأ **ليس معياري، يفرض على المتلفظ التلفظ بأقوال مناسبة من جهة، كما يستعمله المتلقي بغير وعي أثناء عملية التأويل من جهة أخرى، ليتم وفقه انتقاء المعلومات التي تنتمي إلى السياق أثناء عملية تأويل قول ما.**[17] ليتوصّل كلّ من "سبربر" "وولسن" إلى أنّ **الأفراد يهدفون إلى تمثّل صادق، ويتناسب مع قدراتهم المعرفية، ممّا يجعل من اعتقاداتهم قابلة للخطأ، وأنّ الخطأ ممكن.**[18] ممّا يحيل إلى مفهوم النسبية الذي ظهر في الدراسات الثقافية.

3. **متضمنات القول: (les implicites)** تنتج متضمنات / **تضمينات القول التي لا يصرّح عنها المتكلم عن عملية انتهاكه لمبدأ من مبادئ النظرية الحوارية**[19] السابقة، وتنقسم متضمنات القول إلى:

أ. الافتراض المسبق(prés-supposition) هي المعطيات المعترف بها، التي تشكّل الخلفية التواصلية، وتكون وليدة السياق الكلامي،[20] فالمتكلم لمّا يتكلّم مع شخص في موضوع الزواج مثلا، هذا الأخير يلجأ إلى مخزنه المعرفي، الذي يحوي نفس الأفكار والمعايير المرتبطة بالموضوع، ليتمكّن من التفاعل مع المتكلّم.

ب. الأقوال المضمرة: (les sous entendus) هي التأويلات المتعدّدة للأقوال **المرتبطة بوضعية الخطاب، ومقامه،**[21] الناتجة إلى جانب المعنى الحرفي، وتمثّلها

عند "غرايس" ما أسماه بالاستلزام الحواري، فلمّا يدعو شخص صديقه للخروج ليلا، ويجيبه بأنّه سينام باكرا، سيفهم ذلك الشخص أشياء كثيرة:

* أنّه لا يريد الخروج معه.

* سيعمل غدا.

* تلقّى دعوة من شخص آخر..... وغيرها من التأويلات.

- **التداولية ضمن دراسة الخطابات الثقافية:**

لقد **تطورت التداولية ضمن مجموعة من المقاربات اللغوية، من بينها تحليل الحوار، وتحليل النص، لتستوي مع تحليل الخطاب، ليكون ما يعرف بالتحليل النقدي للخطاب**[22] أي أنّها تجاوزت العبارات الممثلة للغة الطبيعية، لتهتم بالنص لتصل في الأخير إلى مستوى الخطاب، فتحلّله وتتعامل معه كما تتعامل مع العبارات، فالخطاب ينتج انطلاقا من خلفية معرفية مشتركة بين المتخاطبين ووجود السياق بمعناه الواسع (المقام، عناصر التواصل، القصدية...) ورغم أنّ **الخطاب لا يختزل في مجموعة تأويل الأقوال التي تكوّنه، إلاّ أنّ تأويلها تقرّب إلى التأويل الإجمالي، أو يمكّن من نسبة مقصد إجمالي لقائله.**[23] فالمرشّح للانتخابات يمكن أن يؤوّل خطابه إلى انتخبوا عليّ، أو أنا الأفضل وغيرها من التأويلات الممكنة.

ومن الأدوات التي يستخدمها التحليل النقدي للخطاب:

* **التعددية: وهو أن يذكر جانبي الصراع، من الظالم ومن المظلوم.**

* **اختيار المفردات: وتكون إيجابية أو سلبية، تكرار، إيجاز...**

* **الألقاب والصفات: بطل عظيم، كاذبة.**

*** الاستعارات والتشبيه.**

*** الإثبات والنفي: لا تفعل ذلك، أظنّ أنّ....**

*** درجات اليقين: اليقين قرين السلطة، وقرين المطلق، كاستعمال "يجب" "لا بدّ" "المطلوب" "عليكم فعل كذا"...**

*** التجميل: تسمية الأشياء القبيحة بأسمائها، الشتم.**[24]

لقد تغيّر مفهوم الخطاب في الدراسات الثقافية، فلم يعد منحصرا في مجال النّص، بل تعدّاه إلى مجالات أخرى، كالمجال الثقافي **كخطاب سلطة،**[25] ففي البداية كان مفهومها مقتصرا على الجانب المادي، ليتغيّر المفهوم إذ **يتعدّى المفاهيم المعروفة من حسن السلوك، والمتاحف والمسارح، أو قمة التقدّم المادي الخ ليتمثّل في مضامين الوعي والأحاسيس والتصورات المشتركة بين أعضاء الجماعة الاجتماعية المتوارثة اجتماعيا بالتلقين وليس بالوراثة، بما في ذلك التجسيدات المادية لتلك المضامين، والمشاعر والتصورات من صور الفعل والمصنوعات التي يقوم بها الإنسان، ليصيغ منها المعايير والقيم.**[26]

ويحيل القول إلى فكرة نظرية "فعل القول" والقوّة الإنجازية للغة، التي لا تنحصر في نقل الإخبارية، بل تغيّر العالم أو الشخص من حالة إلى أخرى، حين **تتجسّد** على شكل ممارسات يفرضها **صانع الخطاب** على المتلقي، لغرض تحقيق **مقصده،** وقد عمل بعض مفكّري ما بعد الحداثة بمسألة التحليل النقدي للخطاب مثل المفكر "إدوارد سعيد" الذي اشتغل بخطاب الاستشراق أو الخطاب الكولونيالي الذي هو **أيّ قول أو كتابة أو معتقد يتمّ عبره التعرّف على العالم وفهمه، تحوي عبارات محكومة بقواعد منتجة للغة السلطة الحاملة لمعرفة خاضعة لأنا**

المركز،[27] القائم **على الثنائية الضدية، كالأنا / الآخر، الطيب / الشرير،الأبيض / الأسود (الملون) الفوقي / الدوني.**[28] الممثّل لطرفي الصراع، فالأنا، والطيب الأبيض هو الطرف الأوّل، أمّا الآخر، والشرير، والأسود هو الطرف الثاني.

فالخطاب الكولونيالي المصطنع، مقصده الإجمالي: الأوربي هو الأرقى على الإطلاق من الآخر المختلف، أمّا خطاب الجنوسة الذي اهتمّ به العالم الفرنسي "بيير بورديو" الذي يرى من أنّ **الهيمنة مستقطبة بين مهيمِن ومهيمَن عليه**[29] أو الذكر والأنثى، مقصده الإجمالي هو الأنثى أدنى من الذّكر فتسند في الخطاب الألقاب والصفات الإيجابية، كالعظيم، والخيّر، والذكيّ، والقويّ... للذكر، كما تدرج فيه صفات الآخر السلبية كالشريرة، والساحرة، والكاذبة، والدنسة... وغيرها من المفردات الحاملة **لقصد** التقليل من شأنها. أمّا الخطاب السياسي **بوصفه معجم سلوكات وكلمات**[30] الذي حلّله ونقده "**ميشيل فوكو**" ثنائية الصراع فيه هو الحاكم والمحكوم، ويخضع هذا الأخير لقوانين الأوّل، أمّا الخطاب الإشهاري الذي نقده السميولوجي "رولان بارث" يقوم على ثنائية المستهلك والمنتج، وينتج هذا الأخير خطابا مبنيا على مفاهيم: الجودة / الرداءة، غال / رخيص، الراحة / التعب السرعة/ البطء... وغيرها من المفاهيم والعبارات المتكوّنة من الخلفية المعرفية المشتركة لكلّ من المنتج والمستهلك، فيسعى لإنتاج خطاب محتوى في سياق بمعناه المجمل(خطاب مناسب، متلقي مناسب، مقام مناسب...).

ويسمي "بورديو" المعرفة المشتركة التي يتمّ تأويل الفرضيات وفقها في خطاب الجنوسة بالترسيمات (schèmes) الموافقة لعملية إدراك الأعضاء التناسلية فالألقاب والمواصفات المكونة لخطاب الجنسين قائمة على تلك الترسيمات، فمفهوم

الخيّر المسند للذّكر ناتج عن عملية إدراك عضوه التناسلي ذو خاصية اللون الفاتح ونجد مفهوم السلبية المسند للأنثى، ومفهوم الفاعلية المسند للذّكر حسب **النظرية البيولوجية ناتج عن عملية إدراك البويضة، والحيوانات المنوية.**[31]

و**تبنى كوسمولوجية مجنّسة، مستخلصة من الجسد الذّكري والأنثوي**[32] وفق تلك الترسيمات التي نجد ما يقابلها في التداولية **بالافتراضات المسبقة** التي يعود إليها المتكلّم، لبناء خطاب يخدم قصده، كما يلجأ إليها الطرف الآخر من دون وعي لتأويل خطاب الآخر، كي ينجز الفعل الذي يُأمر به، ويمكن القول أنّ المقصد في الدراسات الثقافية أو التحليل النقدي للخطاب يقابله مصطلح "**النسق المضمر**" الذي يمرّر عبر مختلف الخطابات في صيغ مختلفة، كالصيغة الأخلاقية المناسبة للترسيمات، التي يستعمل فيها عبارات اليقين، فنجد في خطاب الجنسين حول الأنثى عبارات **عليها أن لا تدخل إلى البيت في ساعة متأخرة**، أمّا في الخطاب ألإشهاري يأتي في صيغة الإغراء الدالة على اليقين، **نضمن لكم الجودة**، كما يمكن أن يأتي في صيغة التهديد في الخطاب السياسي، كالقول **نتتشدّد على كل مخالفة.**

وفي الأخير نستطيع القول من أنّ تطوّر التداولية واحتكاكها بالتيارات الأخرى مكّنها من تحديد موقعها بالنّظر إلى اللّسانيات، كما أنّها أضافت خاصية جديدة للغة وهي القوة الإنجازية التي استفادت منها دراسات تحليل ونقد الخطابات، كما مكّنتها من إسقاط فكرة المطلق السائدة في الفكر التقليدي، وتحلّ مكانها فكرة النسبية.

الهوامش:

---

1 – باتريك شارودو– دومنيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهيري– حمّادي صمود، دار سيناترا، تونس، 2008، ص20.(تصرف)

2 – بهاء الدين محمد مزيد، تبسيط للتداولية، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010، ص158.(تصرف)

3 - http : /// www.ta5atub.com.

4 – مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، 2005، ص 30(تصرف)

5 – خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، 2009، ص 89.(تصرف)

6 – جاك موشلار– آن روبول، التداولية اليوم، ترجمة: سيف الدين دغفوس– محمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، إشراف: جان لوي سليغل، دار الطليعة، لبنان، الطبعة الأولى، 2003، ص31. (تصرف)

7 – المرجع نفسه، ص32.(تصرف)

8 – المرجع نفسه، ن ص.

9 – المرجع نفسه، ص33.(تصرف)

10 المرجع السابق، ص34. (تصرف)

11 - Voir : Jean Dubois, dictionnaire de linguistique, librairie Larousse, 1973, p120-121.

12 – بهاء لهويمل، التداولية والبلاغة العربية، مجلة المخبر: أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، العدد السابع، جامعة محمد خيضر، بسكرة– الجزائر، 2011، ص 155. تصرف

13 – باتريك شارودو– دومنيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص 25. تصرف

14 – جاك موشلار– آن روبول، التداولية اليوم، ص73–74.(تصرف)

15 – مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 37. (تصرف)

16 – بهاء الدين محمد مزيد، تبسيط للتداولية، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010، ص40.(تصرف)

17 – جاك موشلار– آن روبول، التداولية اليوم، ص 86– 87.(تصرف)

18 – المرجع نفسه، ص 105.(تصرف)

19 – بهاء الدين محمد مزيد، تبسيط للتداولية، ص44(تصرف)

20 – مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 30–32.(تصرف)

21 – المرجع نفسه، ص33.(تصرف)

22 – بهاء الدين محمد مزيد، تبسيط للتداولية، ص20.(تصرف)

23 – جاك موشلار– آن روبول، التداولية اليوم، ص 214–216.(تصرف)

24 – بهاء الدين محمد مزيد، تبسيط للتداولية، ص111–112.(تصرف)

25 – رولان بارث، درس في السميولوجيا، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي تقديم: عبد الفتاح كليطو، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء– المغرب، الطبعة الثانية 1986، الطبعة الثالثة، 1993، ص23. (تصرف)

26 – محمد الجوهري، المدخل إلى علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 2007، ص83.(تصرف)

27 – إدوارد سعيد، كتابة التاريخ، ترجمة: أحمد خريسي، ناصر أبو الهجاء، أزمنة للنشر، الأردن، الطبعة الأولى، 2007، 13. (تصرف)

28 – المرجع نفسه، ص 16.(تصرف)

29 – ينظر: بير بورديو، جان كلود باسرون، إعادة الإنتاج، ترجمة: ماهر تريمس، مراجعة: سعود المولى، مركز دراسات الوحدة العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2007، ص47.

30 – حسن المصدق، البيولوجيا السياسية بين سلطة المعرفة ومعرفة السلطة(6): أنظمة الحقيقة وبنيات المجتمعات في فلسفة ميشيل فوكو، صحيفة العرب، الخميس 30 أوت 2007.(تصرف)

31 – ينظر: سيمون دي بوفوار، الجنس الآخر، ترجمة: لجنة من أساتذة الجامعة، دار أسامة، بيروت، 2006، ص17–31.

32 – بيير بورديو، الهيمنة الذّكورية، ترجمة: سليمان القعراني، مراجعة: ماهر تريمش، المنظمة العربية للترجمة، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، 2009 ص24.(تصرف)

الافتراضات المسبقة وعلاقتها بالتحليل التداولي

أ. فليسي أمين

جامعة مولود معمري، تيزي–وزو

يرجع الفضل في ظهور التداولية كمنهج ونظرية إلى الفيلسوف الإنجليزي "أوستين" وهذا عند صدور كتابه المعنون بـــ"كيف نصنع الأشياء بالكلمات"، حيث تتحدد عنده التداولية على أنها دراسة التعامل اللغوي من حيث هو جزء من التعامل الاجتماعي. وهذا يعني انتقالنا من المستوى النحوي واللغوي والنفسي للغة إلى مستوى التأثير والتأثر من خلال استعمال اللغة لتحقيق التواصل.

إنّ الجدل القديم–الجديد حول انغلاق النص الذي تبناه أصحاب الاتجاه اللغوي أو انفتاحه على محيطه كما تبناه أصحاب الاتجاه الاجتماعي ظلّ قائما وما زال إلى يومنا هذا.

فبالرغم من أنّ "جورج لوكاتش" لم يكن بنيويا إلا أنّه كان من أوائل النقاد الماركسيين الذين ربطوا بين بنية العمل الأدبي وبين المحيط الاجتماعي الذي أنتجه[1]. لكن هذا الاتجاه تبلور في شكل نظرية بنيوية متكاملة فرضت نفسها في مجال دراسة النص عند الناقد "لوسيان جولدمان" في ما أسماه بالبنيوية التكوينية أو التوليدية. و"جولدمان" بنيوي غير أنّه كان ينظر إلى البنية باعتبارها واقعا حيّاً متحرِّكا وفق النظرة الجدلية للواقع، ويرفض تبعا لذلك النظر إلى العمل الأدبي مفصولا عن محيطه الثقافي والاجتماعي، ويضرب لذلك مثلا طريفا حين يقول:

«كأننا ندرس التفاحة دون أن نأخذ بعين الاعتبار الشجرة التي أنتجتها والمحيط الزراعي والمناخي الذي عاشت فيه، فدراسة التفاحة في حدِّ ذاته مهمٌّ ولكنها تصبح أهمّ وأشمل إنْ لم تُفْصَل عن الشجرة والمحيط الذي عاشت فيه».

هكذا ظلّ هذا السِّجال الذي تحدّثنا عنه قائما، لكن الشّك لم يتطرّق أبدا إلى البنيوية نفسها التي بدت إلى غاية منتصف الستينات قادرة على تفسير كل شيء حتى جاء "جاك دريدا" وقام بالمحاولات الأولى الجادة في نقد البنيوية والعمل على تجاوزها فيما عُرِف عنده "بـــ **التفكيكية**"[2].

ويشير "دريدا" في نظريته إلى أنّ فكرة النص المنسجم الذي يشكِّل وحدة تامة ومنغلقة لا وجود له، ولا يوجد هناك نص أصيل أو متجانس، ومن هنا يلتقي "دريدا" مع "كريستيفا" في ما تسميه "تكوينية النص" أو "أصوله".

ومن الأهمية بما كان ربط هذا الكلام بما جاء في كتاب آن ربول وجاك موشلار حيث سنحاول في هذه القراءة أن نقوم بتحليل ونقاش بعض النقاط التي جاءت في الجزء الثالث من كتابهما Pragmatique du discours وهو جزء معنون بـــ: Vers la construction d'un sens commun "نحو بناء معنى مشترك"، وانتقينا من هذا الجزء عنصرا يحمل عنوان: بناء معنى مشترك.

يقول مؤلفيْ الكتاب جاك موشلار وأن ربول: "علينا أن نُعرّف الخطاب على أنه: "تركيبة من الملفوظات غير الاعتباطية، أي أنها لم تتشكل بطريقة غير متقنة فالخطاب غير الاعتباطي تحكمه مجموعة من القواعد الشكلية أو النظامية."[3]

وكما ينص على ذلك تحليل الخطاب، أن صفة غير الاعتباطية تكمن في ذلك التصنيف، الذي ورد داخل نظرية الملائمة والمتمثل في تصنيف المقصدية إلى:

"المقصدية الإخبارية الموضعية والتي لها علاقة أو مرتبطة بالملفوظات، ومقصدية إخبارية إجمالية متعلقة بالخطاب، وهاتين المقصديتين تتماشيان وتصُبّان في مقصدية تواصلية، ومن هنا قيل بأن الخطاب هو عبارة عن متتالية من الملفوظات غير الاعتباطية، لأن كل مقصدية إخبارية مرتبطة بملفوظ من ملفوظات خطاب ما، وبالتالي فالمقصدية الاخبارية الإجمالية مرتبطة بهذا الخطاب."[4]

أبرز جاك موشلار وآن ربول عدّة عناصر تساعد على إيجاد معنى مشترك داخل الخطاب، ومن بين هذه العناصر، نجد عنصر: "تأويل الخطابات وبناء الفرضيات المسبقة."

إن الإشكالية المطروحة هو كيف بإمكان المخاطب أن يبني افتراضات مسبقة حول المقصدية الإجمالية للمخاطب؟ وهل تأويل الأقوال (الملفوظات) هو تأويل للخطاب؟ أي هل تأويل الخطاب هي مجموع تأويلات الأقوال التي تكونه؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات يقول مؤلفي الكتاب: "أن لكل صاحب خطاب ما إلى جانب مقصديته الإخبارية الموضعية من كل قول ينتجه مقصدا إخباريا إجماليا يتعلق بمجموع خطابه."[5]

وهذه الفكرة الأخيرة هي ما كان يريد الوصول إليها صاحب الكتاب من خلال هذا العنصر حيث يقول جاك موشلار وآن ربول أن تأويل الخطاب مثله مثل تمثيل الملفوظ (القول) يقوم على آليات مستقاة من نظرية الملائمة.

وهذه الآليات هي: مثلا يكون تأويل الأقوال مثله مثل تأويل الخطابات يحدث على المستوى المركزي أو النظام المركزي للذهن وذلك عن طريق آلية الاستدلال

الاستنباطي الاستنتاجي، على أن الأولوية تكون للملفوظ (للقول) مع الأخذ بعين الاعتبار الافتراضات السياقية المأخوذة من عدة اتجاهات أي المحيطة بتلك الأقوال.

إذن فتأويل الأقوال أو الملفوظات مع مراعاة السياق ومراعاة المعلومات الموسوعية، يؤدي إلى تأويل الخطابات، وبالتالي يمكن بناء افتراض مسبق حول المقصدية الإخبارية الإجمالية.[6]

-الاستغلال الحرفي للافتراضات المسبقة: إنه وكما تمت الإشارة إليه سابقا فإن صاحب خطاب ما (l'auteur) يمكن أن يستغل (يستثمر) الافتراضات المسبقة للقارئ بطريقتين أو بكيفيتين:[7]

الأولى: أن الكاتب يمكن أن يؤكد هذه الافتراضات من خلال بقية (تتمة) la suite خطابه. وعلى سبيل المثال قدم مؤلفي هذا الكتاب مثال للكاتب **ستاندال:** وهو عبارة عن قصة شيقة ويعطي فيها مثال جيد عن الطريقة التي يستغل بها كاتب ما بنجاح العمليات التأويلية البشرية ونزعتها أو جنوح هذه العمليات التأويلية للقارئ إلى الاستباق، يقول **ستاندال:** "هل أتجرأ على رواية هذه الحادثة التي أسر إليً بها بعضهم ونحن نتفيأ ظل حائط مقبرة في حقل برسيم ذي خضرة ساحرة؟ لم لا أرويها؟ لقد جلبت لنفسي العار لفضحي الحقائق التي تصدم الذوق العام سنة 1838:

لم يكن القس طاعنا في السن البتة وكانت الخادمة جميلة وكثر القيل والقال ولكن هذا لم يمنع أحد شبان قرية مجاورة من مغازلة الخادمة.

وفي يوم من الأيام أخفى ذلك الشاب ملاقط المطبخ الصغيرة في سرير الخادمة وعندما عاد بعد ثمانية أيام سألته الخادمة: "هيا، قل لي أين أخفيت

الملاقط الصغيرة؟ لقد بحت عنها منذ رحيلك في كل مكان. كف عن هذا المزاح الثقيل .....".[8] قبلها عشيقها وقد اغرورقت عيناه بالدموع ورحل.[9]

إن القارئ ومن الوهلة الأولى سيجنح إلى تأويل ساذج وهو أن **ستاندال** سيعلل سوء سمعته ويحاول أن يبرئ نفسه، أو يمكن عرض افتراض آخر وهو أن **ستاندال** سيحكي قصة صادمة، ولكن وبمواصلة القراءة فإن القارئ سيتأكد بأن **ستاندال** سيروي بأن القس ينام مع الخادمة وبأن الشاب العاشق هو الذي سيكشف الحادثة، وبالتالي فعملية إخفاء الشاب للملاقط (ملاقط المطبخ) سيتيح للقارئ وضع افتراض أو فرضية لما سيكون عليه باقي النص، وهي: لو أنّ الخادمة نامت في سريرها لعثرت على الملاقط، وإلا فهي تنام في غير سريرها وهو سرير القس.

بالتالي تتأكد افتراضات –القارئ– لهذه القصة في آخر النص وهو أن الخادمة تخون حبيبها مع القس.

الطريقة الثانية: أن الكاتب يمكن أن يلغي أو يبطل افتراضات مسبقة من خلال بقية ما يلي من خطابه:

حيث يعرض مؤلفي الكتاب نصا **لكالفينو** وهو نص من كتابه Les villes invisibles وهذا النص منقسم إلى جزئين الجزء الأول يصف فيه **كالفينو Calvino** مدينة **Sophronia** وهي متكونة من قسمين، القسم الأول من المدينة يوجد فيه مكان للتنزه ويحتوي على كل مستلزمات وضروريات التنزه الموجودة مثلا في السرك، والقسم الآخر من المدينة هو عبارة عن عمارات من الاسمنت وجدران من الرخام ومدرسة ومستشفى....أي هي مدينة مجهزة بكل لوازم الراحة.

إن القارئ وللوهلة الأولى يفترض مسبقا أن **كالفيو Calvino** يريد أن يصف مدينة **Sophronia** في خطابه هذا ولكن وبمواصلة قراءة الجزء الثاني من النص (الخطاب) حيث يقول الكاتب **كالفيو Calvino:** "...إنه وفي كل سنة، يشرع العمال في إزالة المداخل المزخرفة بالرخام وإسقاط أسوار الحجارة وأعمدة الاسمنت، وتحميلها على العربات والتنقل من مكان إلى آخر..."، إلى هنا القارئ سيستبق الأحداث وسيتصور في ذهنه افتراضا مسبقا يقول بموجبه أن الكاتب أراد أن يصف لنا كيفية إزالة **عيد سوقي.**[10]

ويواصل **كالفينو Calvino:** "...ويسرع العمال كذلك في إزالة المستشفيات ومصفاة البترول والوزارة، وتواصل هذه المدينة المفككة، والمعبأة فوق العربات مسيرتها، كم من يوم وكم من شهر سننتظر لتعود هذه القافلة لكي تنطلق حياة أخرى"[11] .

إذن يقول ج. موشلار وآن ربول أنه وبمواصلة القراءة، سيدحض القارئ الفرضية السابقة ويصل إلى حقيقة مفادها أن الكاتب أراد العكس مما كان قد استبقه القارئ بافتراضاته المسبقة وهي أن الكاتب أراد أن يبطل أو أن يلغي افتراضات القارئ، وبالتالي فالكاتب **كالفينو Calvino** أراد أن يصف مدينة، حيث يحصل كل شيء فيها عكس الحقيقة أو عكس الواقع، حيث أن العمارات والمنشآت البترولية والوزارة والمباني تُهدم وتُزال وتُنقل إلى مكان آخر ويتم تنصيبها من جديد، **أي *المدينة المثالية الموجودة في الخيال.***

– **<u>افتراضات مسبقة داخل الملفوظات</u>:** إن هذا العنصر يقول **جاك موشلار وآن ريبول** أن الافتراضات المسبقة تلعب دورا في تأويل الملفوظات وإزالة الغموض كما هناك جملا غامضة من حيث التركيب والدلالة، ويقترح المؤلفان بعض الأمثلة:

1- la petite brise la glace.
2- le vieux singe le masque.[12]

1- الجملة الأولى:

تقبل تأويلين:

أ- نسمة الهواء البحرية جمدتها.

ب- الصغيرة كسرت المرآة.

La glace → C.O.D / brise → verbe / la petite → sujet

أو

La glace → verbe / la petite brise → sujet

2- الجملة الثانية:

أ-الشيخ يقلد المقنع

ب-القرد العجوز يخفيه.

Le masque → C.O.D / singe → verbe le vieux → sujet

أو

Le masque → verbe / le vieux singe → sujet

إذن ما يمكن استخلاصه أن هذه التأويلات الأربعة للجملتين السابقتين 1 و2 هي أنّها تأويلات خارج السياق Hors context، وسيزول الغموض طبعا إذا وضعت هذه الجمل داخل السياق (سياق معين).

وبالتالي ففي الجملة الأولى La petite brise la glace، فيمكن لكاتب ما أن يتحدث عن طفلة صغيرة أمسكت في يدها آلة حادة وقامت بتكسير مرآة أو قطعة زجاج. ويمكن أن يتحدث الكاتب أو يعني أنه رأى طفلة صغيرة، وهو على شاطئ البحر، وهي ترتعد من شدة البرد تحت ملابسها الممزقة.

وفي الجملة الثانية Le vieux singe le masque، فيمكن لكاتب ما أن يتحدث عن شيخ داخل مقهى وهو يشاهد شخصا مقنعا يرقص حول الطاولات فقام الشيخ بتقليد المقنع.

أو يمكنه أن يتحدث عن قرد في حديقة الحيوانات وهو يحمي صغيره، فيتساءل الناس أين القرد الصغير؟ فتكون الإجابة: **القرد العجوز يخفيه.**

وفي الأخير، فالكاتبان **آن ربول وجاك موشلار**، وبعرضهما لهذين العنصرين أرادا أن يقدما لنا طريقة معينة لكيفية الوصول إلى معنى موحد وجامع سواء داخل الملفوظات أو داخل الخطاب ككل وهذا طبعا بمراعاة السياق الخارجي بمفهومه الواسع.

قائمة المراجع:

- Anne Rebol et J. Moeschler, pragmatique du discours de l'interprétation de l'énoncé à l'interprétation du discours, Armand colin, Paris, 1998.
- Dominique Maingueneau: "Analyser les textes de communication". Nathan. Paris. 2000.
- أحمد منور: "محاولة في فهم أفكار جاك دريدا". مجلة اللغة والأدب. العدد10.

- جورج لوكاتش: "الرزاية"، ترجمة مرزاق بقطاش.
- صلاح فضل: "بلاغة الخطاب وعلم النص"، عالم المعرفة. الكويت 1992
- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي.....

الهوامش:

1 – جورج لوكاتش: "الرزاية". ترجمة مرزاق بقطاش. ص 10.

2 – أحمد منور: "محاولة في فهم أفكار جاك دريدا". مجلة اللغة والأدب. العدد10. ص62.

3 – Voir : Anne Rebol et J. Moeschler, pragmatique du discours de l'interprétation de l'énoncé à l'interprétation du discours, Armand colin, Paris, 1998, P 163.

4 - Voir : Anne Rebol et J. Moeschler, pragmatique du discours de l'interprétation de l'énoncé à l'interprétation du discours, Armand colin, Paris, 1998, P 163.

5– Ibid: P 164.

6 - Ibid: P 164.

7 – Ibid: P 164

8 - Ibid : P 166.

9 – Ibid : P 166-167.

10- Ibid : P 168.

11 – Ibid : P 166.

12- Ibid : P 168.

التداولية بين العملية التواصلية ومقاصد الخطاب

أ. صليحة شتيح

جامعة مولود معمري، تيزي–وزو

مقدمة: استأثرت اللغة باهتمام كبير منذ القديم، كونها الوسيلة التي اعتمدها الإنسان لنقل أفكاره والتعبير عن حاجياته ومشاغله، وما يعتلج بداخله من رغبات مكنونة، إذ حاول من خلالها فهم ما يجري حوله في العالم والولوج إلى ما استغلق عليه فيه، من خلال استخدام مختلف الطاقات والقدرات التواصلية والتعبيرية والاستنتاجية التي تعتمد على العمليات الذهنية التي تحدث في دماغه من أجل فهم الظواهر وتفسيرها والوصول إلى العلاقة التي تجمعه بها.

وقد لقيت اللغة كذلك اهتماما بالغا في الدراسات اللغوية الحديثة، شملت معظم الجوانب التي تحيط باللغة كظاهرة إنسانية، إذ "استوعبت البحوث مسألة علاقة اللغة بالإنسان فأصبحت تطرح على نفسها قضايا تعود إلى اعتنائها باللغة في حدّ ذاتها، وباللغة من حيث هي وليد الفكر وبالفكر من حيث هو مُفرِز للغة"[1]، فلم تعد الدراسات اللغوية محصورة في البحث عن ماهية اللغة أو أصلها فحسب، بل توسَّعت لتشمل جوانب عدّة تميط اللثام عن قضايا جوهرية هي من صميم الدراسات اللغوية.

إنّ الاهتمام بعلاقة الإنسان باللغة وبالوظائف التي تؤديها في حياته قديم قدم البشرية؛ بل ومرتبط بالبحث في أصل نشأتها وتكوّنها كعلامات ناتجة عن القدرة الذهنية التي تنظم عملية التواصل لتحقيق مجموعة من المقاصد التي يرمي إليها

كل من المتكلم والسامع، فكان اهتمام جل النظريات التي حاولت مقاربة اللغة البشرية مُنصبًا على وظيفتها التواصلية التبليغية، لأجل محاولة رفع الستار عن القضايا التي تحدث على مستوى العملية التواصلية، فطرحت عدة إشكالات حول وظيفة اللغة، وكيف تتم عمليات التخاطب؟ وكيف تنجح عملية التواصل؟ وما علاقة اللغة بمستعمليها وفيم تتجلى هذه العلاقة؟ ثم كيف يتم تبليغ المضامين والمقاصد التي يحويها الخطاب أثناء عملية التواصل؟

إنّ الحديث عن العملية التواصلية يجعلنا نستحضر مباشرة الطروحات التي قدّمها سوسير Sausur في حديثه عن دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها دراسة علمية موضوعية ونبذ الدراسات التاريخية والمقارنة قديما، حيث اهتم بقطبي العملية التواصلية (المتكلم والسامع)، وكذلك القدرة المستقبلة والمرسلة، إذ إنّ محوري الاستقبال والإرسال تشكّلهما القدرة على تنسيق الرموز اللغوية والقيام بعملية التلفظ بالنسبة للمتكلم، وكذا القدرة على استقبال وفك وفهم والرسالة من المتلقي،[2] فتكون العملية كالآتي: تكون لدى المرسل رسالة يرسلها إلى المتلقي مستعملا مجموعة من العلامات الاعتباطية التي تؤدي الغرض المطلوب بحيث يقوم المتلقي بفهمها عن طريق العمليات التي تحدث في ذهنه ويعيد صياغتها وفق ما يتناسب مع مقصدية المتكلم ليقوم بدور المرسل بعدما كان مستقبلا سابقا، وهكذا نكون أمام عملية إنتاج وفهم، وإعادة إنتاج، حتى يتم الفهم ويحصل الغرض وتنجح عملية التواصل.

كما نشير إلى الجهود التي قام بها **رومان ياكبسون** Jakobson في مجال التواصل، إذ قدّم نموذجه في شكل دورة للتخاطب، تضم ستتة عناصر (المرسل المستقبل، السنن، السياق، الرسالة، الاتصال)، بحيث "يوجه **المرسِل** رسالة إلى **المرسَل إليه**. ولكي تكون **الرسالة** فاعلة فإنّها تقتضي بادئ ذي بدء **سياقا** تحيل

عليه، سياقا قابلا لأن يدركه المرسَل إليه، وهو إما أن يكون لفظيا أو قابلا لأن يكون كذلك، وتقتضي الرسالة بعد ذلك **سننا** مشتركا كليا أو جزئيا بين المرسِل والمرسَل إليه، وتقتضي الرسالة أخيرا **اتصالا**، أي قناة فيزيقية، وربطا نفسيا بين المرسل والمرسَل إليه، اتصالا يسمح لها بإقامة التواصل والحفاظ عليه"[3]، وجعل ياكبسون لكل عنصر وظيفة يقوم بها، مشيرا إلى الوظيفة المهيمنة في العملية التخاطبية، ومنها انتقل من الاهتمام بالخطاب العادي إلى الخطاب الفني الجمالي من خلال هيمنة الوظيفة الشعرية على الخطاب.

هذا، ويعد الاهتمام بعلاقة اللغة بمستعمليها من صميم الدراسات التداولية، التي عنيت بكل ما يخص ملابسات العملية التواصلية، سواء ما يتعلق بالمرسل والمتلقي أم بالرسالة واللغة أم بالسياق الذي ترد فيه الرسالة، أي اهتمت باللغة أثناء استعمالها وتداولها بين الأفراد، فكانت ميدانا خصبا استلهم منه الفلاسفة والمفكرون، حيث فتحت آفاقا جديدة في دراسة اللغة بتسليط الضوء على أحوال التخاطب وظروفه والغرض منه ومقاصد المتكلمين، حيث تقدم التداولية بمختلف مباحثها واهتماماتها نظرية كاملة في التواصل كونها تعنى بكل وجوه العملية التواصلية، وتجعل نجاح هذه الأخيرة من عدمه رهين بمراعاة كل جوانبها.

1- **التداولية والعملية التواصلية:** يعرف **شانون وويفر** التواصل كالآتي: "هو كل نسق يستند إلى فكر معين ليؤثر في غيره، أي هو انتقال رسالة (مجموعة من الرموز) من مرسل إلى مرسل إليه يشتركان في نفس السنن(الشفرة) عبر وسط وتكون العملية عكسية بغرض التأثير. ونجد نوعين من التواصل: التواصل اليومي والتواصل الفني[4]، فنكون بهذا أمام تعريف يركز على أقطاب العملية التواصلية الثلاث (المرسل والمستقبل والرسالة)، بحيث تستند العملية التواصلية على الفكر

الذي ينتج الخطاب ويحمّله بمقاصده بغية التأثير في المتلقي، سواء كان التواصل باللغة اليومية العادية أو التواصل باللغة الفنية. وترى نظرية التواصل أنّ التفاعل لا ينبغي أن يقتصر على ما هو موجود في الخطاب فقط، وردّ الفعل الذي يحدث تجاهه، بل يجب أن يكون هناك تفاعل قائم بين مصدر الخطاب (المتكلم) ومقصده (السامع)، لأجل إنجاح العملية التواصلية.

ولو أتينا إلى تعريف التداولية لغة لوجدناها مشتقة من التداول، و"التداول التفاعل، وكل تداول يلزمه طرفان على أقل تقدير: مرسل ومستقبِل، كاتب وقارئ على معنى أنّ مدار اشتغال التداولية هو مقاصد وغايات المتكلم، وكيف تبلغ مستمعا أو متلقيا، وكل تداول تحكمه ظروف وآليات وعوامل تحيط به"[5]، ينبغي توفرها أثناء عملية التواصل.

بناء على هذا يمكننا اعتبار التداولية علما للاتصال* لأنّها تتناول كل ما يرتبط باستعمال اللغة وتداولها، وتهتم بدراسة اللغة من جميع المستويات: اللفظية والتركيبية والدلالية وكذا علاقتها بالمتحدثين وعلاقتها بسياق الحديث ونجاحه من عدمه. وهذا ما اهتم به فلاسفة اللغة منذ البدايات الأولى لها مع فلاسفة جامعة أكسفورد؛ أوستين وتلميذه سيرل اللذين ظهرت على يديهما الدراسات الواضحة في نظرية الأفعال الكلامية وانضوت ضمن مباحث التداولية، وذلك بالتركيز على كل متعلقات العملية التواصلية.

يمكن تناول قضايا التداولية استنادا إلى العناصر الاتصالية الآتية (المتكلم السامع، الخطاب) لأنّها الأقطاب المحورية في العملية التواصلية التي يُبنى عليها التخاطب ويتوقف نجاحه عليها. فمعظم الحقول التي بحثت فيها التداولية "تضم مستويات متداخلة، كالبنية اللغوية، وقواعد التخاطب، والاستدلالات التداولية

والعمليات الذهنية المتحكمة في الإنتاج والفهم اللغويين، وعلاقة البنية اللغوية بظروف الاستعمال"[6]، وهذا كله يتم بالتركيز على أقطاب العملية التواصلية أثناء استعمال اللغة وتداولها. ممّا يجعل "قضية التداولية هي إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي والتعرّف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي"[7].

إنّ الغرض من أي عملية تواصلية هو إيصال المعنى وحصول الفهم، و"المعنى ليس فيما يقول النحاة، ولا ما تقول المعاجم، على ما لكليهما من أهمية، ولا في العمليات المعرفية المجرّدة من سياقاتها، لكن فيما يقصد من يستخدم اللغة وما يريد، وفيما يفهم من يتلقاها _استماعا أو قراءة_ وفيما ينتج من دلالات من خلال ظروف السياق"[8]، وهذا ما يؤكد مدى اهتمامها بملابسات العملية التواصلية، ويجعل "التداولية تقيم روابط وشيجة بين علمي اللغة والتواصل"[9]، كون كل واحد منهما يمتَح من الآخر ويستعين به. إذ لم يعد ينظر إلى العلامات اللغوية على أنّها البؤرة الوحيدة التي يتولّد منها المعنى، بل صار المعنى وليد كل الظروف المصاحبة للعملية التواصلية أو السياق الخارجي بمعناه الواسع، كما أنّه مع البحوث التداولية توّسع مجال النظر إلى العملية التواصلية وأصبح نجاح التواصل والتحاور رهين ظروف خارجية وخلفيات معرفية ومداخل موسوعية وعمليات استدلالية ومقاصد خطابية متعددة، تشارك في التعبير عن المقصود وإيصال المعنى إلى المتلقي وتحقيق الأغراض التي يحملها الخطاب، والكشف عن التمثّلات الذهنية التي شكّلته انطلاقا من العالم الخارجي.

أ- **تداولية المتكلم:** اعتمدت التداولية في مختلف بحوثها على أركان العملية التواصلية، بدءً بالمتكلم كونه الذي ينتج الخطاب ويحمّله بما يريد إيصاله للمتلقي ويربطه بمقاصده بغية أن يشاركه المتلقي في التواصل، فهو قطب مركزي في

العملية التواصلية وهو المفَّعِل لتداولية اللغة واستعمالها، وقد منحته التداولية بالغ الاهتمام بعدما كان مهملا مع النظريات البنوية التي اهتمت بدراسة اللغة في ذاتها ولذاتها، حيث غُيِّب دوره في اللسانيات الحديثة التي "نشأت في بدايتها متمركزة على بنية اللغة الداخلية، دون اعتداد بأي من عناصر البنية الخارجية بما فيها المتكلم، وظلّت كذلك عقودا، حتى جاءت انتقادات (تشومسكي) الجريئة للمنهج البنوي الصارم، واعتراضات فلاسفة اللغة على بعض آراء اللسانيات البنوية وهناك بدأ الاهتمام بالمتكلم بعدِّه أساس فهم المعنى وقصد الدلالة"[10]، والقطب الذي ينبغي الانطلاق منه في مقاربة الخطاب.

وقد ركز التداوليين على المتكلم من منظور أنّه الذي ينجز الفعل الكلامي ويصدره، وهو يرتبط بحاله وقصده، والأفعال الإنجازية بمختلف أغراضها هي وليدة حالاته الذهنية من تقرير وأمر ووعد وتحذير، وعليه أن يمتلك الكفاءة اللغوية Linguistic competence المتمثلة في المعرفة باللغة التي يستعملها وإحاطته بقواعدها وخصائصها، وكذا عليه امتلاك الكفاءة التخاطبية Pragmatic competence المتمثلة في المقدرة على استخدام اللغة في سياقاتها الفعلية التي تتجلى فيها[11]. لأنّ عملية إنتاج الخطاب تتوقف على امتلاك المتكلم لناصية اللغة، وكذا على درايته بمداخلها وحقولها وسياقاتها المتعددة وخصائصها التركيبية والصرفية، ومعرفة كيفية تداولها والمحيط المعرفي لمستعمليها، إذ إنّ أي متكلم تستوقفه هذه الشروط أثناء عملية التواصل، وعدم امتلاك هذه الجوانب المهمة في اللغات يؤدي إلى إحداث خلل على مستوى العملية التواصلية.

ويظهر تركيز البحوث التداولية على المتكلم جليا ضمن نظرية أفعال الكلام لأوستين، حين رأى أنّ العبارات الإنشائية لا يُقصد بها قول شيء ما، بل يُقصَد بها

إنجاز هذا الشيء، على أساس أنّ هناك أفعالا لا تُنجَز أو تتحقق إلا باستخدام الكلمات كالطلاق مثلا والزواج وغيرها. والذي يقوم بفعل الإنجاز هو المتكلم الذي يقوم بعملية التلفظ والتي يسميها أوستين القيام بالفعل على أساس أنّه يرى أنّ عملية التلفظ هي في حد ذاتها إنجاز للفعل، حيث يغدو "من الضروري أن ينجز الشخص الذي يتكلم بعض الأفعال الأخرى الفيزيائية أو الذهنية، أو حتى الأفعال التي تتمثل في التلفظ لاحقا بأقوال أخرى"[12]، فالعتق مثلا (عتق الرقبة) هو إخراج العبد من حالة العبودية إلى حالة الحرية (يصبح حرا) بكلمة واحدة "أعتقتك"؛ فتكون الحرية هنا متوقفة على كلمة "أعتقتك" فقط، ولا يتم العتق إلا بها، وبالتالي تصبح الكلمة التي تلفظ بها المتكلم هي التي صنعت حدث الحرية الذي أراد إحداثه، وبالتالي حصول التأثير من خلال إنجاز المتكلم للفعل عن طريق التلفظ به.

ويجعل أوستين للمتكلم دورا محوريا في العملية التواصلية، في وضعه للشروط التي بمقتضاها ينجح الفعل الإنشائي، حيث يشترط أولا: حصول تواضع واتفاق على إجراء معترف به يُتبَع، ثانيا: يجب أن يتناسب الأشخاص المتكلمون في كل الحالات مع الظروف المعيّنة حتى يصح الإسناد على هذا الإجراء، ثالثا: يجب أن ينفذ جميع المشاركون هذا الإجراء بشكل سليم، وكامل وتام، ويجب أن تكون الأطراف المشاركة في الإجراء لها نفس الإحساس وتحمل نفس الأفكار مع القصد والنية في اتباع سلوك ذلك الإجراء، ثم تَبَنِي ما ينتج عن السلوك من عواقب ونتائج[13]، وعليه يكون للمتكلم دور كبير في إنجاح الفعل الإنشائي وعدم إخفاقه في حالة القيام الجيد والمناسب بالفعل، وبالتالي يتوقف عليه ضمان الاشتغال الحسن للعملية التواصلية ضمن نظرية الأفعال الكلامية.

كما ترتبط مقاصد الخطاب بالمتكلم، فهو الذي يحمل خطابه بالمقاصد التي يريد، وبالتالي يصبغ على الكلام المعنى المراد إيصاله إلى المستمع، وقد جعل ابن فارس المعنى مرتهَن بالقصد بقوله: "فأما المعنى فهو القصد"[14]. وهذا دليل على الدور المحوري الذي يلعبه المتكلم في العملية التواصلية، والذي جعله يتبوأ مكانة مميزة في البحوث التداولية بجعله قطبا ترتكز عليه مختلف المقاربات.

ب- **تداولية السامع:** ركزت التداولية على مستقبِل الحديث في العملية التواصلية، وأولته عناية بالغة كونه من يُنشَؤ الخطاب لأجله، وله دور في إنشاء الخطاب بطريقة غير مباشرة، لأنّ المتكلم أثناء حديثه يراعي حال السامع وظروفه وما يناسبه من الكلام، كون المتلقي حاضر دائما في ذهن المتكلم؛ إذ وجود الكلام مرتبط بمن يتلقاه فهو مرتبط دائما بالآخر الغائب الحاضر في الوقت نفسه، حيث ترافق عملية التواصل دائما عملية استحضار للسامع، حتى أثناء الكتابة فالكاتب يستحضر دوما في ذهنه القارئ، وينشئ خطابه بما يتوافق وقرّاءه على اختلاف درجاتهم ومستويات تلقيهم للخطاب.

ويجعل سيرل المتلقي عنصرا مهما في تحديد دلالة الخطاب، ويظهر هذا في قوله: «عندما أتكلم فأنا أحاول إيصال بعض الأشياء إلى مخاطبي بدعوته إلى التعرّف على مقصدي من توصيل تلك الأشياء بالذات، وأتحصل على الأثر المُنتظر عندما أدعوه إلى معرفة غرضي من تقديم هذا الأثر له، وما إن يتعرف مخاطبي على ما في غرضي الحصول عليه حتى تتحقق النتيجة عموما»[15]، فهو يجعل تحقق الدلالة متوقف على قدرة السامع على التعرف على غرض المتكلم وحصوله على الفائدة المرجوة من الخطاب.

بالإضافة إلى "أنّ الخطاب كما يحمل الخصائص التمييزية للمتكلم، فهو ينبئ بطبيعة السامع الذي أنشئ من أجله، بل إنّ الخطاب في ذاته يكون في أغلب الحالات حسب ما يريده السامع لا المتكلم"[16]، وهذا من أبرز ما تركز عليه التداولية في جانب العملية التواصلية وارتباطها بالمقاصد.

كما يراعي مبدأ التأدب _الذي جاءت به **روبن لايكوف** (Laykof)[17]_ حال السامع، ويحافظ على إبقائه مشاركا في العملية التخاطبية، كي لا ينزعج أو يتأذى أثناء التواصل حتى وإن كان على خطأ، والأمثلة على ذلك كثير، منها حديث موسى عليه السلام مع فرعون في قوله تعالى: "هل لك إلا أن تزّكى وأهديك إلى ربك فتخشى" (النازعات، الآية 18-19)، فهنا رغم أنّ موسى نبي الله وهو على يقين أنّه على صواب، لم يبدأ كلامه بالنهر أو الزجر أو التخويف أو الوعيد، بل قدّمه في شكل سؤال وعرض واستلطاف كي يؤثر في فرعون ولا ينفّره مما يريد إخباره به، وترك له المجال للتفكير في الأمر وعدم التسرع، لأنّ بعض تصرفاتنا أحيانا تنفّر المستمعين من بداية الحديث حتى قبل أن يستمعوا للحجج التي سنقدمها ولذا وجب التركيز على ضرورة إشراك المستمع في العملية التخاطبية، والحرص على كل ما من شأنه أن يحفظ عُرى التخاطب من خلال المتكلم والسامع والشراكة والتأدب الذي يحصل بينهما.

ج- تداولية الخطاب: لم تفصل التداولية البنية اللغوية عن وضع استعمالها فهي تقوم بوصف اللغة أثناء الاستعمال والتداول، أي "تدرس اللغة بوصفها علما تخاطبيا تواصليا يُعنى بالأبعاد الخطابية الاستعمالية للغة"[18]، فبالإضافة إلى عنايتها بالمتكلم والسامع ركزت أيضا على الخطاب في حد ذاته، وعرّفته على أنّه "متتالية

غير اعتباطية من الملفوظات"[19] التي ينشئها المتكلم ويحمّلها مقاصده وأغراضه ويعبر بها عن أحواله.

ويكون تقسيم الكلام قائما على الأحوال المختلفة للكلام بحسب المتكلم ومقاصده والسامع وتأويله، والمقام وسياقاته، وهذه كلها شروط تداولية للخطاب[20]، ينبغي لمحلل الخطاب الوقوف على كل عنصر منها للإلمام بعملية التخاطب، لأنّ إغفال أي جزء منها يؤدي إلى سوء الفهم الخطاب، وإلى قصور في عملية التأويل.

هذا، وتتعدد معاني الخطاب حسب تعدد وتباين ظروف العملية التواصلية وأحوال كل من المتكلم والسامع، والغرض المقصود من التواصل، بحيث يسعى المرسل إلى اختيار الكلمات والآليات المناسبة في خطابه لأجل إيصال مقاصده للمتلقي وإقناعه، ثم يسعى هذا الأخير إلى فهم الخطاب وتأويله وفق السياق الذي ورد فيه، وإضفاء صبغة عقلية عليه من خلال المرور بمجموعة من العمليات الاستنتاجية والاستدلالية كي تنجح عملية التأويل ويحصل المراد من الخطاب.

وهذا ما يظهر جليا في مبدأ التعاون مع **بول غرايس (Grice)** حين ركّز على ضرورة الشراكة والتعاون في العملية التواصلية بين المرسل والمتلقي من أجل حصول الفائدة من الخطاب وتجنب اللبس والغموض، إذ وضع نظرية المحادثة وفق مبدأ التعاون مركزا على أربع مسلمات رآها تضمن إنجاح العملية التواصلية لأجل تحقق مقاصد الخطاب، وهي كالآتي:

1- **مسلمة القدر:** تخص قدر (كمية) الإخبار الذي يجب أن تلتزم به المبادرة الكلامية، وتتفرع إلى مقولتين:

أ- اِجعل مشاركتك تفيد القدر المطلوب من الإخبار.

ب- لا تجعل مشاركتك تفيد أكثر مما هو مطلوب.

2- **مسلّمة الكيف:** ونصها: "لا تقل ما تعتقد أنّه كاذب، ولا تقل ما لا تستطيع البرهنة على صدقه".

3- **مسلّمة الملاءمة:** وهي عبارة عن قاعدة واحدة: "لتكن مشاركتك ملائمة".

4- **مسلّمة الجهة:** التي تنص على الوضوح في الكلام، وتتفرع إلى ثلاث قواعد فرعية:

أ- اِبتعد عن اللبس.

ب- تحرَّ الإيجاز.

ت- تحرَّ الترتيب.[21]

وتنبغي الإشارة إلى أنّ مبدأ التعاون "يصف ما ينبغي أن يكون، لا ما هو كائن بالفعل في مجمل الحوارات والتفاعلات الإنسانية"[22]، فهو مجموعة من القوانين في عملية المحادثة ينبغي على المتحاورين احترامها لأجل تحقيق الغرض من العملية التواصلية، وتيسير عملية تأويل الأقوال.

ولا تمثّل هذه القواعد مجرد معايير ينبغي للمتحاورين التقيّد بها فحسب، بل تمثل ما ينتظرونه من مخاطبيهم، فهي مبادئ تأويل أكثر منها قواعد معيارية أو قواعد سلوك، وهذا ما جعلها تندرج ضمن التيار المعرفي، لأنّها لا تستند إلى مجرد القدرة على اكتساب حالات ذهنية، بل إلى القدرة على إسناد هذه الحالات أيضا لأشخاص آخرين، وكذلك لها مقدرة خاصة على نسبة مقاصد إليهم[23]، فهي ترتكز على الحالات الذهنية عند الأشخاص، والقدرة على استعمالها وفق ما يتناسب ومقاصد المتخاطبين.

2- التداولية ومقاصد الخطاب: يعتبر القصد جوهر العملية التواصلية ومفتاحها الذي تستند إليه في الكشف عما استغلق فيها، وتكون القصدية مبدأ إجرائيا

في اللسانيات التداولية جاءت به الفلسفة الظاهراتية**، وقد استثمره أوستين في دراسة ظاهرة الأفعال الكلامية، وقام تلميذه سيرل باتخاذه معيارا أساسيا لتصنيف القوى المتضمنة في القول[24]، حيث أولَت نظرية الأفعال الكلامية اهتماما كبيرا بمضامين الأقوال ومقاصدها التواصلية، وجعلت المقصد هو المحرّك في عملية التلفظ، فالمتكلم حين يبني خطابه ينطلق من الأغراض التي يريد إيصالها للسمتع ويقيم وفقها خطابه. إذ "لا وجود لأي تواصل عن طريق العلامات دون وجود قصدية وراء فعل التواصل"[25]، فغاية المتكلم من الخطاب إفهام السامع وإشراكه في التواصل وكذا إيصال الغرض المقصود إليه للتأثير فيه أو إقناعه.

كما أنّ تنوع الأفعال اللغوية ليس محكوما بشكلها اللغوي بل محكوما بقصد المرسل بالدرجة الأولى من خلال المواءمة بين الشكل اللغوي المناسب وبين العناصر السياقية[26]، التي تشكل الخطاب ويُعتَمد عليها في عملية تأويله فيما بعد فلا ينتج المتكلم الخطاب اعتمادا على شكله اللغوي فقط، بل يستند إلى القصد أيضا، إذ يعدّ "القصد عنصرا أساسيا بفضله يمكن القول بأنّ الفعل قد أُنجِز"[27] ويتوقف نجاحه عليه.

وعليه فقد اهتم فلاسفة اللغة التداوليين بمفهوم القصدية في تحليلهم للاستعمالات اللغوية وكيفية حصول المعنى وإحدات الفعل والتأثير في السامع. حيث انطلق الكثير من الدارسين من التسليم "بوجود توتر دائم بين الألفاظ والمقاصد، وبين السعي إلى بناء نحو كُلّي والتعبير بلغة ذاتية عن الحياة الباطنية، مصدر التوتر هو أنّ اللغة ذات وجود مجرّد ما دامت في خدمة الجماعة، بينما تحظى فنون التعبير بقيمة شخصية ما دامت في خدمة الفرد...، لذا يجب التراجع عن دراسة اللغة كبنية وعن دراستها كتراث من أجل اختزالها إلى الأفعال القصدية، فالمتكلم يريد

تحقيق مسعى معيّن. أي أنّه يقصد شيئا بكلامه، وحينما يتعرف القارئ والسامع على مراد المتكلم يكون قد توصّل إلى فهم لغته، فالمفردات المُجرّدة عن القصد مجرّد لغو، وتظهر القيمة النفسية للغة في فعل القصد"[28]. لأنّه يرتكز على الجانب الذهني بالدرجة الأولى.

وقد تعمّق **أوستين** في إنجاز فلسفة دلالية تهتم بالمضامين والمقاصد التواصلية وتختلف عما عرفناه عند علماء الدلالة اللغويين، وخصوصا البنيويين، فقد كان أوستين يلح على القيمة التداولية لعبارات لغوية كثيرة تستخدم في اللغة الانجليزية وربما في كل اللغات. ومن الجديد الذي يخالف به الفلاسفة الكلاسيكيين، ويوافق به أسلافه من فلاسفة التحليل، إدخاله مفهوم القصدية Intentionnalité في فهم كلام المتكلم وفي تحليل العبارات اللغوية، وهو مبدأ أخذه من الفيلسوف هوسرل والظاهراتيين، واستثمره في تحليل العبارات اللغوية. وتتجلى مقولة "القصدية" بالخصوص في الرابط بين التراكيب اللغوية ومراعاة غرض المتكلم والمقصد العام من الخطاب، في إطار مفاهيمي مستوف للأبعاد التداولية للظاهرة اللغوية[29]. على اعتبار أنّ اللغة هي الوسيلة التي تَتَبدّى من خلالها هذه المقاصد وتتكشف.

وبما أنّ التداولية تنظر إلى اللغة على أنّها أداة للقيام بالأفعال والتغيير والتأثير في العالم، بصنع مواقف وقرارات وأحداث على المستوى العام، وكذا تؤثر في الأشخاص فتحمل الفرد على العدول عن موقف أو تغيير رأي، أو الوفاء بوعد؛ فهي من هذا المنظور تعد إنجازا لأغراض ومقاصد تواصلية لكل من المتكلم والسامع والخطاب.

وقد اهتمت نظرية الملاءمة **لسبربر وولسن** (Sperber et Wilson) بقضية المقاصد التي يحويها الخطاب، بحيث "يكون للمتكلم مقصدين من وراء خطابه:

أولا؛ المقصدية الإخبارية التي تهدف إلى إثارة قناعات المستمع، ثانيا؛ المقصدية التواصلية التي تهدف إلى إثارة الشراكة مع المستمع[30]، ومن ذلك يكون للمستمع نية الحصول على مجموع القناعات التي تمثل موضوعا لمقصدية المتكلم الإخبارية وتقوم هذه الآلية في مجملها على فكرة أنّ التواصل يرتبط بشكل جدي بالقدرة على إعطاء الآخر قناعات ومقاصد، وهي مقدرة داخلية ترتبط بنظرية الذهن Théorie de l'esprit[31]. التي تنتمي إلى ما يعرف بالتداولية المعرفية التي تندرج ضمن حقول العلوم المعرفية المعاصرة.

وبهذا نجد أنّ الفلسفة التحليلية قد اهتمت بالقصدية في تفسير المعنى بالنظر إلى مقاصد المتكلمين وغاياتهم من التواصل، وأشهر من طوّر هذه النظرية ووضع لها جهازا مفاهيميا خاصا بعد غرايس وأوستين هو الفيلسوف التحليلي جون روجرز سيرل الذي ربط قصدية الأفعال العقلية بقصدية الأفعال الكلامية[32].

وقد ركّز كثيرا على مفهوم القصدية في بحثه في الأفعال الكلامية، وهو في تعريفه للقصدية يقول: «القصدية هي تلك الخاصية للكثير من الحالات والحوادث العقلية التي تتجه عن طريقها إلى الأشياء وسير الأحوال في العالم أو تدور حولها أو تتعلق بها»[33]، فهي تضم كل الحالات العقلية للأفراد كالرغبة في السفر إلى الخارج، والحب والأمل في غد مشرق، وتمني النجاح والتفوق الدراسي، فهي تمثّل أحداث ومواقف ترتبط بالذهن تجاه العالم الخارجي، سواء كان إدراكها حسيا عن طريق الحواس أو مجرّدا عن طريق الخيال فقط. وعليه يمكننا القول أنّ القصدية عمل ذهني مهمته تَمثُّل الأشياء وتصويرها كلغة داخلية للفكر تمكن من تمثّل مواضيع وأشياء موجودة في العالم الخارجي، كما تمكّن من تمثُّل موضوعات غير واقعية لا تُدرَك عيانيا كالشخصيات الخيالية والأساطير.

والحالات القصدية عند سيرل هي: "تلك الحالات التي تحتوي مضمونا قصديا يدل على شيء أو موضوع، وتظهر في شكل سيكولوجي معيّن يحدد لها اتجاه مطابقة. وقصدية هذه الحالات قصدية باطنية لأنّها أفعال عقلية، فالعقل هو الأساس العميق الذي تُشتَق منه الصور القصدية الأخرى كقصدية الصور والرموز واللغة[34]. بما أنّه مصدر الفكر وفيه يتم إدراك الواقع وتتشكّل المعرفة.

تمثّل القصدية في أبحاث سيرل معلما من معالم رحلته في البحث اللغوي وفي فلسفة اللغة الذي بدأه بكتاب "أفعال الكلام"، والمشكلة عنده ليست: كيف تكون المعرفة ممكنة؟ وما الذي يمكن أن نعرفه؟ وإنّما: كيف نحلّل العقل؟ وكيف نفهم الوعي والقصدية؟ وهل ترتبط قصدية العقل بقصدية اللغة؟ وأيّهما أسبق؟ وكيف نمثّل الأشياء باستعمال الكلمات والجمل؟[35] وهذا ما يبين تركيزه على مقاصد الخطاب واعتبارها ضرورة حتمية ينبغي الوقوف عندها، بحيث نبحث فيما يرمي إليه الخطاب؟ وكيف نحلل العمليات التي تحدث على مستوى الذهن ثم كيف نفهمها؟ وهذا خير رابط يجمع بين ما يحصل في الذهن البشري من عمليات ذهنية وعقلية، استنتاجية واستدلالية* وبين اللغة باعتبارها الحامل لهذا الوعي، والمعبِر عنه سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

وقد قسّم سيرل القصدية إلى قصدية باطنية ومشتقة، وفضّل مصطلح "التمثيل" عن مصطلح القصدية، وصرّح أنّ الكائنات البشرية تملك "مجموعة متنوعة من الطرق المترابطة لتقريب ملامح العالم وتمثيلها لذواتها وتتضمن هذه الطرق الإدراك الحسّي والتفكير واللغة والاعتقادات والرغبات بالإضافة إلى الصور والخرائط والرسوم البيانية ونحو ذلك. وسوف أسمي هذه الطرق بشكل عام التمثيلات. وملمح التمثيلات المحددّة هكذا هو أنّها جميعا ذات قصدية، قصدية

باطنية كما هو الحال في الاعتقادات والإدراكات الحسية، وقصدية مشتقة كما هو الحال في الخرائط والجمل"[36]. وتكون كالآتي:

القصدية الباطنية الأصلية هي التي لا تخضع للملاحظة الخارجية كالرغبات والاعتقادات... فهي تمثيلات عقلية خاضعة لذواتنا ومستقلة عن الملاحظ، فتكون مقتصرة على العمليات الذهنية المركوزة في الدماغ البشري والتي لا يمكن الاطلاع عليه أو تلّمسها.

القصدية المشتقة: هي المعتمدة على الملاحظة مثل قصدية اللغة التي تعتمد على مجموع مستعمليها المالكين للمعنى ذاته الذي تملكه هذه اللغة وتمثّله، فالعقول وحدها هي التي تملك قصدية أصلية وباقي الحالات الأخرى كاللغة تملك قصدية مشتقة لأنّها من غير عقل وتحتاج إلى من ينشئها.

ولهذا يعتبر سيرل أنّ التمثيل العقلي هو الصورة الأساسية من التمثيل، ومنه نشتق التمثيل اللغوي فالأصوات والعلامات تشير إلى الأشياء والحوادث لأنّ العقل يفرض قصدية عليها[37]. إذ فيه تتم مختلف العمليات الذهنية التي تفهم الواقع وتتمثّله، ثم تتم ترجمته في شكل علامات لغوية أو غير لغوية، ومنه يستنبط المتلقي المعنى المقصود ويصل إلى الدلالة المركوزة في العلامات، وفي هذا الصدد يقول سيرل: "المعنى اللغوي صورة حقيقية من القصدية، ولكنه ليس قصدية باطنية، وإنّما قصدية مشتقة من القصدية الباطنية لمستعملي اللغة"[38]، فالعقل بهذا هو المركز الذي تشتق منه اللغة ويمكن بهذا إدراجها ضمن القصدية المشتقة.

يقول سيرل: "بعض الحالات والحوادث العقلية وليس جميعها تملك قصدية فالاعتقادات والمخاوف والآمال والرغبات قصدية. ولكن هناك صورة من العصبية والابتهاج والقلق غير الموجّه لا تكون قصدية... فاعتقاداتي ورغباتي لا بدّ من أن

تكون دائما حول شيء ما، ولكنّ عصبيتي وقلقي لا يكون بهذه الطريقة حول شيء ما"[39].

وانطلاقا من هذا فالقصدية عنده "لا تفهم إلا في حدود الوعي"[40]، فنحن لا نفهم القصدية إلا إذا كنا على وعي بها. دون أن يعني هذا أنّ كل أمر نكون على وعي به تتوفر فيه القصدية، فكما أسلفنا توجد حالات عقلية واعية مثل القلق والانفعال والحزن ولكنها غير قصدية. وفي المقابل توجد حالات قصدية وغير واعية كالاعتقادات والرغبات والآمال التي نمتلهكا في حالة النوم[41]. ولا تكون لدينا القدرة على التحكم فيها أو توجيهها.

وقد طرح سيرل موضوع القصدية في حديثه عن أفعال الكلام –كما أسلفنا– حيث حاول في نظرية أفعال الكلام تحليل الشروط الضرورية والكافية لأداء أفعال الكلام ونطق الجملة، وتساءل عن الشروط الضرورية لكي تستوفي هذه الأفعال الحالة القصدية.[42] أي شروط النجاح، وهذا ما جعلها ذات دور بارز في عملية التخاطب، إذ تتحكم المقصدية "في الأفعال الكلامية بتحديد أشكالها وخلق إمكانية معناها"[43]، وبالتالي فهي تنطلق من عمليات ذهنية يقوم بها المتكلم؛ فهو حين يَعِدُ مثلا ينبغي عليه أن يعتقد فعلا أنّه سينجز وعده ويكون صادقا وهذا يحدث على مستوى الذهن، فيدرك أنّه مسؤول أمام المخاطب وعليه يوّجه كلامه وفق ما يتناسب والسياق الذي يكون فيه.

انطلاقا من القصدية العقلية فسّر سيرل قصدية الأفعال الكلامية أو قصدية المعنى، وأكد أنّ قصدية اللغة هي قدرة أفعال الكلام على تمثُّل الأشياء في العالم عن طريق حالات عقلية[44]، وهذا ما يبين الأهمية الكبيرة لوجود القصدية وتحميل الخطاب مقاصد يعبر عنها، فبغيابها يصبح الخطاب فارغا بلا هدف يوجهه أو غاية

يصبو إليها، فهي الركيزة التي تستند عليها عملية التواصل بين المتحدثين، والتي يُبنى عليها أي خطاب يحمل في طيّاته فائدة مرجوة منه.

ويرى سيرل أنّ الحالات القصدية أنواع مختلفة، ولكل حالة مضمون قصدي (مضمون قضائي) وقد تشترك الحالات القصدية في نفس المضمون القصدي رغم اختلافها في النوع (النمط النفسي)، مثل الجمل الآتية:

أعتقد أنّك ستنجح هذا العام.

أرغب أن تنجح هذا العام.

آمل أن تنجح هذا العام.

هذه الجمل وردت في أنماط نفسية أو أشكال سيكولوجية متباينة (الاعتقاد الرغبة، الأمل)، ولكن لها نفس المضمون القصدي أو التمثيلي (وهو النجاح هذا العام) وهذا يشابه ما يعرف في نظرية أفعال الكلام المحتوى القضوي، والقوة المتضمنة في الفعل[45]، اللذين ركز سيرل عليهما في نظريته حول أفعال الكلام.

بهذا نجد أنّ البحث التداولي قد أولى عناية بالغة بقضية المقاصد، وجعلها بؤرة أساسية سواء في نظرية "الأفعال الكلامية" عند أوستين وسيرل، أو نظرية المحادثة التي أقامها غرايس على مبدأ التعاون، فكان مدار التركيز على العملية التخاطبية منطلقه ما تحمله الملفوظات من مقاصد تعبّر عن فكر صاحبها وتحيل عليه، بغية التأثير في المتلقي أو إقناعه، أو تغيير الواقع وتسخيره لأغراضه.

وأخيرا نخلص إلى القول إنّ التداولية بآلياتها الإجرائية المتعددة وبمباحثها المختلفة في مقاربة الخطاب، قد رفضت –على غرار المناهج الأخرى– في تعاملها مع النصوص فكرة مقاربة الخطاب من زاوية واحدة، ورأت أنّ هذه النظرة قاصرة لا تشمل أجزاء الخطاب كاملة ولا تمنحه قراءة تحليلية شاملة في جميع

جوانبه، وبهذا تكون قد استطاعت أن تتجاوز فكرة التركيز على البعد الواحد في عملية التحليل والبقاء حبيسة بين جدران الخطاب الداخلية والاكتفاء بما يقدمه السياق اللساني الذي يحيط بالعملية التواصلية؛ إذ أنّ تركيزها على مختلف أقطاب العملية التواصلية جعلها مقاربة تنفتح على السياق الخارجي للخطاب.

وهي بهذا تتجاوز تلك النظرة الجزئية القاصرة في تحليل الخطاب وتنفتح على مختلف العلوم والتخصصات لتمتَح منها ما يناسبها في عملية المقاربة وتثري العملية التأويلية، خاصة الجانب المتعلق بالمقاصد التي تعتبر حالة ذهنية يصعب القبض عليها والإحاطة بكل متعلقاتها. ويظهر هذا جليا في المنحى الذي أخذته التداولية المعرفية؛ إذ تعمق البحث في الجانب الذهني والمعرفي في عملية التحليل وانتقل التركيز من الجانب الداخلي للخطاب المنحصر في العلامات اللغوية إلى كل ما يحيط بالعملية التواصلية من ظروف إنتاج الخطاب واستقباله، وكذا ما يتخلله من مقاصد موضعية وإجمالية مركوزة فيه.

الهوامش:

---

1 - عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس 1986، ص 17، 18.

2 – الطاهر بومزبر، التواصل اللساني والشعرية، مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون، ط1 منشورات الاختلاف، والدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، 2007، ص19.

3 – رومان جاكبسون، قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنوز، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ص27.

4 – ينظر، إدريس بلمليح، المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام، ص20.

5 – بهاء الدين محمد مزيد، تبسيط التداولية من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، ط1 شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، 2010، ص18.

6 – مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص25.

7– نفسه، ص25.

8 – بهاء الدين محمد مزيد، تبسيط التداولية من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، ص20.

9 – مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص40.

10– خليفة بوجادي، نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية، مشروع لربط البلاغة بالاتصال، ندوة الدراسات البلاغية، الواقع والمأمول، جامعة سطيف، الجزائر، 1432، ص718.

11 – محمد محمد يونس علي، وصف اللغة العربية دلاليا في ضوء مفهوم الدلالة المركزية "دراسة حول المعنى وظلال المعنى"، منشورات جامعة الفاتح، 1993، مصر، ص127.

12 – أوستين، القول من حيث هو فعل، نظرية أفعال الكلام، ترجمة محمد يحياتن، ط1، عالم الكتب، الجزائر، 2006، ص15.

13 – ينظر، أوستين، القول من حيث هو فعل، نظرية أفعال الكلام، ص20.

14– ابن فارس الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق مصطفى الشويمي بدران للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1963، نقلا عن خليفة بوجادي، نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية، ص 720.

15 – فيليب بلانشيه، التداولية اليوم، من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، ط1، دار الحوار، سوريا، 2007، ص139.

16 – خليفة بوجادي، نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية، ص726.

17– طوّرت "روبن لايكوف Lakoff" سنة 1973 طرحها عن "مبدأ التأدب" تأسيسا على مجهودات غرايس في هذا الجانب، معتقدة أنّ الحوار يطير بجناحين هما الوضوح والتأدب be clear and be polite، وصيغة هذا المبدأ هي: "لتكن مؤدبا"، مشتقة من هذا المبدأ ثلاث قواعد كبرى: 1– لا تفرض نفسك (أو آراءك أو ذوقك) أو تقحمها على الآخرين. 2– أترك لغيرك حرية الاختيار. 3– اجعل الآخرين يشعرون بالبهجة والارتياح. يُراجَع، بهاء الدين محمد مزيد تبسيط التداولية من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، ص57،58.

18– مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص26.

19 - Anne Reboul, Jacque Moeschler , Pragmatique du discours, de l'interprétation de l'énoncé à l'interprétation du discours, Armand colin, Paris, 1998, p163.

20 – خليفة بوجادي، نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية، ص 741.

21– مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 46، 47.

22 – بهاء الدين محمد مزيد، تبسيط التداولية من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، ص 40.

23 – ينظر، آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2003، ص 75.

24– ينظر مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 33.

**– الفلسفة الظاهراتية اللغوية: تبحث في بداية الحدث اللساني في أعماق الوجدان، حينما تكون اللغة في الذهن قبل وجودها وهذا ما جعلها تنأى عن البحوث التداولية كونها لا تعنى بالاستعمال اللغوي وظروفه وأحوال المتخاطبين ومقاصدهم. نفسه ص 33.

25 – وشن دلال، القصدية من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد السادس، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2010، ص 25.

26– استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهيري، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، بيروت، لبنان، 2004، ص 78.

27 – أوستين، القول من حيث هو فعل، نظرية الأفعال الكلامية، ص 15.

28 – عز العرب لحكيم بناني، الظاهراتيو وفلسفة اللغة، تطور مباحث الدلالة في الفلسفة النمساوية، د، ط، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2003، ص 28.

29 – مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 8.

30– لبوخ بوجملين، تداولية الخطاب، أهمية نظرية الذهن في تحليل الخطاب، مجلة الأثر، عدد خاص بأشغال الملتقى الدولي الثالث في تحليل الخطاب، جامعة ورقلة، الجزائر، ص55.

31– نفسه، ص55.

32 – وشن دلال، القصدية من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة، ص 18.

33 – ينظر، صلاح اسماعيل، فلسفة العقل دراسة في فلسفة سيرل، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2007، ص 169. نقلا عن وشن دلال، القصدية من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة، ص 3.

34 – ينظر، صلاح إسماعيل، فلسفة العقل دراسة في فلسفة سيرل، ص229، نقلا عن وشن دلال، القصدية من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة، ص 24.

35- ينظر، صلاح إسماعيل، فلسفة العقل دراسة في فلسفة سيرل، ص 229، نقلا عن وشن دلال، القصدية من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة، ص 19.

* - الاستدلال عنصر في مسار الفهم، يثيره سيرل حين يقترح صياغة صريحة لمراحل فهم عمل لغوي غير مباشر، وهو عملية منطقية لربط المعطيات الملفوظة والسياقية والمحادثية والتداولية من أجل إنشاء الدلالة. ينظر، فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص 152،153.

36 - صلاح إسماعيل، فلسفة العقل دراسة في فلسفة سيرل، ص229، نقلا عن وشن دلال القصدية من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة، ص 44.

37 - ينظر، نفسه، ص 232، 231 .

38 - صلاح إسماعيل، فلسفة العقل دراسة في فلسفة سيرل، ص 229، نقلا عن وشن دلال القصدية من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة، ص 230.

39- نفسه، ص 194.

40 - نفسه، ص 272.

41 - ينظر، نفسه، ص 270، 269.

42 - نفسه، ص 46.

43 - محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، ط3، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، 1990، ص 165.

44 - وشن دلال، القصدية من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة، ص 24.

45 - ينظر، جون سيرل، العقل مدخل موجز، ميشال حنا متياس، مجلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر، 2007، ص21.

بلاغة التلميح في القول المجازي

-الكناية أنموذجا -

أ. حامدة تقبايت

جامعة مولود معمري، تيزي-وزو

إشكالية البحث: نتوخى في هذا البحث الحديث عن الكناية باعتبارها تدخل ضمن المقولات المجازية التي تغلب في البلاغة العربية، ذلك أنَّ المجاز عموما هو مبحث بلاغي أساسي في البلاغة العربية، وهنا سنتعامل مع الكناية من منظور حديث عبد القاهر الجرجاني عن معنى المعنى، فكيف يتم العدول في الخطاب عن طريق المجاز، وكيف تظهر بلاغة التلميح في الكناية؟، مادام المتكلم يتلفظ قول ويقصد به معنىً مضمرا يتم الحث عنه النظر إلى السياق التخاطبي.

1- المتكلم وعدول الخطاب: من المعروف أن صلة الإنسان باللغة تبدأ منذ سن مبكرة، أين يتعلم معاني الكلمات المتواضع عليها وكذا التعبيرات اللغوية، ومع مرور الوقت يبدأ في تداول اللغة عبر استعمالها بحسب المقام ومقتضى التخاطب مما يفرض عليه إحداث نوع من الانتقال في طريقة صياغة المعنى. وتظهر المزية في الكلام بتعدد أنماطه الخطابية، بحيث يكون بمقدور المتكلم اختيار النمط الذي يتلاءم وسياق تلفظه، مما يحقق الإرادة الاستعمالية في ظهور القول المنجَز، وذلك بالاستناد إلى قصد المتكلم، والذي يعمل على التحكم في أنماط انجاز قوله بحسب

معطيات السياق، انطلاقا من عمليات الاختيار «بعد ملاحظة توافقها معه واختصاصها به، ويحتكم إلى الفكر كوسيلة لتجميع الدوال داخل حقولها الكلية»[1] وغالبا ما يحدث وأن ينزاح القول عن الأصل المتواضَع عليه إلى ما يعرف بالعدول♦، وفي ذلك يقول عبد القاهر: «**وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتمل في ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه وجها آخر**»[2]وهو إشارة منه إلى العدول في القول وما يحدثه من مزية في النظم من جهة الانتقال من المعنى المباشر إلى المعنى الثاني المرتبط بالسياق، وهذا الانتقال يكون بحسب الدينامية والحيوية التي يكسبها المتكلم لملفوظه حتى يكون وعاءً للمعنى المقصود، لأن «الدينامية هي التي تنشئ التغيير في المعرفة اللسانية، بل تتعداه إلى المعرفة عن العالم، وذلك بشكل طبيعي، لأن التغييرات الطارئة على المعرفة اللسانية تؤثر على الكفاية الموسوعية أي مجموع أنظمة التقويم والتأويل»[3]، والذي يجعل المتكلم يشحن لغته بطابع الذاتية «بحيث تصبح الكلمة ملتصقة ومقرونة بتجاربه وميوله ونزعاته ورغباته وانفعالاته الخاصة»[4]، فينضاف إلى ذلك المعنى المتواضَع عليه معنى آخر مرتبط بمقام التخاطب وظروف إنتاجه، وهو ما يظهر فيما سمّاه عبد القاهر بمعنى المعنى، مما يستدعي حصول تأويل من طرف المخاطَب من أجل إدراك سيرورة المعنى في الملفوظ «واكتشاف معنى المعنى –في نظر الجرجاني– هو أهم مرحلة من مراحل الفهم والتأويل في النصوص والخطابات»[5] خاصة إذا كانت سمة العدول مهيمنةً عليه، ووفق هذه السمة بنى عبد القاهر تصوره المقاصدي في الدلائل، وفي ذلك يقول محمد العمري: «أما التصور المقصدي في الدلائل فقد حاول استيعاب المادة الانزياحية وتهذيبها بجعلها مشروطة بالنظم

وتابعة له برغم الاضطراب الواقع في ذلك»[6] فقد لاحظ هذا الباحث أن مدار كتاب الدلائل واقع على العدول في الكلام وذلك ما يتعلَّق باستعمال اللغة مما يخرجنا للحديث عن المجال التداولي.

جعل عبد القاهر الكلام على ضربين: «**ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تُخبر عن (زيد) مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت: (خرج زيد) وبالانطلاق عن (عمرو) فقلت: (عمرو منطلق)، وعلى هذا القياس. وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دِلالة ثانية تصل بها إلى الغرض. ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل**»[7] **إن تنبه عبد القاهر إلى وجود ضربين من الكلام قاده كما رأينا إلى التمييز بين نوعين من المعنى، وهنا نجد أن الكلام مرتبط بالمعنى مادام أنه يقتضي حصول الفائدة، وهذين النوعين من المعنى سماهما عبد القاهر بالمعنى ومعنى المعنى «تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنًى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر»**[8]. وهو ما يتضح في المعنى المرتبط بالملفوظ.

يرى محمد يونس علي أن مصطلح "معنى المعنى" عند عبد القاهر الجرجاني يطرح جدلا في ما إذا كانت دلالته دلالة على الايحاء أم دلالة على الدلالة الهامشية، إذ يقول: «والواقع أن هذا المصطلح مثير للجدل فيما إذا حاولنا إدراجه تحت أحد طرفي التقابل الثنائي: الدلالة المركزية والدلالة الهامشية، وذلك أن

مقصوده من هذا المصطلح هو ما يمكن تسميته بالمعنى الاستنتاجي في مقابل المعنى الحرفي الذي اقتصر في تسمية على مصطلح المعنى منفردا»[9] فمثلا نقول:

- خرج زيد ⟵ المعنى الأول.

- بلغني أنك تقدِّم رجلا وتؤخر أخرى ⟵⟵⟵ المعنى الثاني.

وقد تنبَّه "محمد يونس علي" إلى ضرورة التمييز بين معنى المعنى ومصطلح المعاني المركزية والمعاني الهامشية، لأنه –وحسب رأي الباحث– مفهومي الدلالة المركزية والدلالة الهامشية لا يوازيان المفهومين لدى الجرجاني (المعنى ومعنى المعنى)، لهذا يرى بأن معنى المعنى عند عبد القاهر الجرجاني هو المقصود للإبلاغ وفيه يتحقق الغرض الإبلاغي للمتكلم، أما المتلقي فيتوجه إلى معنى المعنى ولا يقتصر على المعنى الحرفي في الملفوظ[10]؛ فمعنى المعنى هو المعنى المركزي الذي يتم التفاهم به ولا يجوز عدّه ضمن الدلالة الهامشية التي لا يقصد بها الإبلاغ.

يمثِّل المعنى الأول ما يسمى بالمعنى المباشر أو المعنى في الدرجة الصفر كما يسمِّيه حافظ إسماعيلي علوي إذ يقول: «إنه يتمثل في كل معنى مرتبط مباشرة بمكونات الجملة، ويمثل الحاصل الدائم والمباشر لتآلف العناصر المكونة لهذه الجملة»[11] ففي هذا المستوى من المعنى يبتعد التخاطب عن التأويل، ليجعل الفهم مرتبطا بفهم الملفوظ في استقراره المباشر «وإلى هذه الحدود لا يمكن أن نتحدث عن الخطاب، ولا عن قيام التأويل أو عدمه، لأن المعنى في هذه الحدود يكون في السياق الصفر، إن صحّ هذا، أو خارج السياق وهو بالتالي خارج الاستعمال أو قبله، ولا حديث عن التأويل أو عدمه إلا بعد الاستعمال»[12] وأما **معنى المعنى** فهو مرتبط بالأغراض التي يرومها المتكلم من كلامه، وفي ذلك معارضة من طرف عبد القاهر

للطائفة التي جعلت المعنى يشرف بحسب شرف اللفظ المفرد؛ وهذا ما رفضه عبد القاهر حين ربط المعنى والغرض بالاستعمال وهو استعمال مرتبط بالمتكلم، عن طريق الآليات التي يوظفها في كلامه «**فاعلم أنهم يصفون كلاما قد أعطاك المتكلم أغراضه فيه من طريق معنى المعنى، فكنى وعرّض، ومثّل واستعار، ثم أحسن في ذلك كله وأصاب، ووضع كل شيء منه في موضعه، وأصاب به شاكلته، وعمد فيما كنى به وشبّه ومثّل لما حسُن مأخذه، ودقّ مسلكه، ولطُفت إشارته، وأن المِعرض وما في معناه، ليس هو اللفظ المنطوق به ولكن معنى اللفظ الذي دللت به على المعنى الثاني**»[13] ونجده في معرض حديثه عن الفرق بين المعنى الأول والمعنى الثاني يقول: «**فالمعاني الأوّل المفهومة من أنفس الألفاظ هي المعارض والوشي والحليُ وأشباه ذلك، والمعاني الثواني التي يومأ إليها بتلك المعاني، هي التي تُكسى تلك المَعارض، وتزيَّن بذلك الوشي والحلَّي**»[14] فالمتتبع لقول عبد القاهر عن المعنى الأول والمعنى الثاني يلاحظ تماشيه مع ما سماه سورل بالمعنى المباشر والمعنى غير المباشر، ويرى «بأن التمييز بين معنى الجملة ومعنى قول المتكلم هو القاعدة الأساسية للتميّز بين الخطاب الحرفي والخطاب الاستعاري»[15] فيكون المعنى المباشر مطابقا لحرفية الملفوظ، فهو يتعلق بالاستعمال المباشر، وأما المعنى الثاني فهو متعلق بالاستعمال غير المباشر والمقترن بالتلفظ، وظروف التخاطب «مما يعني أن إدراكه والتوصُّل إليه يتوقف على ما يؤطِّر هذا الاستعمال من معارف خلفية تشتغل بشكل مباشر وبصورة غير مرئية»[16]. إن فهم معنى الملفوظ يتوقف على مدى اشتراك المتكلم والمخاطَب في المحيط الثقافي نفسه، مما يجعل تلك المعرفة معرفةً أساسية في توفير الفهم المشترك للمعنى الحرفي[17]sens littéral وبالاستعانة

بهذه المعرفة فإنه بالإمكان تحديد ما إن كان المعنى المباشر هو المعنى المقصود، أو أنه يتوجب على المخاطَب القيام بتأويل في الحالات التي يكون فيها المعنى المباشر غير دال عن قصد المتكلم وإنما هو عتبة الولوج إلى معنى آخر مضمر أو مستلزم وذلك ما يظهر في حديث عبد القاهر عن التجوز الذي ربطه بالاستعمال؛ من جهة المعقول لا من حيث المنقول «وليس بجديد أن نجد في التقليد العربي ما يبيِّن تقدم منظورهم في دراسة آلية الاستعارة خصوصا لدى الجرجاني، وذلك حين يربطها بالمقام التداولي من جهة، وحين يقوم بتوظيف الحواس والطباع والنظر، والفكر والتجربة في صناعة القول الاستعاري وتأويله من جهة أخرى»[18] وهذا ما يلحظ عنده من خلال جريان هذه المصطلحات في كتابه. إن اشتغال الجرجاني على توضيح الدلالة القائمة في القول كان من منطلق عدم انتصاره لا للفظ وحده ولا للمعنى وحده، وإنما لكلا الطرفين ودورهما في النظم مما يتيح الوصول إلى دلالة القول المضمرة فيه.

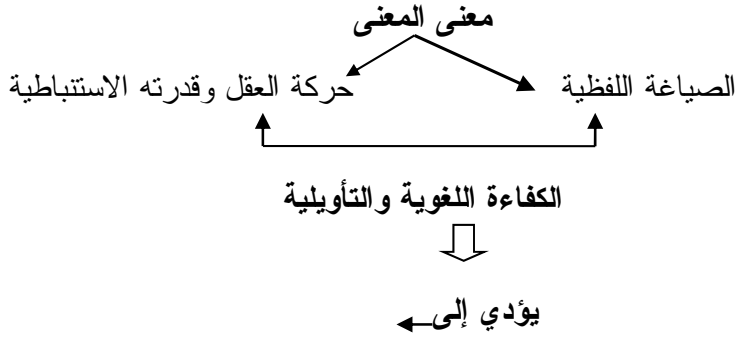

فيستغل المتكلم كل أنواع الاحتمالات النحوية الممكنة في خلق أنماط تركيبية ترتبط به وتدل عليه وهو ما يجعل التمايز يتم بين مبدع وآخر، وأما المخاطَب

المؤوِّل فإنه يعمل على تأويل تلك الأنماط التركيبية من أجل الوصول إلى معنى المعنى وفي ذلك كله تظهر حركية العقل في الانتقال من المعنى الظاهر إلى معنى المعنى، وذلك ما يتم باستثمار مختلف الكفاءات؛ ووفق منظور عبد القاهر يصبح التركيب (القول) ذو جانبين: علاقة أصلية وعلاقة جديدة أضفاها عليه الاستعمال وهذا ما يسمح أو يهيئ إمكانية التحليل الواعي للصياغة[19] وذلك ما يتأتى بالنظر في دينامية العدول داخل القول نفسه.

1- **بلاغة التلميح في الكناية:** تحدث الجرجاني عن الاتساع في القول في فصل بعنوان (في اللفظ يُطلق ويراد به غير ظاهره) وقد ربط الاتساع بالمجاز والكناية، فهو اتِّساع يتعدى البنية الظاهرية إلى أغراض تُستفاد من السياق الذي يرد في القول المجازي، وذلك من جهة فعل الإثبات الذي يقوم به المتكلم، فهو لا يصف واقع معين وإنما يسعى إلى إثبات واقع ما، فالجرجاني قام بإلحاق الأقاويل المجازية بنظرية النظم، وهي متعلقة باختيارات يقوم بها المتكلم أثناء انجازه للقول. يقول الجرجاني: «**والمراد بالكناية ها هنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردِفه في الوجود، فيومئ إليه ويجعله دليلا عليه**»[20] فالكناية تتصل بحالة الاستعمال التي بنى وفقها المتكلم أغراضه، ساعيا إلى إثبات صفة معينة أو واقع معيّن، وذلك الإثبات مرتبط بالانتقال من المعنى الظاهر الحرفي إلى المعنى الثاني، فقول: (هو طويل النجاد) يريد طويل القامة، (نؤوم الضحى) بمعنى امرأة مترفة لها خدم؛ فالملاحظ من القولين حدوث اتساع في المعنى من جهة أن المراد هو إثبات صفة في الممدوح وليس وصفه، وذلك الإثبات يكون بإرادة معنىً مضمراً في السياق

بإظهار معنى آخر هو دليل الإثبات «**فقد أرادوا في هذا كله كما ترى معنى ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنىً آخر من شأنه أن يردفه في الوجود، وأن يكون إذا كان**»[21] إن مفاد قول الجرجاني هو التنبه إلى مستويين من المعنى وهما كما يتضحان لديه: المعنى الأول وهو المعنى المباشر، ثم يأتي المعنى الثاني وهو معنى المعنى، عن طريق النظر إلى قصد المتكلم والقيام بالاستدلال، مادام معنى المعنى مضمرا في القول، فهو يستدعي استدلالا من كلا الطرفين: من المتكلم كي يحدث مزية في القول وصياغة تكسبه جودة في الأداء والاستعمال؛ كما أن الاستدلال يأتي من جهة المخاطَب في كونه يقوم بعمليات استدلالية من شأنها أن تساعده في فهم القول وتأويله للوصول إلى معنى المعنى «**فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرّد اللفظ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى، على سبيل الاستدلال معنى ثانيا هو غرضك**»[22] فقول: (رأيت أسدا) يكون معناه من جهة ربطه بقصد المتكلم وبالسياق الذي يرد فيه ليكون المعنى أنه لا يريد السبع على الحقيقة وإنما تشبيه إنسان بالأسد في بعض الصفات المتواترة فيه، وذلك ما يجعل القول يخرج إلى معنىً ثانٍ هو المقصود؛ ويكون مستدعيا للاستدلال عليه إذ أنَّ «اقتران التأويل بالمجاز يعين على ضبط هوية الكلام الذي ينصرف التأويل إليه»[23]، فهو غير ظاهر وإنما طريقه هي طريق الاستدلال والتأويل من طرف المخاطَب بحسب كفاءته التواصلية.

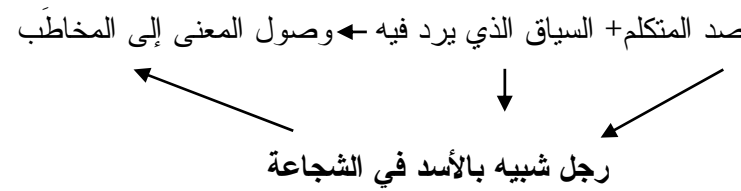

ربط الجرجاني **بلاغة الكناية بالتلميح الذي يكتنفها بدلا من التصريح** الذي يظهر في القول العادي، ففيها تحصل المزية والفضل، فيقول: «**قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلا، وأن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة**»[24] لكن ما يجب النظر والبحث فيه هو النظر في السبب الذي تحصل به المزية في القول المجازي دون الحقيقة، مادام أن هناك معنىً مضمرًا، فهل المزية واقعة من جهة إضمار ذلك المعنى وعدم إظهاره أم أنها تتعدى ذلك لترتبط بأمر آخر يكسبها شرفا في الاستعمال؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل قد قدمها الجرجاني في حديثه عن بلاغة القول المجازي عامة، فهي بلاغة تتصل بجهة الإثبات، هذا الإثبات الذي يفرق بين مزية القول المجازي والقول الحقيقي، وذلك بربطه بقصد المتكلم، فتراه يتحدث عن ذلك بقوله: «**اعلم أن سبيلك أوّلا أن تعلم أن ليست المزية التي تُثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغة التي تدّعي لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره، ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها**»[25] والتقرير هنا يحيل إلى طريقة الصياغة والأداء من طرف المتكلم، لتظهر كأفعال كلامية في القول، وتفسير الجرجاني لأهمية فعل الإثبات في القول كما يلي: «**ليس المعنى إذا قلنا: (إن الكناية أبلغ من التصريح) أنك لما كنيت عن المعنى زِدت في ذاته، بل المعنى أنك زدت في إثباته، فجعلته أبلغ وآكد وأشد، فليست المزية في قولهم:**

(جمّ الرماد) أنه دلّ على قِرى أكثر، بل أنك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ وأوجبته إيجابا هو أشدّ، وادَّعيته دعوى أنت بها أنطق، وبصحتها أوثق. وكذلك ليست المزية التي تراها لقولك: (رأيت أسدا) على قولك: رأيت رجلا لا يتميز عن الأسد في شجاعته وجرأته أنك قد أفدت بالأول زيادة في مساواته الأسد، بل أن أفدت تأكيداً وتشديداً وقوة في إثباتك له هذه المساواة، وفي تقريرك لها. فليس تأثير الاستعارة إذن في ذات المعنى وحقيقته، بل في إيجابه والحكم به»[26] **فالمزية** تقع في طريق إثبات المعنى وليس المعنى نفسه، وعبارة طريق الإثبات تشير إلى **الأداء الخاص بالمتكلم** «والداعي في كل ذلك يكون سياقيا أو معرفيا»[27]، ليكون ذلك الإثبات فعلا كلاميا متضمنا في القول، ويحمل معنى المعنى الذي يصل إليه المخاطَب بالاستدلال على القول، ومن بين ما يساعده في الوصول إلى معنى المعنى ضرورة إدراكه لفعل الإثبات في القول، وأنه به تحصل المزية وهذا ما يجعل المخاطَب يسعى إلى الاستدلال عن جهة إثبات المعنى وليس المعنى نفسه، لأن المعنى قد يشترك فيه فئة من الناس لكن طريقة إثباته تختلف باختلاف القصد والغرض، وفي ذلك يقول الجرجاني: «**...فإنهم لا يريدون الشجاعة والقرى وأشباه ذلك من معاني الكلم المفردة، وإنما يعنون إثبات معاني هذه الكلم لمن تثبت له ويُخبر بها عنه**»[28] وهنا مراعاة للمخاطَب وكيفية إيصال المعنى له وهو معنى مرتبط بالاستعمال وليس بالوضع، وهو استعمال يتفرد به المتكلم ضمن السياق التخاطبي الذي يتواجد فيه، وهنا تفريق من الجرجاني بين الوضع والاستعمال، وإن هذا الأخير مرتبط بطريق الإثبات في القول

فالقول: (زيد كثير رماد القدر) يظهر فيه:

– **المعنى الأوّل:** هو المعنى النحوي يتعلق بإثبات صفة الكرم بإثبات دليلها وهو كثرة رماد القدر. –**المعنى الثاني:** يظهر من خلال قصد المتكلم من إثبات الصفة بما هو شاهد في وجودها وقصده ليس الزيادة في معنى الكرم المثبت لزيد، وإنما هو زيادة في التأكيد ومبالغة في الدعوى[29]، لأنّ الجرجاني يركز على الإدعاء في القول الذي ينشئه المتكلم[30] وذلك ما يظهر من خلال ارتباط ذلك القصد بالنظم والذي يستدعي تأويلا واستدلالا.

من خلال هذا الانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثاني يمكن إدراك الفرق بين القولين:

1– عمرو كريم

2– زيد كثير رماد القدر

إنّ الفرق بين القولين لا يكون من جهة أنّ زيدا أكثر كرما من عمرو، وإنما الفرق يكون من جهة الإثبات وطريقة (كيفية انجازه في القول) وبذلك تكون المزية منجزة في القول (2) ناشئة في جهة إثبات كرم زيد لا في محل القضية نفسها (الكرم) ويكون تحليل الشاهد كما يلي[31]:

-**(ق1)**: عمرو كريم ⟸ إثبات كرم عمرو دون إظهار قوة الإثبات∅

المعنى الأول: هو **الإثبات**

المعنى الثاني: هو **الإخبار** على سبيل الابتداء

-**(ق2)**: زيد كثير رماد القدر ⟸ إثبات كثرة رماد زيد بكرم زيد + إثبات ذو قوة يفيد

التوكيد ومبالغة في الدعوى.

المعنى الأول: هو **الإثبات**

المعنى الثاني: هو **التوكيد والمبالغة** في الدعوى.

وهنا يظهر الإثبات كفعل كلامي واقع في الدليل **(دليل الكرم = كثرة رماد القدر)** وليس في صفته (الكرم)

وهو ما يوضحه الاستدلال الذي يتوصل به إلى الربط بين الصفة ودليلها بإثباتها فيه، وهو استدلال واقع من طريق المتكلم الذي أكسبه حمولة مقاصدية قصد منها حصول فعل التأثير في المخاطَب الذي يوجَّه إليه القول. والملاحظ من هذا الاستدلال هيمنة قصدية الإشراك التي تقع لدى المخاطَب في إدراكه إثبات الصفة بإثبات دليلها ومساهمته في ذلك، لأن المخاطَب يدخل ضمن عناصر المقام التخاطبي، لأن الاستدلال الحاصل في القول يجعل المخاطَب أكثر اقتناعا بالقول وحجته[32] لذا فإنّ الكناية باعتبارها تلميحا أبلغ من التصريح «**فليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره والمبالغة التي تدّعي لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره، ولكنها في طريق إثباته لها**

وتقريره إياها...فليس تأثير الاستعارة إذن في ذات المعنى وحقيقته، بل في إيجابه والحكم به»[33] والانتقال من التصريح إلى التلميح هو ما يحقق المزية في الخطاب.

إن هذا القول يحيل إلى الحديث عن أهمية النظر إلى المعاني الثواني من جهة الأغراض التي يساق إليها الكلام، ولا تتم المزية بالوقوف عند دلالات الألفاظ المستعارة مجرّدة من معانيها النحوية، وإنما الانتقال من المعاني الأوّل إلى المعاني الثواني يكون من طريق النظر في النظم ومعاني النحو المتحققة فيه، من جهة الإثبات الذي يقع من المتكلم وهو ما يجعل المعاني والبيان مما ينتظمه النحو ومعانيه، باعتباره ينطلق من البنية العميقة التي تؤلف المعاني النفسية لدى المتكلم وصولا إلى تهيئتها في بنية إنجازية تتجه إلى المخاطَب قصد إشراكه في توخي المعنى بتعلقه بالأغراض المقصودة من القول «ذلك هو مذهب الجرجاني في تحديد المعاني النحوية وإنجازها في المقامات المختلفة للأغراض المختلفة بدرجات من الزيادة والفضل والمزية متفاوتة»[34]. إن هذا الرأي الذي لمحناه عند عبد القاهر يدخل في تعالق مع ما تحدث عنه "غرايس وسورل" في الفرق بين معنى الجملة ومعنى المتكلم، فقد تحدث غرايس عن المعنى غير الطبيعي في القول وجعله متعلقا بالاستعمال كما يتعلق بقصد المتكلم، ونجده يعبِّر عن تلك الدلالة القصدية التي تحدث عنها «بأن تدل على شيء ما دلالة غير طبيعية هو أن تدل عليه بواسطة دراية المتلقي لقصد الدلالة عليه، فقصد الدلالة عليه إنما هو قصد الدلالة عليه بواسطة دراية القصد»[35]وبذلك فإن الاتصال القصدي يتم عن طريق إرادة توصيله بشكل قصدي .

خاتمة: يتعلق المعنى في القول المجازي عامة بطريقة صياغته، وهو ما أورده عبد القاهر في مصطلح النظم، ولما كان المعنى في الملفوظ منقسما إلى معنى مباشر وآخر غير مباشر فإن ضرورة البحث عن القسم الثاني من المعنى –المعنى غير المباشر– يمثل موضوعا حقيقيا للتأويل، وذلك بغية الوصول إلى المعنى المتوارى في القول، ويتحقق هذا الإنجاز بالنظر إلى طريقة اشتغال القول المجازي وديناميته في الخطاب، وذلك بحضور المتكلم والمخاطَب ومقام التلفظ، بحيث تتفاعل هذه المكونات لكي يحصل المعنى ويتحقق الهدف المرسوم[36] وهو ما يتوَّج **بمعنى المعنى** عند عبد القاهر.

تظهر الملفوظات المجازية عامة في ترسيمة يعرض فيها المتكلم قوله وذلك من حيث إرادته تحقيق ملفوظات من نوع (أ هو ب) إلا أنه يريد من خلال ذلك أن يقول بأنّ (أهو ج)[37] وهو يتلفظ به قاصدا الانتقال من المعنى الحرفي إلى المعنى الثاني، أو ما يسمى بمعنى المعنى عند عبد القاهر. ويتمثل الإشكال الذي يؤطِّر الملفوظات المجازية في معرفة كيف يمكن قول شيء ما مع إرادة قول غيره؟ وكيف يمكن نجاح التواصل بين المتكلم ومخاطَبه مادام هناك خرق لبعض قواعد التخاطب، لهذا فإن جدوى طرح سؤال عن اشتغال المجاز في القول يجعلنا نتكهن بوجود دينامية في القول وكذا رسم حدود تأويلها من طرف المخاطَب حتى يتم إدراك معنى المعنى. وهذا ما يتبين عند عبد القاهر الجرجاني، بحيث صبَّ اهتمامه على الدلالة الإضافية (معنى المعنى) المرادة والمشتغلة في الخفاء من وراء الدلالة الحقيقية، وهذا الصنف الدلالي أصبح من أبرز المجالات الدلالية عند البلاغيين والتداوليين، لأن الأغراض البلاغية والمكوِّنات الدلالية تتحقق عبر تلك الدلالة

بحدوث العدول في الخطاب، لتظهر مختلف الأفعال الكلامية داخل الخطاب. وقد اهتم بإعطاء فرصة للمخاطَب في البحث عن المعنى المقصود المضمر داخل الخطاب، فضلا عن بيان كفاءته في التأويل والتي غالبا ما ربطها عبد القاهر الجرجاني **بفعل التدبر**.

- **الهوامش:**

1- محمد عبد المطلب، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، الشركة المصرية للنشر لونجمان، ط1، 1995، القاهرة، ص 214.

♦- هيمنت القاعدة النحوية على النحو العربي قديما مما جعل بعض العلماء لا يقبلون الاختراق أو الانحراف وربطوا أي محاولة في الخروج عن القاعدة بالأمر الشاذ، وأنه لا يقاس عليه، أو أنه لحن ينبغي تقويمه وتصويبه، إلا أن عبد القاهر الجرجاني ومن سار على نهجه قد عارضوا هذه الآراء ونظروا إلى أهمية العدول في الاستعمال اللغوي، وأنه لا ينبغي الاكتفاء بالقوالب الجاهزة وإنما الأهمية تتضح في طريقة النظم، والذي يتضّح في النص أو الخطاب بالمفهوم المعاصر؛ فلقد أوجد الاستعمال متنفساً لدى الشعراء ليقبلوا على النظم الشعري دون قيود، ولم تقف سلطة المعيار عائقا أمام الإبداع، بل ظهر نتيجة لذلك ما أسماه أحمد يوسف بـــ «عنف الخطاب الشعري وثورته على ما أسماه النحاة بالأصول». أحمد يوسف، شعرية العدول وفلسفة النحو، مقال ضمن مجلة دراسات سيميائية، ص 29.

2- دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، ط1، دار المدني، السعودية، 1992، ص257.

3- محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي **-دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية-** أفريقيا الشرق، المغرب، 2010، ص 55.

4- محمد محمد يونس علي: المعنى وظلال المعنى، **أنظمة الدلالة في العربية**، ط2، دار المدار الإسلامي، 2007، ص 177.

5- محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة -بحث في بلاغة النقد المعاصر-، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، 2008، ص265.

6 – محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، 1999، ص 354.

7– دلائل الإعجاز، ص 262.

8– م. ن، ص263.

9– محمد يونس علي، المعنى وظلال المعنى، ص 206.

10– ينظر: م.ن، ص 207.

11– حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات، علم استعمال اللغة، ط1، عالم الكتب الحديث، عمان 2011، ص 206.

12– حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات، علم استعمال اللغة، ص 206.

13– دلائل الإعجاز، ص 263.

14– م. ن، ص 264.

15– عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغيِّر –مقاربة تداولية معرفية للآليات التواصل والحجاج– إفريقيا الشرق، المغرب، 2004، ص 116.

16– حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات، علم استعمال اللغة، ص 208.

17 - Voir :j. searl: sens et expression. traduction et préface par j. proust, éd mnuit, 1982, p170.

18– عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغيِّر، ص 114.

19– محمد عبد المطلب، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، ص 73.

20– دلائل الإعجاز، ص 66.

21– م. ن، ص ن.

22– دلائل الإعجاز، ص 262.

23– أحمد عرابي، جدلية الفعل القرائي عند علماء التراث، دراسة دلالية حول النص القرآني ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010، ص 66.

24– دلائل الإعجاز، ص 70.

25– دلائل الإعجاز، ص 71.

26- دلائل الإعجاز، ص 71.

27- حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، ص 216 .

28- م. ن، ص 71.

29- خالد ميلاد، الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة دراسة نحوية تداولية، ط1، المؤسسة العربية للتوزيع، 2001، ص 382.

30- م. ن، ص 383.

31- اعتمدت في تحليل الشاهد على ما قدمه خالد ميلاد في كتاب الإنشاء في العربية، بخصوص حديثه عن فعل الإثبات والأفعال الكلامية، يراجع: الإنشاء في العربية، ص384.

32- تنبه طه عبد الرحمان في حديثه عن فعل الإدعاء في الاستعارة لدى الجرجاني إلى إهمال الجرجاني لفعل الاعتراض الذي يقع من المخاطَب بالنظر إلى الأهمية التي أولاها لفعل الإدعاء الحاصل من المتكلم، ورأى طه عبد الرحمان أنّ الجرجاني لو أكمل عمله لأظهر قيمة الاعتراض الحاصل من جهة المخاطَب.

33- دلائل الإعجاز، ص 56، 57.

34- خالد ميلاد، الإنشاء في العربية، ص 385.

35- عادل فاخوري، «الاقتضاء في التداول اللساني»، مجلة عالم الفكر، ع3، المجلد 20 منشورات وزارة الإعلام بالكويت، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر 1989، ص 145.

36- ينظر: سعيد الحنصالي، الاستعارات والشعر العربي الحديث، ط1، دار توبقال للنشر 2005، ص 149.

37 -J.searl: sens et expression, p129.